

تتمة

أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعلوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجبلي الشنقيطي

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ

محمد بن عوض بن لادن

رحمه الله

وفقاً لله على طلبة العلم

الجزء التاسع

والثاني من التتمة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُمْ فِيهِ
مُخْتَلِفُونَ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ .

عم أصله عن ما أدغمت النون في الميم ، ثم حذف ألف الميم ، لدخول
حرف الجر عليه للفرق بين ما الاستفهامية وما الموصولة .

والمعنى : عن أى شيء يتساءلون ، وقد يفصل حرف الجر عن
ما ، فلا يحذف الألف .

وأنشد الزمخشري قول حسان رضى الله عنه :

على ما قام يشتمنى لثيم كخنزير تمرغ في رماد

وقال في الكشف : وعن ابن كثير أنه قرأ عمه ، بهاء السكت ،
ثم وجهها بقوله : إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف
ويبتدىء يتساءلون عن النبأ العظيم ، على أن يضمّر يتساءلون ، لأن
ما بعده يفسره .

وقال المقرئ : قوله : عن النبأ العظيم : ليس متعلقا يتساءلون
المذكور في التلاوة ، ولكن بقدر فعل آخر عم يتساءلون عن النبأ

العظيم ، وإلا لأعيد الاستفهام أعن النبي العظيم ؟

وعلى كل ، فإن ماتسألوا عنه أبهم أولا ، ثم بين بعده بأنهم يتسألون عن النبي العظيم ، ولكن بقي بيان هذا النبي العظيم ما هو ؟

وقيل : هو الرسول صلى الله عليه وسلم في بعثته لهم .

وقيل : في القرآن الذى أنزل عليه يدعوهم به .

وقيل : في البعث بعد الموت .

وقد رجح ابن جرير : احتمال الجميع وألا تعارض بينها .

والواقع أنها كلها متلازمة ، لأن من كذب بواحد منها كذب بها كلها ، ومن صدق بواحد منها صدق بها كلها ، ومن اختلف في واحد منها لاشك أنه يختلف فيها كلها .

ولكن السياق في النبي وهو مفرد . فما المراد به هنا بالذات ؟

قال ابن كثير والقرطبي : من قال إنه القرآن : قال بدليل قوله : (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون)

ومن قال : إنه البعث قال بدليل الآتى بعدها : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أظهرها دليلاً هو يوم القيامة والبعث ، لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها ، وعقبها بالنص

على يوم الفصل صراحة ، أما براهين البعث فهى معلومة أربعة : خلق الأرض والسموات ، وإحياء الأرض بالنبات ، ونشأة الإنسان من العدم ، وإحياء الموتى بالفعل فى الدنيا لمعاينتها وكلها موجودة هنا .

أما خلق الأرض والسموات ، فنبه عليه بقوله (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) ، وقوله : (وبيننا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) ، فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى كما قال : (نخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وأما إحياء الأرض بالنبات ففى قوله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء نجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) كما قال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لحى الموتى) .

وأما نشأة الإنسان من العدم ، ففى قوله تعالى : (وخلقناكم أزواجا) أى أصنافا ، كما قال تعالى : (قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وأما إحياء الموتى فى الدنيا بالفعل ، فى قوله تعالى : (وجعلنا نومكم سباتا) والسبات : الانقطاع عن الحركة . وقيل : هو الموت ، فهو ميتة صغرى ، وقد ساء الله وفاة فى قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها) ، وقوله تعالى : (وهو

الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) ، وهذا كقتيل بنى إسرائيل وطيور إبراهيم ، فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيرادها مفصلة في أكثر من موضع ، ولذا عقبها تعالى بقوله : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) أى للبعث الذى هم فيه مختلفون ، يكون السياق مرجعاً للمراد بالنبيا هنا .

ويؤكد ذلك أيضاً كثرة إنكارهم وشدة اختلافهم في البعث أكثر منهم في البئنة ، وفي القرآن ، فقد أقرأ أكثرهم ببلاغة القرآن ، وأنه ليس سحراً ولا شمرأ ، كما أقرؤا جميعاً بصدقه عليه السلام وأمانته ، ولكن شدة اختلافهم في البعث كما في أول سورة صّ و قّ ، ففي ص قال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) .

وفي قّ قال تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجوع بعيد) ، فهم أشد استبعاداً للبعث مما قبله ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

لم يبين هنا هل علموا أم لا . ولكن ذكر آيات القدرة الباهرة

على إحيائهم بعد الموت بمثابة إعلامهم بما اختاره فيه ، لأنه بمنزلة من يقول لهم : إن كنتم مختلفين في إثبات البعث ونفيه ، فهذه هي آياته ودلائله فاعتبروا بها وقايسوه عليها ، والقادر على إيجاد تلك ، قادر على إيجاد نظيرها .

ولكن العلم الحقيقي بالمعينة لم يأت بعد لوجود السين وهي للمستقبل ، وقد جاء في سورة التكاثر في قوله : (أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) ، وهذا الذي سيعلمونه يوم الفصل المنصوص عليه في السياق . (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ .

قرىء بالإنفراد ، مهذا أى كالمهد للطفل . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا) من سورة طه .

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذه الثلاثة ، كون النوم سباتاً : راحة أو موتاً ، والليل لباساً ، ساتراً ومريحاً ، والنهار معاشاً لطلب المعاش ، وذلك عند كلامه على قوله تعالى من

سورة الفرقان : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) وكلها آيات دالات على القدرة على البعث ، كما تقدمت الإشارة إليه

قوله تعالى ﴿ وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

أى السماوات السبع ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى فى سورة قـ (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج) وساق النصوص مماثلة هناك .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .

النفخ فى الصور للبعث ، وهذا معلوم ، وتأتون أفواجا : قد بين حال هذا الحجب مثل قوله تعالى : (يخرجون من الأجداث سراعا) ، وقوله : (كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع) والأفواج هنا قيل : الأمم المختلفة كقوله : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه — الآية) ، ولكن الآية بتاء الخطاب : فتأتون مما يشعر بأن الأفواج فى هذه الأمة .

وقد روى القرطبي وغيره أثرأ عن معاذ ، أنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيهِ وقال : تحشر عشرة أصناف من أمتي » وساقها ،

وكذلك ساقها الزخشرى ، وقال ابن حجر فى الكافى الشافى فى تخرىج أحاديث الكشف : أخرجه الثعلبى وابن مردويه من رواية محمد بن زهير ، عن محمد بن الهندى عن حنظلة السدوسى عن أبيه عن البراء ابن عازب عنه بطوله وهى : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمياً ، وبعضهم صماً ، بكماً ، وبعضهم يعضفون ألسنتهم ، فهى مدلاّت على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نقناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جلباباً سابعة من قطران لازقة بجلودهم .

أما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت ، والمفكسون : أكلة الربا ، والعمى : الجائرون فى الحكم ، والهم : المعجبون بأعمالهم ، والذين يعضفون ألسنتهم : العلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم ، ومقطوع الأبدى : مؤذوا الجيران ، والمصلبون : السعاة بالناس إلى السلطان ، والذين أشد نقناً : متبعوا الشهوات ، ومانعوا حق الله فى أموالهم ، ولا بسوا الجلباب : أهل الكبر والفخر . انتهى بإيجاز بالعبارة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

تقدم بيان أحوالها يوم القيامة ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك مفصلاً ، عند قوله تعالى من سورة طه : (ويسألونك عن الجبال قتل ينسفها ربى نسفاً) وعند قوله تعالى في سورة النمل : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

قوله تعالى ﴿ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ، لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ، إِلَّا هَمِيمًا وَغَسَاقًا ۖ ۝ ١٧ ۖ ﴾ .

لم يبين الأحقاب هنا كم عددها ، وهذه مسألة فناء النار ، وعدم فنائها .

وقيل : المراد بالأحقاب هنا جزء من الزمن لا كله ، وهى الأحقاب الموصوف حالهم فيها لما بعدهم من كونهم لا يذوقون فيها ، أى فى النار أحقاباً من الزمن ، لا يذوقون برداً ولا شراباً إلا حمياً وغساقاً .

أما بقية الأحقاب فيقال لهم : فلن تزيد إلا عذاباً ، وهذه المسألة مد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى كتاب دفع إيهام الاضطراب ، عند الكلام على هذه الآية ، وفى سورة الأنعام على قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) الآية ، وهو بحث مطول ، وسيطع الكتاب بإذن الله تعالى مع هذه التهمة .

وذكر القرطبي فى معنى الحقب : آثاراً عديدة منها : عن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً » الحقب :
 بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة
 مما تعدون . فلا يتكلن أحدكم على أنه يخرج من النار » . ذكره
 الثعلبي .

وقد رجح القرطبي دوامهم ، أى الكفار فى النار أبداً
 الآبدى . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .

قيل المراد بالشيء هنا : أعمال العباد ، أى أنه بعد قوله (جزاء
 وفاقاً) أى وفق أعمالهم بدون زيادة ولا نقص ، قال : وقد أحصينا
 أعمالهم وكتبناها ، وهذا كقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى
 المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر
 صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم
 ربك أحداً) . وقوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)
 وقوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً
 يره) ، وقوله : (أحصاه الله ونسوه) .

واللفظ عام فى كل شيء ، ويشهد له قوله تعالى : (إنا كل شيء

خلقناه بقدر) وبقدر فيه معنى الإحصاء ، وفي السنة : حديث القلم المشهور ، وكقوله : (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) وتقدم في سورة الجن قوله تعالى : (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه ، وألا يفوته شيء قط ، وأنه يعلم بالجزئيات علمه بالكليات .

وكما تقدم في سورة المجادلة (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

وكذلك التفصيل في قوله : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة لا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .

بينه بعده بقوله تعالى : (حدائق وأعناباً — إلى قوله — جزاء من ربك عطاء حساباً) .

قوله تعالى ﴿ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ .

في حق الكفار ، قال : جزاء وفاقاً ، وفي حق المؤمنين ، قال
عطاء حساباً .

ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحداً .
وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به
من الأصل ، وهو المفاض المفسر في قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار
وأدخل الجنة فقد فاز) .

ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما في حديث : « لن يدخل
أحدكم الجنة بعمله » ، وقوله : حساباً : إشعار بأن تفاوت أهل الجنة
في الجنة بالحساب ونتائج الأعمال . وقيل حساباً : بمعنى كفاية ، حتى
يقول كل واحد منهم : حسبي حسبي . أى كافيتي .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيانه ، عند الكلام على
قوله تعالى من سورة الكهف : (وعرضوا على ربك صفّا) .

وقد ذكر ابن كثير لمعنى الروح هنا سبعة أقوال هي : أرواح
بنى آدم ، أو بنو آدم أنفسهم ، أو خلق من خلق الله على صور بنى
آدم ليسوا بملائكة ولا بشر ، وبأكلون ويشربون ، أو جبريل أو
القرآن ، أو ملك عظيم بقدر جميع المخلوقات . ونقلها الزمخشري وحكاها

للقرطبي ، وزاد : ثامنا وهم حفظة على الملائكة ، وتوقف ابن جرير في ترجيح واحد منها .

والذي يشهد له القرآن بمثل هذا النص أنه جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، ففيه عطف الملائكة على الروح من باب عطف العام على الخاص ، وفي سورة القدر عطف الخاص على العام . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ .

قال الزمخشري : لشدة هول الموقف ، وهؤلاء وهم أكرم الخلق على الله وأقربهم إلى الله ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، فغيرهم من الخلق من باب أولى .

وقال ابن كثير : هو مثل قوله تعالى : (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) ومثله قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)

والواقع أن هذا كله مما يدل على أن ذلك اليوم لا ساطة ولا ساطان لأحد فقط ، حتى ولا بكلمة إلا ما أذن فيها ، كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ ﴾ .

هو يوم القيامة لاسم الإشارة ، وقد أشير إليه بالاسم الخاص
 بالبعد ذلك بدلا من هذا ، مع قرب التكلم عنه ، ولكن لما بعده
 زمانياً عن زمن التحدث عنه ، ولما لبعده منزلته وعظم شأنه ،
 كقوله تعالى : (أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ) ، وفي هذا عود على بدء في
 أول السورة ، وهو إذا كانوا يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم
 القيامة ، فإنهم سيعلمون حقاً ، وها هو اليوم الحق لالبس فيه
 ولا شك ليرونه عين اليقين .

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ۖ ﴾ .

المآب : المرجع ، كما تقدم مثله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) ،
 فإذا كان هذا اليوم كائناً حقاً ، والناس فيه إما إلى جهنم ، كانت
 مرصداً للطاغين مآباً ، وإما إلى مفازا حدائق وأعقاباً ، فبعد هذا
 البيان ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، يؤب به عند ربه مآباً يرضاه
 لنفسه ، ومن شاء هنا نص في التخيير ، ولكن المقام ليس مقام تخيير ،
 وإنما هو بمثابة قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
 إنما أعتدنا للظالمين نارا) الآية .

فهو إلى التهديد أقرب ، كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما
 يسلك ، والله تعالى أعلم .

ويدل على التهديد ما جاء بعده .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .

وقوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، وهذا كله تحذير شديد ، وحث أكيد على السعى الحثيث لفعل الخير ، وطلب النجاة في اليوم الحق ، نسأل الله السلامة والعافية .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

قد بين تعالى نتيجة هذا النظر إما المسرة به وإما الفزع منه ، كما في قوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿وَالنَّزِعَتِ غَرْقًا﴾ .

الواو للقسم ، والمقسم به محذوف ، ذكرت صفاته في كل المذكورات ، إلى قوله : (فالمدبرات أمرا) .

وقد اختلف في القسم به فيها كلها ، على ما سيأتى بيانه إن شاء الله .

والنازعات : جمع نازعة ، والنزع : جذب الشيء بقوة من مقره ، كنزع القوس عن كبده ، ويستعمل في المحسوس والمعنوى ، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا ، ومنه قوله : ونزع يده ، وقوله : (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وينزع عنهما لباسهما ، ومن المعنوى قوله تعالى : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا) ، وقوله : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) ، والحديث : لعله غزعه عرق .

والإغراقى المبالغة ، والاستفراق : الاستيعاب

أما المراد بالنازعات غرقا هنا ، فقد اختلف فيه إلى حوالى عشرة

أقوال منها : أنها الملائكة تنزع الأرواح ، والنجوم تنقل من مكان إلى مكان آخر ، والأقواس تنزع السهام ، والفزاة ينزعون على الأقواس ، والفزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب للقتال ، والوحوش تنزع إلى الطلا ، أى الحيوان الوحشى .

والناشطات : قيل أصل الكلمة : النشاط والخفة ، والأنشطة : المقدمة سهلة الحل ، ونشطه بمعنى ربطه ، وأنشطه حله بسرعة وخفة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « كأنما أنشط من عقال » .

أما المراد به هنا فقد اختلف فيه على النحو المتقدم تقريباً ، فقول : الملائكة تنشط الأرواح ، وقيل : أرواح المؤمنين تنشط عند الفزع ، ولم يرجح ابن جرير معنى منها ، وقال : كلها محتملة ، وحكاها غيره كلها .

وقد ذكر فى الجلالين المعنى الأول منها فقط ، والذي يشهد له السياق والنصوص الأخرى : أن كلا من النازعات والناشطات : هم الملائكة ، وهو مما روى عن ابن عباس ومجاهد ، وهى صفات لها فى قبض الأرواح .

ودلالة السياق على هذا المعنى : هو أنهما وصفان متقابلان : الأول نزع بشدة ، والآخر نشاط بخفة ، فيكون النزع غرقاً لأرواح

الكفار ، والنشط بحقة لأرواح المؤمنين ، وقد جاء ذلك مفسراً في قوله تعالى في حق نزع أرواح الكفار (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية . وقوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى في حق المؤمنين : (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) ، وقوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اتفنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تهمزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها : (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، ونظر المرء ما قدمت يداه يبدأ من حالة النزاع حينما يشغل اللسان عن النطق في حالة الحشجة ، حين لا تقبل التوبة عند المعاينة لما سيؤول إليه ، فينظر حينئذ ما قدمت يداه ، وهذا عند نزع الروح أو نشطها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ سَبْحًا ، فَالْسَّيِّئَاتِ مَهِينًا ﴾ .

قيل : السابحات النجوم . وقيل : الشمس والقمر والليل والنهار ،

والسحاب والسفن والحيثان في البحار ، والخيول في الميدان .

وذكرها كلها أيضاً ابن جرير ولم يرجع . وقال : كلها محتملة ،
وذكرها غيره كذلك .

والواقع ، فإنها كلها آيات عظام تدل على قدرته تعالى ، إلا أن
السياق في أمر البحث والمعاد ، وأقرب ما يكون إليه الآيات الكونية :
الشمس والقمر والنجوم ، وقد وصف الله الشمس والقمر بالسبحات
في قوله تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار ، وكل في فلك يسبحون) والسابقات من النجوم ،
السيارة .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .

اتفق المفسرون على أنها الملائكة ، وذكر الفخر الرازي رأياً له
بعيدا ، وهو أنها الأرواح ، وأنها قد تدبر أمر الإنسان في المنامات ،
وهو قول لا يعول عليه كما ترى .

والذي يشهد له النص أنها الملائكة ، كما في قوله تعالى : (تنزل
الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وكما وصف الله
الملائكة بقوله : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .
قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبِمُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ .

هما النفختان في الصور ، الراجفة هي الأولى ، والرادفة هي الثانية ، كما في قوله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة يس عند قوله تعالى : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ، وسميت الأولى الراجفة ، لما يأخذ العالم كله من شدة الرجفة ، كما في قوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله (فصعق من في السماوات ومن في الأرض) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد رحمه الله بسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تذهبها الرادفة ، جاء الموت بما فيه . فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : لماذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » وسنده قال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن أبي الطفيل ابن أبي بن كعب عن أبيه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — الحديث » .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ .

قال ابن كثير : يستنكر المشركون البعث بعد الموت ، والحافرة الحياة بعد موتهم ومصيرهم إلى القبور .

ونقل أن الحافرة النار ، وأكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى :
يقال : عاد في حافرتة رجع في طريقه ، كأن يحياه الأول حفر طريقه
بمشيه فيها ، وعليه لاعلاقة له بحفرة القبر ، وإنما هو تعبير عربى عن
العودة فى الأمر ، وبشهد له قول الشاعر :

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من صلح وعار
أى أرجع إلى الصبا بعد الصلح والشيب .
وقول الآخر :

أقدم أخانهم على الأساوره ولا يهولنك رهوس نادره
فإنما قصرك ترب الساهره حتى تعود بعدها فى الحافره
* من بعد ماصرت عظاما ناخره *

وقد دلت الآية بعدها ، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة
أخرى ، فى قوله : (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) .

والكرة : هى العودة إلى الحياة الأولى ، وهى ما قبل حفرة القبر
من تكرار الحياة السابقة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَنَخَّرَ ﴾ .

المظام النخرة البالية ، والتى تخللها الريح ، كما فى قول الشاعر :
وأخليتها من مخها فكأنها قوارير فى أجوافها الريح تنخر

ونخرة الريح شدة صوتها ، ومنه المنخر ، لأخذ الهواء منه ، وبذل
لهذا قوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى
رميم) .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .

بين تعالى هذا الحديث وموضوعه ومكانه بقوله تعالى بعبده : (إذ
ناداه ربه بالواد المقدس طوى إذهب إلى فرعون إنه طغى - إلى قوله -
فقال أنا ربكم الأعلى) .

قوله تعالى : (ناداه ربه بالواد المقدس) بين القرآن التكريم ،
أنه الطور في قوله تعالى : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله
أنس من جانب الطور نارا - إلى قوله - فلما آتاها نودى من شاطئ
الواد الأيمن فى البقعة المباركة) والمباركة تساوى المقدس .

فبين تعالى أن المفاداة كانت بالطور وهو الواد المقدس ، وهو
طوى ، وفى البقعة المباركة . وقد بين تعالى ما كان فى ذلك المكان
من مناجاة وأمر العصا والآيات الأخرى فى سورة طه من أول قوله تعالى
(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا - إلى قوله - اذهب إلى
فرعون) .

وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القول فى ذلك

الموقف في سورة مريم عند قوله تعالى : (ونادينا من جانب الطور الأيمن) .

وقد بين تعالى في سورة طه ، كامل قصة المناداة من قوله : (إني أنا ربك فاخضع لنجليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية) .

ثم قصة العصا والآية في يده عليه السلام ، وإرساله إلى فرعون إنه طغى ، وسؤال موسى : (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) واستوزار أخيه معه ، دون التعرض إلى أسلوب الدعوة ، وفي هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة ، وما ينبغي أن يكون عليه نبي الله موسى مع عدو الله فرعون .

وأسلوب العرض : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ، ثم تقديم الآية الكبرى ، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف ، حيث لا يوجد اليوم أكثر من فرعون ، ولا أشد طغياناً منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معاً فقال : (أنا ربكم الأعلى) ، وقال : (ما علمت لكم من إله غيري) ، ولا يوجد اليوم أكرم على الله من نبي الله موسى وأخيه هارون .

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خلق الله إلى أكفر عباد الله بهذا الأسلوب الهادئ اللين الحكيم منطلقاً من قوله تعالى :

(فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) فسكانا كما أمرها الله ،
وقالاً كما علمها الله ، (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك
فتخشى) ، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقد وضع القرآن منهجاً متكاملًا للدعوة إلى الله ، وفصله العلماء
بما يشترط في الداعي والمدعو إليه ، ومراعاة حال المدعو .

وقد قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، (بأبيها الذين
آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم) من سورة المائدة .
وقوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) في سورة هود .

وقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هي أحسن) في سورة النحل .

ومجموع ذلك كله يشكل منهجاً كاملاً لمادة طريق الدعوة إلى الله
تعالى ، فيما يتعلق بالداعي والمدعو وما يدعو إليه ، وكيفية ذلك والحمد لله

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا الْكُتُبَ ، فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾

ذكر هنا الآية الكبرى فقط ، وذكر تعالى هـ ان فرعون جمع
بين التكذيب والعصيان ، وتقدم سورة القمر قوله : (ولقد جاء آل
فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ .

النكال : هو اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له حتى يعتبر به ، والكلمة من الامتناع ، ومنه الذكول عن اليمين ، والنكل القيد .
قاله القرطبي .

واختلف فى الآخرة والأولى : أم الدنيا والآخرة ؟ أم هم الكلمتان العظيمتان اللتان تكلم بهما فرعون فى قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) .

والثانية قوله : (أنا ربكم الأعلى) .

قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة . وقد اختار ابن كثير الأول ، واختار ابن جرير الثانى ، ومعه كثير من المفسرين .

ولكن يرد على اختيار ابن كثير : أن السياق قدم الآخرة ، مع أن تعذيب فرعون مقدم فيه نكال الأولى ، وهى الدنيا .

كما يرد على اختيار ابن جرير ، أن الله تعالى جعل أخذه لإياه نكالا ، ليعتبر به من يخشى ، والعبرة تكون أشد بالحدوس ، وكلناه قبلنا فى زمنه .

والقرآن يشهد لما قاله ابن كثير ، فى قوله تعالى : (فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية) ، وهذا هو محل الاعتبار .

وقد قال تعالى بعد الآية (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

واسم الإشارة في قوله : إن في ذلك : راجع إلى الأخذ والنكال
 للمذكورين ، أى المصدر المفهوم ضمناً في قوله تعالى (فأخذه الله) وقوله :
 نكال ، بل إن نكال مصدر بنفسه ، أى فأخذه الله ونكل به ،
 وجعل نكاله به عبرة لمن يخشى .

قوله تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ ﴾ .

لما كان فرعون على تلك المثابة من الطغيان والكفر ، وكان من
 أسباب طغيانه الملك والقوة ، كما في قوله تعالى : (وفرعون ذى
 الأوتاد) ، وقوله : (إن فرعون علا في الأرض) ، وقوله عنه :
 (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) .

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته ، خاطبهم الله بما آل له
 هذا الطغيان ، ثم خاطبهم فى أنفسهم محذراً من طغيان القوة (أنتم
 أشد خلقاً أم السماء) حتى لو ادعيتكم أنكم أشد قوة من فرعون ،
 الذى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فهل أنتم أشد خلقاً أم السماء؟ .

وقد جاء الجواب مصرحاً بأن السماء أشد خلقاً منهم فى قوله
 تعالى : (نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر
 الناس لا يعلمون) .

وبين ضعف الإنسان فى قوله فى نفس المعنى (فاستفتهم أم أشد
 خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب) .

وفي هذا بيان على قدرته تعالى على بعثهم بعد إماتتهم وصيرورتهم عظاماً نخرة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شيء من ذلك عند آية الصافات (فاستيقظهم أم أشد خلفاً أم من خلقنا) .

قوله تعالى : ﴿ بَنَاهَا ، رَفَعَ تَمَتُّكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك . في سورة ق عند قوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .

في هذه الآية الكريمة وصف الأرض بأن الله تعالى : دحاها ، وجاء في آية أخرى أنه طحاها . بالطاء ، وجاء في آية أخرى أنه بسطها ، وهي قوله تعالى : (وإلى الأرض كيف سطحت) .

وقد اختلف في تفسير قوله : دحاها ، فقال ابن كثير : تفسيره ما بعده (أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها) وهذا قول ابن جرير عن ابن عباس .

وقال القرطبي : دحاها أى بسطها .

والعرب تقول : دحا الشيء إذا بسطه .

وقال أبوحيان : دحاها بسطها ومهدّها للسكنى والاستقرار عليها ،
ثم فسر ذلك التمهيد بما لا بد منه من إخراج الماء والمرعى ، وإرسائها
بالجبال .

وبما ذكر يأتى أمر السكنى والمعيشة حتى للملح والماء كل والشرب ،
وهذا هو كلام الزمخشري بعبارة .

وقال الفخر الرازى : دحاها بسطها - ، فترى أن جميع المفسرين
تقريباً متفقون على أن دحاها بمعنى بسطها .

وقول ابن جرير وابن كثير : إن دحاها فسر بما بعده لا يتعارض
مع البسط والتمهيد ، كما قال أبوحيان : إنه ذكر لوازم التسكن إلى
المعيشة عليها من إخراج مائها ومرعاها لأن بهما قوام الحياة .

وبما يستأنس به أن الدحو معروف بمعنى البسط ، قول ابن
الرومى :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به

يدخو الرقاقة وشك اللح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة

وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ماتنداح دائرة

فى صفحة الماء ترمى فيه بالحجر

(٣ - أضواء البيان ج ٩)

وقد أثير حول هذه الآية مبحث شكل الأرض أمبسوطة هي أم
كروية مستديرة ؟

وإذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغة نجد الآتى :

أولاً : فى مفردات الراغب : قال دحاها ، أزالها من موضعها ومقرها .
ومنه قولهم : دحا المطر الحصى من وجه الأرض أى جرفها ،
ومر الفرس بدحو دحوأ : إذا جر يده على وجه الأرض فيدحو ترابها .
ومنه أدحى النعام ، وقال : الطحو كالدهو ، وهو بسط الشئ
والذهاب به والأرض وما طحاها ، وأشد قول الشاعر :

* طحا بك قلب فى الحسان طروب *

أى ذهب بك .

وفى معجم مقاييس اللغة ، مادة دحو : الدال والحاء والواو
أصل واحد يدل على بسط وتمهيد .

يقال : دحى الله الأرض يدحوها دحوأ إذا بسطها .

ويقال : دحا المطر : الحصا عن وجه الأرض ، وهذا لأنه إذا كان كذلك
فقد مهد الأرض .

ويقال للفرس ، إذا رمى بيده رمياً لا يرفع سنبله عن الأرض كثيراً :
مرّ يدحو دحوأ ، ومن الباب أدحى النعام الموضع الذى يفرخ فيه

أفعل من دحوت ، لأنه يدحوه برجله ثم يبيض فيه ، وليس للنعامة
عش .

وفي لسان العرب مادة دحا ، والدحو : البسط ، دحى الأرض يدحوها
دحواً : بسطها .

وقال الفراء في قوله عز وجل (والأرض بعد ذلك دحاها) قال
بسطها ، وذكر الأدهى مبيض النعام في الرمل ، لأن النعامة تدحوه
برجلها ، ثم تبيض فيه .

وذكر حديث ابن عمر : فدحا السيل فيه بالبطحاء ، أى رمى
وألقي .

قال : وسئل ابن المسيب من الدحو بالحجارة ، فقال : لا بأس به ،
أى الرامة بها والمساينة .

وعن ابن الأعرابي : هو يدحو بالحجر ، أى يرمى به ويدفعه ،
والداحى : الذى يدحو الحجر بيده ، وأشد لأوس بن حجر بمغى
ينزع قوله :

ينزع جلد الحصا أحسين مبرك كأنه فاحص أولاعب داح ؟

وفي حديث أبي رافع : « كنت ألعب الحسن والحسين رضوان
الله عليهما بالمداحى ، هى أحجار أمثال القرصة ، كانوا يحفرون حفرة
يدحون فيها بتلك الحجارة ، فإذا وقع الحجر فيها غلب صاحبها ، وإن
لم يقع غلب .

والدحر : هو رمى اللاعب بالحجر والجوز وغيره . ا هـ .

وما ذكره صاحب اللسان عن أبي رافع لازال موجودا حتى الآن بالمدينة ، ويسمى الدحل باللام ، كما وصف تماما .

وبعد لإيراد أقوال أصول مراجع اللغة ، وما تقدم من أقوال للمفسرين . فإننا نواجه الجدل القائم بين بعض علماء الهيئة ، وبعض العلماء الآخرين ، في موضوع شكل الأرض ، ولعلنا نوفق بفضل من الله إلى بيان الحقيقة في ذلك ، حتى لا يظن ظان تعارض القرآن ، وما ثبت من علوم الهيئة أو يفتتر جاهل بما يقال في الإسلام .

وبنأمل قول المفسرين نجدها متفقة في مجموعها : بأن دحاها مهدا وسهل الحياة عليها ، وذكر لوازم التمكين من الحياة عليها من إخراج الماء ، والمرعى ، ووضع الجبال ، وهو المتفق مع نصوص القرآن في قوله : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا) .

وقوله : (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وكل ذلك من باب واحد ، وهو تمهيدها والتمكين للعيش عليها ، وليس فيه معنى للتكوير والاستدارة .

وإذا جئنا إلى كتب اللغة نجدها كلها ، تنص على أن الدحو :

البسط ، والرمي ، والإزالة ، والتمهيد ، فالبسط والتمهيد والرمي بالحجر المستدير في الحفرة الصغيرة معانٍ مشتركة ؟ وكلها تفسر دحاها ، بمعنى بسطها ومهداها . وأن الأذحية مبيض النعام لا بيضه ، كما يقولون . وسمى بذلك لأنها تدحوه بيدها لتبيض فيه ، إذ لا عش لها .

وعليه ، فلا دليل من كتب اللغة على أن الدخو هو التكوير ، ولكن ما قول العلماء في شكل الأرض ، بصرف النظر عن كون القرآن تعرض له أو لم يتعرض ؟

إذا رجعنا إلى كلام من نظر في علم الهيئة من المسلمين ، فإننا نجد متفقين على أن شكل الأرض مستدير .

وقبل إيراد شيء من أقوالهم ننبه على أنه لا علاقة لهذا البحث بموضوع الحركة ، سواء للأرض أو غيرها ، فذاك بحث مستقل ، ليس هذا محله ، وإنما البحث في الشكل .

أما أقوال العلماء في شكل الأرض ، فإن أجمع ما وقفت عليه ، وأصرح وأبين ، هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة الهلال ، جاء فيها : قال في موضع منها قوله ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من علماء الأمة ، أن الأفلاك مستديرة ، قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) وقول : (وهو الذي

خلق الليل والنهار والشمس والقمر في فلك يسبحون) وقال تعالى :
(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل
في فلك يسبحون) .

قال ابن عباس : في فلكة مثل فلكة المغزل . وهكذا هو في
لسان العرب : الفلك الشيء المستدير . ومنه يقال : تفلك ثدى الجارية
إذا استدار . قال تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على
الليل) والتكوير هو التدوير . ومنه قيل : كار العمامة وكورها ،
ولهذا يقال للأفلاك : كروية الشكل ؛ لأن أصل الكرة كورة
تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا .

وقال : (والشمس والقمر بحسبان) مثل حسبان الرحى ، وقال :
(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وهذا إنما يكون فيما يستدير
من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرهما ،
فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه .

والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي ، ليس بعضه مخالفاً لبعض .
وجاء فيها قوله أيضاً : وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن
المنادى ، من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار ،
في متون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد : لا خلاف
بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها .

من الكواكب ، كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين ، أحدهما في الشمال ، والآخر في ناحية الجنوب .

قال : ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد في حركتها ومقادير أجزائها ، إلى أن تتوسط السماء ، ثم تنحدر على ذلك الترتيب ، فكأنها ثابتة في كرة تدبرها جميعها دوراً واحداً .

هذه نبذة من أقوال علماء المسلمين في شكل الأفلاك ، ثم قال : وهذا محل القصد بالذات ، وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة .

قال : ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب ، لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب .

قال : فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء ، كالنقطة في الدائرة ، يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء ، على قدر واحد ، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد ، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء . ٥١ . بلفظه .

فهذا نقل لإجماع الأمة ، من إمام جليل في علمي المعقول والمنقول ،

على أن الأرض على شكل الكرة ، وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك .

ومن جهة العقل أيضاً يقال : إن أكمل الأجرام هو المستدير كما قال في قوله : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) .

وعليه ، فلو قدر لسائر على وجه الأرض ، وافترضنا الأرض مسطحة كسطح البيت أو القرطاس مثلاً ، لكان لهذا السائر من نهاية ينتهى إليها ، وهى منتهى التسطيح أو يسقط فى هاوية ، وباعتبارها كرة ، فإنه يكمل دورته ، ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى ، لأنه يدور على سطحها من جميع جهاتها . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

كان من الممكن أن نقدم هذه النتيجة من أول الأمر مادامت حقتقة فى النهاية مع قول علماء الهيئة ، ولا نطيل القول من هنا وهناك ، ولكن قد سمنا ذلك كله لفرض أعم من هذا كله ، وقضية أشمل وهى من جهتين :

أولاهما : أن علماء المسلمين مدركون ما قال به علماء الهيئة ،

ولكن لا من طريق النقل أو دلالة خاصة على هذه الجزئية من القرآن،
ولكن عن طريق النظر، والاستدلال، إذ علماء المسلمين لم يحلوا
هذه النظرية، ولم تخف عليهم هذه الحقيقة.

ثانيتهما : مع علمهم بهذه الحقيقة وإدراكهم لهذه النظرية، لم
يعز واحد منهم دلالتها النصوص الكتاب أو السنة.

وبناء عليه نقول : إذا لم تكن النصوص صريحة في نظرية من
النظريات الحديثة، لا ينبغي أن نقحمها في مباحثها نفيًا أو إثباتًا،
وإنما فقطلب العلم من طريقه، فعلوم الهيئة من النظر الاستدلال،
وعلوم الطب من التجارب والاستقراء، وهكذا يبقى القرآن مصانًا
عن مجال الجدل في نظرية قابلة للثبوت والنفي، أو التغيير والتبديل،
كما لا ينبغي لمن لم يعلم حقيقة أمر في فنه أن يبادر بإنكارها ما لم
تسكن مصادمة لنص صريح.

وعليه أن يتثبت أولاً وقد نمنا سابقا على ذلك في مثل ذلك
في قصة نبي الله سليمان مع بلقيس والمهدد حينما جاءه، فقال :
(أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبيلٍ ينبئ بيقين) وقص عليه
خبرها مع قومها، فلم يبادر عليه السلام بالإنكار. لكون الآتي
بالخبر مهددًا، ولم يكن عنده علم به ولم يسارع أيضًا بقصديقه، لأنه
ليس لديه مستند عليه، بل أخذ في طريق التثبت بواسطة الطريق الذي

جاء الخبر به قال : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ، وأرسله بالكتاب إليهم ، فإذا كان هذا من نبي الله سليمان ولديه وسائل وإمكانيات كما تعلم ؛ فغيره من باب أولى .

تنبيه آخر

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض ، فإذا يقولون في قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت - إلى قوله - وإلى الأرض كيف سطحت) . وجوابهم كجوابهم على قوله تعالى : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حنة) أى في نظر العين ، لأن الشمس تغرب عن أمة ، وتستمر في الأفق على أمة أخرى ، حتى تأتي مطلعها من الشرق في صبيحة اليوم الثاني ، ويكون بسط الأرض وتمهيدها ، نظراً لكل إقليم وجزء منها لسمتها وعظم جرمها .

وهذا لا يتناقى مع حقيقة شكلها ، فقد نرى الجبل الشاهق ، وإذا تسلقناه ووصلنا قمته وجدنا سطحاً مستوياً ، ووجدنا أمة بكامل لوازمها ، وقد لا يعلم بعض من فيه عن بقية العالم ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْتَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ .

العشية : ما بين الزوال إلى الغروب ، والضحى : ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، وهذا تحديد بنصف نهار .

وقد جاء التحديد بساعة من نهار .

وجاء (يوماً أو بعض يوم) .

وجاء : (إن لبثتم إلا عشراً) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة يونس : (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) ، وأحال على دفع ليهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وسيطبع إن شاء الله مع هذه التتمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ عَلِيٍّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ .

سبب نزول هذه السورة باتفاق المفسرين ، أنه صلى الله عليه وسلم كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش ، فأتاه ابن أم مكتوم ، وهو رجل أعمى وقال : « أفرئت يا رسول الله ، وعلمنى مما علمك الله » وكرر ذلك ، فلم يتفق ذلك وما هو مشغول به صلى الله عليه وسلم ، وما يرجوه مما هو أعظم ، فعبس وتولى عنه منصرفاً ، لما هو مشغول به .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) ما نصه : عبّر تعالى عن هذا الصحابي الجليل الذى هو عبد الله ابن أم مكتوم ، بلقب يكرهه الناس ، مع أنه قال : (ولا تنازعوا بالألقاب) .

والجواب : هو مانبه عليه بعض العلماء : من أن السر في التعبير عنه بلفظ الأعمى ، للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو كان يرى ما هو مشغول به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه . ٥١ . منه بلفظه .

وقال الفخر الرازي : إنه وإن كان أعمى لا يرى ، فإنه يسمع وبسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقدامه على مقاطعته يكون مرتكباً معصية ، فكيف يعاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذوراً لعدم الرؤية ، فليس معذوراً لإمكان سماعه ، ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به .

والظاهر والله تعالى أعلم : أن كلام الرازي ليس بعيداً عما ذكره الشيخ ، لأن معناه أنه عاقبه لعدم رفقته به . ومراعاة حالة عماء .

فعليه ، يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد وسادة القوم ، وكأنه يقول لهم : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ، فهذا كفيف البصر ، ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن ، وجاء مع عماء يسعى طلباً للمزيد ، وأنتم تغفلت قلوبكم وعميت بصائركم فلم تدركوا الحقيقة ولم تبصروا نور الإيمان ، كما في الآية الكريمة : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

مما انفق عليه المحدثون : جواز ذكر مثل هذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتقصيص ، فقالوا : الأعمى والأعور والأعرج . وفي الحرف قالوا : الخراز ، والخرقى ، ونحو ذلك ، وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال في السند .

ومثله : ليس تفاخراً بالألقاب في هذا الفن . والله تعالى أعلم .
ومثله : إذا كان للتعريف في غرض سليم دون تنقص كما قدمنا .
وقوله تعالى (عبس وتولى) ، فإن فيه مثل ما في قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) لأن العبوسة أمر لا يفتق في الظاهر مع قوله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم ، (وإنك لعلی خلق عظیم) ، وقوله : (واخفض جناحك للمؤمنين) ؛ ولم أقف على جواب لذلك ، ولم يتعرض له الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب .
والذى يظهر والله تعالى أعلم ، أنه لا يتأتى معه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بما يسمى إلى هذا الصحابي في نفسه بشيء يسمعه فيزعجه ، كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم إنما هو تقطيب الجبين ، وهذه حركة مرئية لا مسموعة .

والحال : أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة ، فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير في دينه .
كما قال في حنين : وأكل أقواما إلى ما في قلوبهم ، أى لما أعطى المؤلفه
قلوبهم ، ولم يعط الأنصار على ما هو معروف في القصة ، فلم يعاتبه
الله على ذلك ؛ ورضى الأنصار وبكوا فرحاً ورضا .

ثم إن تقطيب الجبين وانديساط أسارير الوجه لحزن أو فرح ،
يكاد يكون جبلياً مما كان منه صلى الله عليه وسلم ، فهو من باب
الجبليّة تقريباً ، كأن المنير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها .

ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول
له : « مرحباً فيمن عاتبنى فيه ربى » ، ويكرمه ، وقد استخلفه
على المدينة مرتين .

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران :

الأول : التماسى بأخلاقه صلى الله عليه وسلم إلى ما لانهاية له ، إلى
حد اللحظ بالعين ، والتقطيب بالجبين ، ولو لمن لا يراه ، كما قال صلى الله
عليه وسلم « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وذلك في
صلح الحديبية .

والثانى : تأديب للأمة وللدعاة خاصة ، في شخصية رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين ، في قوله
تعالى : (إنا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف
ولا تنهرهما) .

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى : (كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره) بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعى في الدعوة إلى الله غنياً ولا فقيراً ، وأن يصبر على ضعفه المؤمنين . لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك من مسئولية ، فلا يتكلف لهم .

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين ، لإيمانهم في قوله تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

ومثله قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شيء من هذا البيان عند هذه الآية ، وبين أن هذه التنبيه قد وقع من نبي الله نوح إلى قومه ، حينما ازدروا ضعفه المؤمنين في قوله تعالى : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي - إلى قوله - وأما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون) .

وقد دلت هذه الآية وأمثالها ، على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان ، عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : أم سادة القوم أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . فقال : هكذا هم أتباع الرسل .

وقال العلماء في ذلك : لأنهم أقرب إلى الفطرة ، وأبعد عن السلطان والجاه ، فليس لديهم حرص على منصب يضيع ، ولا جاه يهدر ، ويجدون في الدين عزاً ورفعة ، وهكذا كان بلال وصهيب وعمار ، وهكذا هو ابن أم مكتوم رضى الله عنهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَىٰ ، فَآزَلَتْ لَهُ تَصَدَّىٰ ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ .

بيان لموقفه صلى الله عليه وسلم من جميع الأمة ، وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستغنى ، شفقة بهم ورحمة ، كما بين تعالى حاله صلى الله عليه وسلم بقوله : (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) وكقوله (فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

وقوله : (وما عليك ألا يزكى) بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس عليه ممن لا يزكى ، وقد صرح تعالى بذلك في قوله (إنما أنت منذر) وقوله (إن عليك إلا البلاغ) ، وقوله : (ليس عليك هدام) ، ومثل ذلك .

وقد جمع الأمرين من الجانبين في قوله تعالى عن نوح عليه السلام
(وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ ﴾ .

معلوم أن كلمة : كلا : ردع عما سبق ، وهو في جملة من نصب على التصدي لمن استغنى ؟ والإلحاح عليهم والحرص على سماعهم منه ، ولكن الله تعالى يقول : إن منزلة القرآن والوحى والدين أهل منزلة من أن تبذل لقوم هذه حالتهم فهي على ما هي عليه من تكريم ورفعة وطهارة وصيانة ، وما عليها من حفظة سفرة كرام بررة أخرى بأن يسمى إليها ، والخير لمن أتاها يطلبها

(فمن شاء ذكره) ، وهذا للتهديد لا للتخيير بدليل ما بعده (قتل الإنسان ما أكفره) قتل الإنسان : دعاء عليه ، والإنسان : للجنس الكافر ، وما أكفره : أى ما أشد كفره بها ، بعد هذا كله من علو منزلتها .

وقوله تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره) قيل : ما أكفره هنا ، ما أفعله أى ما أشد كفره .

وقال الزمخشري : هي تمجيب من إفراطه في كفران نعم الله .

وقيل : أى شيء حله على التكذيب والكفر ؟ وكلها محتملة .

ولعل المعنى الأول أظهر لقوله قبله : قتل الإنسان ، ولجئ هذا للمعنى فى مواضع آخر : إن الإنسان لظلوم كفار ، وكذلك فعول فى قوله : (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) ، وهكذا صفة الجاحدين لآيات الله ، كما فى قوله (وما يحجد بآياتنا إلا كل ختار كفور) .

ثم رد تعالى عليه ذلك برده إياه إلى أصل خلقته ، ليمتعض من نفسه فى قوله تعالى (من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره) ، لأن هذه الثلاثة مسلم بها ، ورتب عليها الرابعة (ثم إذا شاء أنشره) .

وقوله : (من نطفة خلقه فقدره) تقدم مراراً بيان أصل خلق الإنسان وأطواره .

وقوله : (ثم السبيل يسره) قيل : السبيل إلى خروجه من بطن أمه ، حيث أدار رأسه إلى جهة الخروج ، بدلا مما كان عليه إلى أعلى ، وهذا من التيسير فى سبيل خروجه ، وهذا مروى عن ابن عباس وغيره ، وهو اختيار ابن جرير .

وفيل : السبيل : أى الدين فى وضوحه ، ويسر العمل به ، كقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً)

وهو مروي عن الحسن وابن زيد ، ورجحه ابن كثير .

ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح ، لأن تيسير الولادة أمر عام في كل حيوان ، وهو مشاهد ملوس ، فلا مزية للإنسان فيه على غيره ، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله ، وهو القدرة في قوله تعالى : (من نطفة خلقه فقدره)

وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله : فقدره . أي قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه ، وتقديرات جسمه وقدر حياته ، وقدر مماته ، كما هو معلوم .

أما تيسير سبيل الدين ، فهو الخصاص بالإنسان . وهو المطلوب التوجه إليه . وهو الذي يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره . وبين إمامته وإقباره . أي فترة حياته في الدنيا ، أي خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا . ويسر له الدين في التكاليف . ثم أماته ليرى ماذا عمل (ثم إذا شاء أنشره) .

ولذا جاء في النهاية بقوله : كلا لما يقض ما أمره . وليس هنا ما يدل على الأمر . إلا السبيل يسره . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَا صَبَيْنَا أَلْمَاءَ

حَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَيْنًا وَقَضْبًا ،
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَسْكِهَةً وَأَبًّا ۝ .

بعد ما بين له مم خلق ، بين له هنا كيف يطعمه ، وفي كليهما آية
على القدرة .

وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما . فصب الماء
من السماء إلى الأرض . يقابل دفع الماء في الرحم . وشق الأرض
للنبات . يقابل خروجه إلى الدنيا . وإنبت أنواع النباتات ، يقابل
تقادير الخلق المختلفة .

وفي التخصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان
وزيتون ونخيل وفواكه متعددة . وحداثق ملتفة . لظهور معنى المفارقة
فيها ، مع أنها من أصلين مشتركين : الماء من السماء . والتربة في الأرض ،
يسقى بماء واحد .

ومرة أخرى . يقال للشيوخ والدهريين : (قتل الإنسان
ما أكفره . من أى شيء خلقه) . (أفرايتم ماتمون . أنتم تخلقونه
أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ۝) .
(أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء
لجعلناه حطامًا) .

لأنهم بلا شك لا يدعون لأنفسهم فعل شيء من ذلك . ولأنهم
ليعلمون أن ما خالفوا مدبراً . ولكنهم يكابرون .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) صدق الله العظيم ، وكذب كل كفار أثم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان خلق الإنسان في مواطن متعددة سابقة آخرها في سورة الرحمن (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) ، وبيان طعامه في كل من سورتي الواقعة والجاثية .

قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ .

الإسفار : الإضاءة ، وهو تهلل الوجه بالسرور ، كما قال تعالى : (ولقاهم نضرة وسروراً) والاستبشار من تقدم البشرى في قوله تعالى : (تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

وقوله تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة الحديد .

وقوله تعالى : (ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها كثرة) بينهم
تعالى بأنهم هم الكفرة الفجرة .

وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، في سورة
الرحمن على الكلام على قوله تعالى : (يعرف المجرمين بسيماهم) .

وقد جمع لهم هنا بين الكفر والفجور ، وهما الكفر في
الاعتقاد والفجور في الأعمال ، كما في قوله تعالى : (ولا يلدوا إلا
فاجراً كفاراً) والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .

اختلف في معنى كورت هنا أكثر من عشرة أقوال ، وكلها تدور على نهاية أمرها :

وقيل : كورت : لف بعضها على بعض ، فانطمس نورها .

وقيل : حجبت بكرة ، أى لفت بها .

وقيل : ألقيت في البحر .

وقيل : دخلت في العرش

وقيل : اضمحلت .

وقيل : نكست .

وقال ابن جرير : نقول كما قال الله تعالى : (كورت) .

والذى يشهد له القرآن ، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها ، لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى ، ومعنى ذلك أنها تنتهى إليه على الوجه الذى يعلمه سبحانه وتعالى ، كما فى قوله تعالى :
(وسنخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى) .

ففيهومه : أنه إذا جاء هذا الأجل توفت عن جريانها ،

وهو ما يشـير إليه قوله تعالى : (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) أى بعد أن لم يجتمعا قط ، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت ، كما قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) .

ولعل أقرب الأقوال المفتولة فى ذلك : هو القول بأنه بمعنى نكست . أى ردت إلى حيث أتت ، كما فى الحديث ، فقطلع من مغربها ، وعليه فتجتمع مع القمر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ .

قيل : انكدرت انصبت ، وقيل : تغيرت من الكدرة ، وكلها متلازمة ولا تعارض .

ويشهد للأول قوله تعالى : (وإذا الكواكب انتثرت) .
ويشهد للثانى (فإذا النجوم طمست) لأنها إذا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها ، فقد ذهب نورها وطمست .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .

أى ذهب بها من مكانها .

وتقدم للشـيخ رحمة الله تعالى بينا وعلمه ، بيان حالة الجبال

في نهاية الدنيا في عدة مواطن . من أهمها عند قوله تعالى في سورة طه
(ويسألوك عن الجبال فقل ينفسها ربى نسفا) ، وعند قوله تعالى
من سورة السكهف : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْمُوا بِذُنُوبِهِمْ مَلَّتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .
الأد : الثقل ، كما في قوله تعالى : (ولا يؤوده حفظهما) .

والموءودة : المثقلة بالتراب حتى الموت ، وهى الجارية ، كانت
تدفن حية ، فكانوا يحفرون لها الحفرة ويلقونها فيها ، ثم يهيلون عليها
التراب .

وقوله تعالى : (بأى ذنب قتلت) إشعار بأنه لا ذنب لها ، فقتل
سببه ، بل الجرم على قاتلها .

ولكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها تبكيها لوائدها .

وقد جاء عن عمر رضى الله عنه قوله : أمران فى الجاهلية . أحدهما :
يبكىنى والآخر يضحكنى .

أما الذى يبكىنى : فقد ذهبت بابهة لى لوأدها ، فكنت أحفر لها
الحفرة وتنفض التراب عن لحيتى وهى لاتدرى ماذا أريد لها ، فإذا
تذكرت ذلك بكيت .

والأخرى : كمنت أصنع إلهنا من التمر أضعه عند رأسى يحرسنى
ليلا ، فإذا أصبحت معافى أكلته ، فإذا تذكرت ذلك ضحك من نفسى .

أما سبب إقدامهم على هذه الجريمة الشنيعة وما دفعهم على ارتكابها ، فقد ناقشه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسع ، عند قوله تعالى من سورة النحل (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألساء ما يحكمون) .

وهذه المناسبة ، فإن هنا تنبيهين لا بد من إيرادهما .

الأول منهما : ما يشبه الواد في هذه الآونة الحديثة ، وهو التعرض لمنع الحمل بأى وسيلة كانت .

وقد بحثت هذه المسألة قديماً وحديثاً . أما قديماً ففي عملية العزل ، وجاء فيه حديث جابر « كنا نعزل والقرآن ينزل » رواه مسلم .

زاد إسحاق قال سفيان : لو كان شيئاً ينهى عنه لنهانا عنه القرآن . وجاء فيه : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا .

كما جاء التحذير الشديد في حديث حذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس قال : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً » ، فسألوه عن العزل ، فقال : « ذلك الواد الخفى »

زاد عبد الله في حديثه عن المقرئ زيادة وهي : وإذا الموءودة سئلت

ففي الحديث الأول : ما يفيد التقرير .

وفي الثاني : ما يفيد شدة النكير .

وجاء في صحيح مسلم أيضاً عن أبي سعيد « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بني المصطلق ، فسينا كرائم العرب ، فطالت علينا الغربة ، ورغبنا في الفداء ، فأردنا أن نستمتع ونعزل ، فقلنا : نفعل ذلك ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، لانسأله ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمه هي كائنة إلى يوم القيامة إلا استكون » .

وفي رواية : « إن الله كتب من هو خالق إلى يوم القيامة »

وفي رواية : « فقال لنا : وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون . ما من نسمه كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة »

وفي رواية : « لا عليكم ألا تفعلوا ، فإنما هو القدر » .

قال أبو محمد : وقوله : لا عليكم أقرب إلى النهي .

وقال الحسن : والله لكان هذا زجراً ، فأنت ترى قوله صلى الله عليه وسلم : وإنكم لتفعلون ، مشعر بعدم علمه سابقاً ، مما يتعارض مع (٥ - أضواء البيان ج ٩)

الزيادة في حديث جابر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ،
فبقى قول جابر ، مما يستدل به المجوزون ، وبعارضه : وهى الموءودة ،
أو الواد الخفى .

وكان للواد عند العرب فى الجاهلية سببان :

الأول : اقتصادى ، خشية إملاق ، ومن إملاق حاضر .

والثانى : حمية وغيرة .

وقد رد القرآن عليهم فى السبب الأول ، فى قوله تعالى : (ولا تقتلوا
أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً
كبيراً) .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) .
وأخيراً كان هذا التساؤل شديد التوبيخ لهم ، (وإذا الموءودة
سئلت) .

وفى هذه الآية أثبت مرة أخرى وبشكل آخر أثارها أعداء
المسلمين مكيدة للسذج ، فأثيرت من الناحية الاقتصادية .

وكان مبدؤها المعروف عند كتاب هذا العصر بنظرية « مالتس »
والآن لغرض عسكرى لتقليل عدد جنود المسلمين ، حينما علم العدو أن
الإسلام يبيح تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، فأرادوا أن يوقفوا
هذا النمو .

وبكنى أن نورد هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكوا تفاسلوا فإني مباير بكم الأمم » .

وفى رواية « مكاز بكم الأمم » .

وفيه « تزوجوا الولود الودود » ونحو ذلك .

وقد كفت جمعت فى ذلك بمنأ فى محاضرة وافية فى هذا الغرض ، من حيث السياسة والاقتصاد ، والدفاع مع عمل إحصائيات للدول التى تطالب بهذا العمل ، مما يدفع رأى كل قائل به .

والذى يهمنى فى هذا المقام تنبيه المسلمين ، إلى أن هذه الدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل منشؤها من اليهود ، وتشجيعها فى الشرق من دول الغرب ، وكثير من الدول الغربية تبذل المال الطائل لتفشى هذا الأمر فى دول الشرق الأوسط وخاصة الإسلامية والعربية .

التنبيه الثانى

وهو حول ما يصرح به دعاة تحرير المرأة فى صورة مناصرة لها ، والواقع أنهم دعاة شقائها ومعاداة لها ، وهدم لما مسكنها الله منه فى ظل الإسلام .

وذلك أن المرأة فى الجاهلية كانت هذه حالة من حالاتها نوأد حية ، وتورث كالمناوع ، ومهملة الشخصية إلى غير ذلك . فبهاها الإسلام ما يثبت شخصيتها ابتداء من إيفائها حقها فى الحياة كالرجل ، ثم اختيارها فى الزواج ، وحقها فى الميراث إلى غير ذلك .

وقد تقدم الحديث عن ذلك في عدة محلات ، منها للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى من سورة الحج : (ومن الناس من يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كذب عليه أنه من تولاة فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ .

الزلفى : القربى ، وأزلفت : قربت ، وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة قـ عند قوله تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

المراد بالنفس هنا : العموم ، أى كل نفس ، كما في قوله تعالى : يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضرا (الآية) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخُنُوسِ ، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

ظاهر قوله تعالى : (فلا أقسم) نفى القسم ، ولكنه قسم قطعا ،

بدليل التصريح بجواب القسم في قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) .

وبهذا يترجح ما تقدم في أول سورة القيامة (لا أقسم بيوم القيامة) .

ومثل الآتي (لا أقسم بهذا البلد) .

تنبيه

يجمع المفسرون أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، لأنها دالة على قدرته ، وليس للمخلوق أن يحلف لا بالله تعالى .

ولكن هل في المفارقة بما يقسم الله تعالى به معنى مقصود ، أم لمجرد الذكر ، وتعدد المقسم به ؟

وبعد التأمل ، ظهر والله تعالى أعلم ، أنه سبحانه لا يقسم بشيء في موضع دون غيره ، إلا لفرض يتعلق بهذا الموضع ، يكون بين المقسم به ، والمقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفياً .

وهذا فعلاً ما تقتضيه الحكمة والإيجاز في القرآن ، وإن كنت لم أقف على بحث فيه .

ولكن مما يشير إلى هذا الموضوع ، ما جاء بالإقسام بمكة مرتين ، وفي حالتين متغايرتين .

الأولى : قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد
نوالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد) .

والموضع الثانى : قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ،
وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) .

فالمقسم به في الموضعين : مكة المكرمة ، والمقسم عليه في الموضعين
خلق الإنسان ، ولكن في الموضع الأول كان المقسم عليه مكابدة
الإنسان من أرل ولادته إلى نشأته ، إلى كده في حياته ، إلى نهايته
ومماته .

من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات
أبوه قبله ، ولحقت به أمه ، وهو في طفولته ، وبعد الوحي كابد مع
قومه ولقى منهم عنقا شديداً ، حتى تأمروا على قتله ، فلما كانه يقول
له : اصبر على ذلك ، فإن المكابدة لابد منها ، وهى ملازمة للإنسان
كلما زمتك لهذا البلد منذ ولادتك .

وفي ذكر (والد وما ولد) إشعار ببداية المكابدة ، وبأشدها
من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ، ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون
أى وصف .

أما في الموضع الثانى : فالمقسم عليه ، وإن كان هو خلق الإنسان ،
إلا أنه في أحسن تقويم ، وهى أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضاً

لنعم ، وتعددها من التين والزيتون ، سواء كان المراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها ، وهو بيت المقدس مع طور سينين .

فجاء بمكة أيضاً ولكن بوصف مناسب فقال : (وهذا البلد الأمين) ، فكأنه يقول : إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة ، أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقته وحسن تقويمه وفضله على سائر مخلوقاته . والله تعالى أعلم .

وهنا يقسم بحالات الكواكب على أصح الأقوال ، في ظهورها واختفائها وجريانها ، وبالليل إذا عسعس : أقبل وأدبر ، أو أضاء وأظلم ، والصبح إذا تنفس : أى أظهر وأشرق ، وهما أثران من آثار الشمس في غروبها وشرقها .

والمقسم عليه : هو أن القرآن قول رسول كريم كأنه يقول : إن القرآن المقسم عليه حاله في الثبوت والظهور ، وحال الناس معه . كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم في ظهورها تارة ، واختفائها أخرى .

وكال الليل والصبح ، فهو عند أناس موضع ثقة وهداية كالصبح في إسفاره ، قلوبهم متفتحة إليه وعقولهم مهتدية به ، فهو لهم روح ونور ، وعند أناس مظلمة أمامه قلوبهم عمى عنه بصائرهم ، وفي آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، وأناس تارة وتارة كالنجوم أحياناً ، وأحياناً ، تارة ينقدح نوره في قلوبهم ، فتظهر معالمه فيسيرون معه ، وتارة يغيب

عنهم نوره فتخنس عنه عقولهم وتكس دونه قلوبهم ، كما قال تعالى عنهم : (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) .

وليس بعيداً أن يقال : إنه من وجه آخر ، تعتبر النجوم كالكتب السابقة ، مضى عليها الظهور في حينها والخفاء بعدها .

والليل إذا عسعس : هو ظلام الجاهلية .

والصبح إذا تنفس : يقابله ظهور الإسلام ، وأنه سينتشر انتشار ضوء النهار ، ولا تقوى قوة قط على حجبه ، وسيم الآفاق كلها ، مهما وقفوا دونه (يريدون ليطفئوا نور الله بأنفوسهم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

وقد يكون في هذا الإيراد غرابة على بعض الناس ، ولا سيما وأنى لم أقف على بحث مستقل فيه ، ولا توجيه يشير إليه ، ولكن مع التنبع وجدت اطراده في مواضع متعددة ، وجدير بأن يفرد برسالة

وما اطرد فيه هذا التوجيه سورة الضحى ، يقول الله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى) فإن المقسم عليه عدم تركه صلى الله عليه وسلم ولا التخلي عنه ، فجاء بالمقسم به قسمي الزمن ليلاً ونهاراً ، كأنه يقول له : ما قلاك ربك ولا تخلى عنك ، لا في ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك ، ولا في ظلمة الليل حين تأوى إلى يبتك .

ومعلوم ما كان من عمه أبى طالب حينما كان يجعله ينام مع أولاده ليلاً ، حتى إذا أخذ الجميع مضاجعهم يأتى خفية فيقيمهم من مكانه . ويضع أحد أولاده محله ، حتى لو كان أحد نواه بسوء ، وقد رآه فى مكانه الأول يصادف ولده ، ويسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وللآخرة خير لك من الأولى) أى من كل ماطلمت عليه الشمس وسجاء الليل .

ومنه أيضاً : وهو أشد ظهوراً فى سورة العصر قال تعالى : (والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا) إلى آخر السورة . فإن المقسم عليه هو حالة الإنسان ، الغالية عليه من خسر ، إلا من استثنى الله تعالى ، فكان المقسم به ، والعصر للعاصر للإنسان : طيلة حياته وهو محل عمله ، الذى به يخسر ويربح ، وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه .

وكنت قد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول : لأن العمر وزمن الحياة حجة على الإنسان كالرسالة والندارة سواء ، وذكر قوله تعالى : (أو لم نممركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ، فجعل فى الآية التعمير ، وهو إشغال العمر موجباً للتذكر والتأمل ، ومهلة للعمل ، كما تحذر إنساناً بأمر ثم تمهله إلى أن يفعل ما مر به ، فهو أمكن فى الحجة عليه .

فكان التقسم في العصر على الربع والخسران ، أنسب ما يكون بينهما ، إذ جمعت حياة الانسان كسوق قائمة والسلمة فيه العمل والعامل هو الانسان . كما قال تعالى : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله) .

وفي الحديث الصحيح عند مسلم : « سبحانه الله تملأ الميزان ، وفيه كل الناس يقدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، فإن كان يشغل عمره في الخير فقد ربح ، وأعتق نفسه وإلا فقد خسر وأهلكها » .

ويشير لذلك أيضاً قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

فصح أن الدنيا سوق ، والسلمة فيها عمل الإنسان ، والمعاملة فيه مع الله تعالى ، فظهر الربط والمناسبة مع المقسم به ، والمقسم عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أجمعوا على أن المراد بالقول هو القرآن ، وأما المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام بدليل قوله تعالى : (ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون) .

فصاحبكم هنا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى صحبه منذ ولادته وذو القوة عند ذى العرش : هو جبريل عليه السلام ، وفى إسناد القول

إليه ماقد يثير شبهة أن القول منه ، مع أنه كلام الله تعالى .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، بإيراد النصوص الصريحة في أن القرآن كلام الله تعالى ، وقال : وإن في نفس هذه الآية ما يرد هذه الشبهة ، ويثبت تلك الحقيقة ، وهي قوله تعالى : (لقول رسول) لأن الرسول لا يأتي بقول من عنده ، وإنما القول الذي جاء به هو ما أرسل به من غيره ، إلى ما أرسل إليه به .

تنبيه

في وصف جبريل عليه السلام بتلك الأوصاف

نص في تمكينه من حفظ ما أرسل به ، وصيانتة عن التغير والتبديل ، لأنه مكين ، فلا يصل إليه ما يخل برسالته ، ولأنه مطاع ثم . والمطاع لا يؤثر عليه غيره ، والأمين لا يخون ولا يبدل ، فكان القرآن الذي جاء به مصوناً من أن يتسلط أحد عليه فيغيره ، ومن أن يغيره الذي جاء به ، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقى القرآن الكريم .

وقوله : (وما صاحبكم بمجنون) بيان لتتمة السند ، حيث قال : (ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين) ، فنفي عنه صلى الله عليه وسلم نقص التلقى بنفي آفة الجنون ، فهو في كمال العقل

نوقوة الإدراك ، ومن قبل أثبت له كمال الخلق (وإنك لملى خلق عظيم) .

وأثبت له اللقب ، فلم يلتبس عليه جبريل بفسيره ، وهى أعلى درجات السند ، فاجتمع له صلى الله عليه وسلم الكمال الخلقى .

والكمال الخلقى - بضم الخاء وكسرهما - أى الكمال حساً ومعنى ، ثم نفى عنه التهمة بأن يضمن بشيء مما أرسل به مع نفاسته وعلو منزلته وجليل علومه ، وأنه كلام رب العالمين .

وفى الختام إفهامهم : بأنه ليس بقول شيطان رجيم ، حيث تقدم (إهم عن السمع لمعزولون) .

وأن من يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، فلم يبق لهم موجب للانصراف عنه ، وألزموا بالأخذ به حيث أصبح من الثابت أنه كلام الله ، جاء به رسول كريم ، وبلغه لصاحبكم صاحب الخلق العظيم ، وليس بقول شيطان رجيم .

فلزمهم الأخذ به ، وإلا فآين تذهبون . أين تسرون عنه ، بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره ؟

ونظير هذا السند فى تمجيد القرآن وإثبات تيمانه من الله ، قوله تعالى فى أول سورة النجم : (وما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى) .

وقوله تعالى : (فَأَيْنَ دَهْبُون) بمثابة من يسد عليهم الطريق .
إلا له لأنه — أى القرآن — ليس فى نزوله من الله على رسول الله
صلى الله عليه وسلم أى شبهة ولا تهمة ، فليس للعاقل أن يحيد عنه ،
وكل ذهاب إلى غيره فطرق مسدود ، وضلال وهلاك .

قوله تعالى ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .

أى بعد هذا البيان وقوة هذا السند ، وإظهار ثبوت الرسالة ،
فقد أعذر من أنذر ، لمن شاء منكم أن يستقيم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فيه قضية القدر والإرادة الكونية والقدرية .

وقد بحثها الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه فى عدة مواطن .
منها فى سورة الزخرف عند قوله تعالى : (لو شاء الرحمن ما عبدناهم)
وفى مناظرة المعتزلى مع السنى .

ومنها فى سورة الذاريات : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق) ، والفرق بين الإرادة الكونية
والقدرية .

تنبيه

إذا كان الكثيرون يستدلون فى قضية القضاء والقدر بهذه الآية ،

فإنه ينبغي ألا تغفل أهميتها في جانب الضراعة إلى الله دائماً ، بطلب التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلاً من عنده ، كما أمرنا في الصلاة في كل ركعة منها أن نطلبه هذا الطلب (اهدنا الصراط المستقيم) .

تنبيه آخر

لقد أجملت الاستقامة هنا ، وهي منبه عليها في سورة الفاتحة : إلى صراط الذين أنعم الله عليهم ، كما هو معلوم . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ .

أى انشقت ، كما فى سورة الانشقاق (إذا السماء انشقت) قيل:
هيبة لله .

وقيل : لنزول للملائكة ، كقوله تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام
ونزل الملائكة تنزيلا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى سورة الشورى عند
الكلام على قوله تعالى فى وصف أهوال القيامة (يوما يجعل الولدان
شيبا . السماء منفطر به) .

ومثل الانفطار والتشقق الانفراج ، كقوله : (فإذا النجوم طمست ،
وإذا السماء فرجت) .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ .

أى بعثر من فيها . كما فى قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ،
وحصل ما فى الصدور) .

وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار ، كبعثرة الحب من الكف
(٦ - أضواء البيان ج ٩)

كما في قوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) .
وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة ق عند قوله
تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا)

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أى كل نفس ، كما تقدم في سورة التكويد .

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على ذلك في دفع
إيهام الاضطراب في سورة الانقطار هذه ، عند نفس الآية .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة
الكهف عند قوله تعالى : (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفر
بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى هذه
أطوار الإنسان في خلقه .

ومما يشهد لحسن الخلقة ، وكال الصورة قوله تعالى : (لقد خلقنا
الإنسان في أحسن تقويم) .

واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم ،

كما قال : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

وتقدم فى سورة الحشر (هو الله الخالق البارئ المصور) .

وفى اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَايَةَكُمْ لَحَافِظِينَ ، كَرَامًا كَثِيرِينَ ،
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة
قَـعـد الكلام على قوله تعالى : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن
الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وأحال عندها على بعض ما جاء فى سورة مريم عند قوله تعالى :
(كلا سنكتب ما تقول) .

وبين رحمه الله تعالى علينا وعليه أن هذه الكتابة لإقامة الحجة
على الإنسان ، كما فى قوله : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه
منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) .

وقيل فى حافظين : يحفظون بدن الإنسان .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأنعام عند
الكلام على قوله تعالى : (ويرسل عليكم حفظة) مستدلاً بقوله تعالى :
(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن في وصف الحفظة هنا بهذه الصفات ، من كونهم حافظين كراما يعلمون ، فاجتمعت لهم كل صفات التأهيل ، لا على درجات السكناية من حفظ وعلو منزلة ، وعلم بما يكتبون .

وكأنه توجيه لما ينبغي لولاة الأمور مراعاته في استكتاب الكتاب والأمناء .

ولذا قالوا : على القاضي أن يتخير كاتباً أميناً حسن الخط قاهماً .

ومن هذا الوصف يعلم أنه لا يختلط عليهم عمل بعمل ، وكونهم حفظة لا يضيعون شيئاً ، ولو كان مثقال الذرة (فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .

أى دائم ، كما في قوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم خالدین فيها أبداً) .

قوله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾

دال من دلة خلود الكفار في النار .

لقوله : (وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم

عنها بغائبين) .

كقوله تعالى : وقال الذين تبعوا لو ان لنا كرة فنتبأ منهم ،

كما تعبوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

وهكذا غالبا أسلوب المقابلة بين الفريقين ومهما .

ثم بين أن ذلك يوم الدين وهو يوم الجزاء ، كما تقدم في سورة القامة (مالك يوم الدين) .

ثم بين تعالى شدة الهول في ذلك اليوم (وما أدراك ما يوم الدين) .

وتقدم في (الحاقة ما الحاقة) .

ومثله قوله تعالى : (القارعة ما القارعة) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

أى لشدة هوله وضعف الخلائق ، كما تقدم في قوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) ، وقوله : (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

ولحديث الشفاعة : « كل نبي يقول : نفسى نفسى ، إلى أن تنتهى إلى النبي صلى الله ، وسلم فيقول : أنا لها » .

وحديث فاطمة : « اعملى »

وقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ، ونحو ذلك .
 وقوله : (والأمر يومئذ لله) ظاهر هذه الآية تقييد الأمر
 بالظرف المذكور ، ولكن الأمر لله فى ذلك اليوم ، وقيل ذلك
 اليوم ، كما فى قوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

وبقوله : (ألا له الخلق والأمر) أى يتصرف فى خلقه بما يشاء
 من أمره لا يشركه أحد ، كما لا يشركه أحد فى خلقه .
 ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل إن الأمر كله لله) .

وقال : (ليس لك من الأمر شيء) ونحو ذلك .

ولكن جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد ، لأنه قد يكون فى الدنيا
 لبعض الناس بعض الأوامر ، كما فى مثل قوله تعالى : (وأمر أهلك
 بالصلاة) .

وقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

وقوله : (فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد) ، وهى
 كلها فى الواقع أوامر نسبية . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

ولكن يوم القيامة حقيقة الأمر كله ، والملك كله لله تعالى وحده ،
 لقوله تعالى : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

فلا أمر مع أمره ، ولا متقدم عليه حى ولا بكلمة ، إلا من أذن

له الرحمن وقال صوابا ، وهو كقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن)
مع أن هنا في الدنيا ملوكا ، كما في قصة يوسف ، (وقال الملك :
ائتوني به) .

وفي قصة الخضر وموسى (وكان وراءهم ملك)

أما يوم القيامة فيكونون كما قال تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى
كما خلقناكم أول مرة ، وزكتم ما حولناكم وراء ظهوركم) .

وكقوله : (هلك عنى سلطانیه) ، فقد ذهب كل سلطان وكل
ملك ، والملك يومئذ لله الواحد القهار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمُطَفِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

التطفيف : التنقيص من الطفيف ، وهو الشيء القليل .

وقد فسر ما بعده في قوله تعالى (الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) .

قالوا : نزلت في رجل كان له مكيالان كبير وصغير ، إذا اکتال لنفسه على غيره ، اکتال بالمكيال الكبير ، وإذا كال من عنده لغيره ، اکتال بالمكيال الصغير ، ففي كلتا الحالتين تطفيف ، أى تنقيص على الناس من حقوقهم .

والتقديم في افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين ، يشعر بشدة خطر هذا العمل ، وهو فعلا خطيراً ، لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل ، فإذا اختل أحدث خللاً في اقتصاده ، وبالتالي اختلال في التعامل ، وهو فساد كبير .

وأكبر من هذا كله ، وجود الربا إذا بيع جنس بنفسه ، وحصل تفاوت في الكيل أو الوزن .

وفيه كما قال تعالى : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) .

ولذا فقد ورد ذكر السكيل والوزن ، والحث على العناية بهما في عدة مواطن ، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام .

فقد ورد في الأنعام والأعراف وهود وبنى إسرائيل والرحمن والحديد ، أى في ست سور من القرآن الكريم .

أولاً في سورة الأنعام ، في سياق ما يعرف بالوصايا العشر : (قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) . وذكر برّ الوالدين والنهى عن قتل الأولاد والقرب من الفواحش ، وقتل النفس التى حرم الله ، والنهى عن مال اليتيم .

ثم قال : (وأوفوا السكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبمهد الله أوفوا .

وتكلم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه عندها كلاماً موجزاً مفيداً ، بأن الأمر هنا بقدر الوسع ، ومن أخل من غير قصد التعدى ، لا حرج عليه .

وقال : ولم يذكر هنا عقوبة لمن تعمد ذلك ، ولكنه توعده بالويل في موضع آخر ، وساق أول هذه السورة : (ويل للمطففين) .

كما بين عاقبة الوفاء بالكيل بقوله : (ذلك خير وأحسن تأويلاً)
أى مآلاً .

وهنا يلفت كلامه رحمه الله النظر إلى نقطة هامة ، وهى فى قوله تعالى : (لا تكلف نفساً إلا وسعها) حيث إن التطفيف الزيادة للطفيفة ، والشئ الطفيف القليل .

فكان الآية هنا تقول : تحروا بقدر المستطاع من التطفيف ولو يسيراً .
وبعد بذل الجهد لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وهذا غاية فى التحرى مع شدة التحذير والتوعد بالويل ، وإذا كان الوعيد بالويل على الشئ الطفيف ، فما فوقه من باب أولى .

الموضع الثانى فى سورة الأعراف من قوله تعالى : (وإلى مدين أحاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والليزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) .

فاقترن الأمر بالوفاء بالكيل ، بالأمر بعبادة الله وحده ، لأن فى الأمرين إعطاء كل ذى حق حقه ، من غير ما نقص .

وبين أن فى عدم الإيفاء المطلوب بخس الناس أشياءهم ، وفساد فى الأرض بعد إصلاحها .

الموضع الثالث فى سورة هود ، ومع شعيب أيضاً : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

وبنفس الأسلوب أيضاً كما تقدم ، ربطه بعبادة الله تعالى وحده ، وتكرار الأمر بعد النهى ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، ثم أوفوا الكيل والميزان بالقسط نهى عن نقصه ، وأمر بإيفائه نفس على المفهوم بالتأكيد . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، مع التوجيه بأن ما عند الله خير لهم .

الموضع الرابع فى سورة بئى إسرائيل (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أى اعتدال فى الإنفاق مع نفسه ، فضلاً عن غيره ، ثم إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ثم (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكلها فى مجال الافتصاد وبعدها (ولا تقربوا الزنا) (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) .

وقد يكون الباعث عليهما أيضاً غرض مالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن) ، وهو من أخص أبواب المال .

ثم الوفاء بالمهد ثم (وأوفوا السكيل إذا كلمتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا) ، فمع ضروريات الحياة حفظ النفس والعرض والمال يأتي الحفاظ على السكيل والوزن .

الموضع الخامس في سورة الشورى وهو أعم مما تقدم ، وجعله مقرونا بإنزال الكتاب في قوله تعالى : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب) .

وتكلم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه عند هذه الآية ، بما أشرنا إلى أنه عام ، فقال : الميزان هنا مراد به العدل والإنصاف ، وأن هذا المعنى متضمن آلة الوزن وزيادة .

وأورد بقية الآيات هنا في مبحث مفصل ، فذكر آية الرحمن وآية الحديد ، وتكلم على الجميع بالتفصيل .

وفي قوله تعالى في سورة الرحمن : (والسماء رفعها ووضع الميزان) مقابلة عظيمة بين رفع السماء الذى هو حق وعدل وقدره ، والميزان وضعه فى الأرض ، لتقوموا بالعدل والإنصاف ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض .

وفي سورة الحديد اقتران الميزان بإرسال الرسل وإنزال الكتاب (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

ومعلوم أن الميزان الذى أنزل مع الكتاب هو ميزان الحق

والعدل ، والنهى عن أكل أموال الناس بغير حق ، وعدم بخس الناس أشياءهم .

فكانت هذه الآية أعم وأشمل آيات الوفاء فى الكيل والوزن ، بمثابة قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه .

وكذلك هنا الميزان مع الكتاب المنزل ، وبه يستوفى كل إنسان حقه فى أى نوع من أنواع التعامل ، فكل من غش فى سلعة أو دلس أو زاد فى عدد ، أو نقص أو زاد فى ذر ، أو نقص فهو مظف للكيل ، داخل تحت الوعيد بالويل .

فمن باع ذهباً مثلاً على أنه صافٍ من الفس وزن درهم ، وفيه من النحاس عشر الدرهم ، فقد نقص وطفف لنفسه فأخذ حق درهم كامل . ذهباً ، ونقص حيث أعطى درهماً إلا عشر أ

ومن باع رطلاً سمناً وفيه عشر الرطل شحماً ، فقد طفف بمقدار هذا العشر لنفسه ، ونقص وبخس المشتري بمقدار ذلك :

وهكذا من باع ثوباً عشر أمتار وهو ينقص ربع المتر فقد طفف وبخس بمقدار هذا الربع .

وهكذا فى القسمة بين الناس وبين الأولاد ، وبين الأهل وكل ما فيه عطاء ، وأخذ بين اثنين ، الله تعالى أعلم .

ومن باب ما يذكره العلماء في مناسبات السور بعضها من بعض .
 فقد قال أبو حيان لما ذكر السورة التي قبلها مصير الأبرار والنجار
 يوم القيامة ، ذكر هنا من موجبات ذلك وأهمها تطهير الكيل ،
 وبخس الوزن ، وهذا في الجملة متوجه ، ولكن صريح قوله تعالى في
 السورة السابقة (وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت)
 فهو وإن كان عاما في كل ما قدمه لنفسه من عمل الخير ، وما أخر من
 أداء الواجبات عليه ، فإنه يتضمن أيضاً خصوص ما قدم من وفاء في
 الكيل ورجعان في الوزن ، وما أخر من تطهير في الكيل وبخس
 طمعاً في المال وجمعاً للتراث ، كما قال تعالى : (وتأكلون التراث
 أكلاً لما ، وتمحبون المال حبا جما ، كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ،
 وجاء ربك والملك صفًا صفًا ، وحيء يومئذ بحمهم يومئذ يتذكر الإنسان
 وأنى له الذكري ، يقول ياليتني قدمت لحياتي) .

ومن هنا يعلم للعاقل أن ماطفف من كيل أو بخس من وزن ،
 مهما جمع منه ، فإنه يؤخره وراءه ومستول عنه ، ونادم عليه ، وقائل :
 ياليتني قدمت لحياتي ، ولات ساعة مندم .

قوله تعالى أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

تفريع وتوبيخ لهؤلاء الناس ، وفيه مسألتان :

الأولى : أن الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث أو

(٧ - أضواء البيان ج ٩)

اليقين موجود ، لكنهم يعملون على غير الموقنين أى غير مباليين ، كما قال الشاعر فى مثل ذلك ، وهو مايسى فى البلاغة بلازم الفائدة :

جاء شقيق عارضا رحمه — إن بنى عمك فيهم رماح

فالمكلم يعلم أن شقيقا عالم بوجود الرماح فى بنى عمه ، وأنهم مستعدون للحرب معه ، ولكنه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد ، بأن وضع رحمه أمامه معترضا فهو بمنزلة من لا يؤمن بوجود الرماح فى بنى عمه ، وهو لم يرد بكلامه معه أن يخبره بأمر يحمله ، ولكنه أراد أن ينبه لما يجب عليه فعله من التأهب والاستعداد ، وهكذا هنا ، وهذا عام فى كل مسوف ومتساهل كما جاء : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » إلخ .

أى وهو مؤمن بالإيمان ولوازمه من الجزاء والحساب .

المسألة الثانية من قوله تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) يفهم أن مطف الكيل والوزن وهم يعلمون هذا حقيقة غالبا ولا بطلع عليه الطرف الآخر ، فيكون الله تعالى هو المطلع على فعله ، فهو الذى سيحاسبه ويناقشه ، لأنه خان الله الذى لا تخفى عليه خافية سبحانه ، وإذا قال تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ولم يقل : يوم يقتصر لكل إنسان من غريمه ، ويستوفى كل ذى حق حقه .

تمهيد شديد

قال القرطبي عند هذه الآية : وعن عبد الملك بن مروان أن
أعراييا قال له : قد سمعت ما قال الله في المطففين ، فما ظنك بنفسك
وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . ١ .

إنها مقالة ينبغي أن يقال لكل آكل أموال الناس بغير حق
أيًا كان هو ، وبأي وجه يكون ذلك .

تنبيه

من المعلوم أن كل متبايعين يطلب كل منهما الأحظ لنفسه ،
فالطعف لابد أن يخفى طريقه على غريمه .

وذكر علماء الحسبة طرقاً عديدة مما ينبغي لولي الأمر خاصة ،
والتعامل مع غيره عامة ، أن يتنبه لها .

من ذلك قالوا . أولاً من ناحية المكيال قد يكون جرم الميكال ليناً
فيضغظه بين يديه ، فتتقارب جوانبه فينقص ما يحتوي عليه ، ولذا
يجب أن يكون إناء الكيل صلباً ، والغالب جملة من الخشب أو
ما يعادله .

ومنها : أنه قد يكون خشباً مثقوراً من حوفه ، ولكن لا يبلغ

بالتجويف إلى نهاية المقدار المطلوب ، فيرى من خارجه كبيرا ، ولكنه من الداخل صغير لقرب قعره .

ومنها : قد يكون منقورا إلى نهاية الحد المطلوب ، ولكنه يدخل فيه شيئا يشغل فراغه من أسفله ، ويثبت في قعره . فينقص ما يكال بقدر ما يشغل الفراغ المذكور ، فقد يضع ورقا أو خرقا أو جبسا أو نحو ذلك .

ثانيا : من ناحية الميزان قد يبرد السنج ، أى معاير الوزن حتى ينقص وزنها ، وقد يحوف منها شيئا ويملا التجويف بمادة أخف منها .

ولذا يجب أن يتفقد أجزاء المعاير ، وقد يتخذ معايرا من الحجر فتتناقص بكمرة الاستعمال بسبب ما يتحتمت منها على طول الأيام .

ومنها : أن يضع تحت الكفة التى يزن فيها السلعة شيئا متغلا لاصقا فيها ، لينقص من الوزون بقدر هذا الشيء .

ولكيلا يظهر هذا ، فتراه دائما يضع المعيار فى الكفة الثانية لتكون راجعة بها .

وهناك أنواع كثيرة ، كأن يطرح السلعة فى الكفة بقوة ، فتزج بسبب قوة الدفع ، فيأخذ السلعة حالا قبل أن ترجع إلى أعلا ، موهما الناظر أنها راجعة بالميزان .

أما آلة الذراع فقد يكون المقياس كاملا وافيا ، ولكنه بمد أن
يقيس المتر الأول يدفع بالآلة إلى الخلف ، ويسحب بالمدروع إلى الأمام
بمقدار الكف مثلا ، فيكون النقص من المدروع بقدر ما سحب من
القماش .

وكلها أمور قد تخفى على كثير من الناس ، وقد وقع لى مع بائع
أن لاحظت عليه فى ميزان مما يرفعه بيده حتى أعاد الوزن خمس مرات
فى كل مرة ، يأتى بطريقة تفاير الأخرى ، حتى قضى ماعنده فالتفت
إلى وقال لى : لا أبيع بهذا السعر ، فقلت له : خذ ما تريد وزن كما
أريد ، فطلب ضعف الثمن فأعطيته فأعطانى الميزان لأزن بنفسى .

وهنا ينبغى أن ننبه على حالات الباعة حينما يكون السعر مرتفعا
ونجد بائعا يبيع برخص ، فقد يكون لعله فى الوزن أو فى السلعة أو مضرة
الآخر .

تنبيه آخر

بهذه الأسباب وحقائقها وشدة خطرها كان عمر رضى الله عنه
يتجول فى السوق بنفسه ، ويفقد المكيال والميزان . يخرج من السوق
من يجد فى مكياله أو ميزانه نقصانا ، ويقول : لاتنم عننا المطر .

وهكذا يجب على ولاة الأمور تفقد ذلك باستمرار ، ولا سيما فى
البلاد التى يقل فيها الوازع الدينى وتشتد فيها الأسعار ، بما يلجىء الباعة
إلى التضايل أو العناد .

وقد منع عمر بائع زيب أرخص السمر لعله أن تاجراً قدم ومعه زيب بكثرة ، فقبل لعمر : لماذا منعت البيع برخص ؟ فقال : لأنه يقصد السوق ، فيخسر القادم فيمتنع من الجلب إلى المدينة ، وهذا قد ربح من قبل .

تنبيه آخر

مما ينبغي أن يعلم أن نوع المكيال ومقداره ونوع الميزان ومقداره مرجعه إلى السلطان ، كما قال علماء الحسبة : أن على الأمة أن تطيع السلطان في أربع : في نوع المكيال والميزان ، ونوع العملة التي يطرحها للتعامل بها ، وإعلان الحرب أو قبول الصلح .

فإذا اتخذ الصاع أو المد أو الكيلة أو الويبة أو القدح ، أو أى نوع كبيراً كان أو صغيراً ، فيجب التقييد به في الأسواق .

وكذلك الوزن اتخذ الدرهم والأوقية والرطل أو الأفة أو اتخذ الجرام والكيلو فكل ذلك له .

أما إذا كان الأمر بين اثنين في قسمة مثلاً كقسمة صبرة من حب ففترضوا على أن يقسموها بإناء كبير للسرعة وكان مضبوطاً ، لاختلاف به المرات ، بأن يكون صلباً ويمكن السكيل به .

أو كذلك الوزن اتفقوا على قطعة حديد معينة ، لكل واحد وزنها

عدة مرات فلا بأس بذلك ، لأن الغرض قسمة المجموع لامثامنة على
على الأجزاء .

أما المكايل الإسلامية الأساسية والموازن ، فقد تقدم بيانها من
الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في زكاة ما يخرج من الأرض ،
وزكاة النقيدين ، وقدمنا بيان مقابلها بالوزن الحديث في زكاة الفطر ،
عند قوله تعالى : (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وبالله
تعالى التوفيق .

غريبة

في ليلة الفراغ من كتابة هذا المبحث رأيت الشيخ رحمة الله
تعالى علينا وعليه فيما يرى النائم ، وبعد أن ذهب عني رأيت من
يقول لى : إن اتطيف السكيل والوزن دخلا في الربا ، فالحقته في أول
المبحث ، بعد أن تأماتته فوجدته صحيحاً بسبب المفاضلة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ران : بمعنى غطى كما في الحديث « إذا أذنب العبد نكت في
قلبه نكتة سوداء ، وما يزال كذلك حتى يغطيه » الحديث .

وقال الشاعر :

وكم ران من ذنب على قلب فاجر فتاب من الذنب الذى ران فأنجلى

وقال أبو حيان : وأصل الرين : الغلبة : يقال : رانت الخمر على عقل شاربها واشتدت :

ثم لما رآه رانت به الخمر وألا يريه باقتفاء.
بيان القراءات في هذه الآية :

قال أبو حيان : قرئ بل ران بإدغام اللام في الراء وبالإظهار وقف حفص على بل وفقاً خفيفاً يسيراً ليتبين الإظهار .

وقال أبو جعفر بن الباذش : وأجمعوا ، يعني القراء ، على إدغام اللام في الراء ، إلا ما كان من سكت حفص على بل ، ثم يقول : ران . وهذا الذي ذكره كما ذكر من الإجماع .

ففي كتاب اللوامع عن قالون من جميع طرقه : إظهار اللام عند الراء نحو قوله : بل رفعه الله إليه بل ربكم .

وفي كتاب ابن عطية . وقرأ نافع : بل ران من غير مدغم .

وفيه أيضاً : وقرأ نافع أيضاً : بالادغام والإمالة .

وقال سيبويه : البيان والإدغام حسنان .

وقال الزنجشري : وقرئ بإدغام اللام في الراء ، وبالإظهار والإدغام أجود ، وأميت الألف وفخمت . اهـ .

أما المعنى فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك وافيافي سورة الكهف عند الكلام على قوله تعالى : ر إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (الآية .

قوله تعالى : ﴿ خِتْمُهُ مِمْسِكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

توجيه إلى ما ينبغي أن تكون فيه المنافسة ، وهى بمعنى الرغبة فى الشيء .

قال أبو حيان : نافس فى الشيء رغب فيه ، ونفست عليه بالشيء أنفس نفاسة ، إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه .

والذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أن ذلك من المطالبة والمكاثرة بالشيء النفيس ، فكل يسابق إليه ليحوزه لنفسه .

وفى هذه الآية الكريمة لفت لأول السورة ، إذا كان أولئك يسمعون لجمع المال بالتطعيف ، فلهم الويل يوم القيامة .

وإذا كان الأبرار لى نعيم يوم القيامة ، وهذا شرابهم ، فهذا هو محل المنافسة ، لافى التطعيف من الحب أو أى مكيل أو موزون .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .

وصفهم بالإجرام هنا يشمر بأنه السبب فى ضحكهم من المؤمنين

وتغامزهم بهم ، وتقدم في سورة البقرة بيان موجب آخر في قوله تعالى :
(زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) .

وقد بين تعالى في سورة البقرة أن الذين اتقوا فوق هؤلاء يوم
القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هناك ، وأحال على
هذه الآية في البيان لنوع السخرية ، وزاد البيان في سورة الأحقاف
على قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا
ما سبقونا إليه) .

ومن الدافع لهم على هذا القول ونتيجة قولهم ، وساق آية المطففين
عندها ، وكذلك عند أول سورة الواقعة على قوله تعالى (خافضة
رافعة) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة ،
بل تقدم التغنيه على أنها في غيرها ممن تقدم من الأمم .
ففي قوم نوح : (ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملاقاً من قومه
سَخَرُوا مِنْهُ)

وكان نفس الجواب عليهم : (قال إن تسخروا منا فإننا نسخر
منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه
عذاب مقيم)

وجاء بما يفيد أكثر من ذلك حتى بالرسول في قوله تعالى :
 (ولقد استهزىء برسول من قبلك لحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا
 به يستهزون) .

ومثلها في سورة الأنبياء بنص الآية المذكورة .

تنبيه

إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفة المؤمنين ،
 وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها ، فإن الداعية إلى الله تعالى يجب
 عليه ألا يتأثر بسخرية أحد منه ، ويعلم أنه على سنن غيره من
 الدعاة إلى الله تعالى ، وأن الله تعالى سينتصر له إما عاجلا وإما آجلا ،
 كما في نهاية كل سياق من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفْرِ يَضْحَكُونَ ،
 عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، هَلْ ثَوَّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذا رد على سخرية المشركين منه في الدنيا ، وهو كما قال تعالى :
 (والذين اتقوا ^{فيهم} يوم القيامة) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة المؤمنين
 على الكلام على قوله (إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)
 والحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَنْشُقَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ .

تقدم الكلام عليه في أول سورة الانفطار ، عند قوله تعالى :
(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) ، والإحالة على كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا
وعليه في سورتي الشورى وقـ

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

تقدم بيان مادة أذن في سورة الجمعة ، عند الكلام على الأذان ،
وأذنت هنا بمعنى استمعت وأطاعت ، وحقت أى حق لها أو هى محقوقة
بذلك ، أى لا يوجد ممانع لهذا الأمر .

وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازى فى أذنت ، أى لما لم
يكن ممانعة من تشققها ، كان ذلك بمثابة الامتثال والاسماع .

وقد قدمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالة لا كهى بالنسبة
للمخلوقين ، فى مبحث أول الحشر فى معنى التسبيح من الجمادات .

وقد جاء صريحاً فى حق السماء والأرض من ذلك قوله تعالى :
إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشققن منها) ، وقال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .

أى سويت وأزيلت جبالها ، وسويت وهادها ، كما قال تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) .

ومن هذا الحديث عن ابن عباس وعن علي . وساق هذا الثاني ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى ع بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى » الحديث .

وعن ابن عباس « تمد كما يمد الأديم المكافى » .

وعند القرطبي عن ابن عباس « يزداد فيها كذا وكذا » .

وقال الرازي : هو بمعنى تبدل الأرض غير الأرض ، والواقع أن استبدال الأرض غير الأرض ليس على معنى الذهاب بهذه الموجودة والإتيان بأرض جديدة ، لما جاء في حديث الأذان : « مامن حجر ولا مدر ولا شجر ، بسمع صوت المؤذن إلا سيشهد له يوم القيامة » والذي يؤتى ، من جديد ، لا يتأتى له أ يشهد على شيء لم يشهده ،

وعلى كل فإن تسخير الجبال وتسوية الأرض لاشك أنه يوحد زيادة في وجه الأرض ومساحتها ، فسواء مدت بكذا وكذا . كما قال ابن عباس ، أو مدت بتوسعة أديمها وزيد في بسطها ، بعد أن تلقى مافي جوفها كالشيء السميك إذا ماضط ، نخت سماكته وزادت مساحته ، كما يشير إليه قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) .

وقوله : (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) .

فيكون مد الأرض بسبب دكها ، فيزاد في بسطها ، ولعل هذا الوجه هو ما يشهد له القرآن لجمع الأمرين هنا ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ، فهو وفق مافي هذه السورة (إذا السماء انشقت) ، وبعدها (وإذا الأرض مدت) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

قيل : ألقت كنوزها وتخلت عنها ، ورد هذا بأن ذلك قد يكون قبل الساعة .

وقيل : ألقت الموتى وتخلت عنهم بعد قيامهم وبعضهم من قبورهم فلم يبق في جوف الأرض أحد .

وقوله تعالى : وتخلت : أى بعد أن كانت لهم كفاتاً أحياء وأموالاً ، وبعد أن كانت لهم مهادا ، لفظتهم وتخلت عنهم ، وهذا مايزيد فى رهبة الموقف وشدته والتضييق على العباد ، وألا ملجأ لهم ولا منجى إلا إلى الله ، كما قال تعالى : (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ للمستقر)

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنْتُ لِرَبِّهَا وَحُقَّت ﴾ .

أى كما أذنت السماء ، فالكون كله إذن مطيع منقاد لأوامر الله ، طوعاً أو كرهاً .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ .

قيل : الإنسان للجنس وقيل لفرد ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن السياق يدل للأول للتقسيم الآتى ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، لأنه لا يكون لفرد ، وإنما للجنس وعلى أنه للجنس فالكدح العمل جهد النفس .

وقال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنها أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

وقال غيره مشيراً إلى أن الكدح فيه معنى النصب :

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحياة وأنصب

ويشهد لهذا قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في كبد) كما قدمنا في محله .

تنبيه

من هذا العرض القرآني الكريم من مقدمة تفيير أوضاع الكون سماء وأرضاً ، ووضع الإنسان فيه يكدح إلى ربه كدحاً فملاقية ، أى بعمله الذى يحصل عليه من خلال كدحه ، فإن العاقل المتبصر لا يجعل كدحه إلا فيما يرضى الله ويرضى هو به ، إذا لقي ربه مادام أنه كادح ، لاحالة كما هو مشاهد .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (يأيها الإنسان) عام في الشمول لكل إنسان مهما كان حاله من مؤمن وكافر ، ومن بر وفاجر ، والكل يكدح ويعمل جاهد التحصيل ما هو مقبل عليه ، كما في الحديث : « اعملوا كل ميسر لما خلق له » أى ومجد فيه وراض به ، وهذا منتهى حكمة العليم الخبير .

ومما هو جدير بالتنبيه عليه ، هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها ، والأرض مع مساحة أصلها أذنت لربها وحقت ، مع أنها لم تتحمل أمانة ، وإن تسأل عن واجب فكيف بالإنسان على ضعفه ، (أأنتم أشد خلقاً أم السماء) ، وقد تحمل أمانة التكليف فأشفقن

منها وحملها الإنسان ، فكان أحق بالسمع والطاعة في كدحه ، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، فَسَوْفَ يَدُودًا يُبْورًا ، وَيَصْلَى سَعِيرًا ، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ، إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۚ ۞ ﴾

في هذا التفصيل بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه ، وما سجل عليه في كتاب أعماله ، وذلك بعد أن تقدم في الانقطاع قوله : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) .

وجاء في المطففين (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) ثم بعده (كلا إن كتاب الأبرار لفي علين) .

جاء هنا بيان لإنيانهم هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض ، في بيان مآل العلم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله .

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر ، عند كل من قوله تعالى : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) في سورة الإسراء — إلى قوله تعالى — (فن أوتي كتابه بيمينه)

وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، وأحال على أول السورة .

وقوله (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) في سورة الكهف وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين .

فالأولى محاسب حساباً يسيراً وهو العرض فقط دون مناقشة ، كما في حديث عائشة رضى الله عنها « من نوقش الحساب عذب »

والثانية : يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ، ومنه : المواظاة على الشيء سميت منابرة ، لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه في طلبه .

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية ، وذلك بين سرورين أحدهما آجل والآخر عاجل .

فالأول في حق من أوتى كتابه بيمينه ، أنه ينقلب إلى أهله ممروراً ينادى فرحاً (هؤم اقرءوا كتابيه) ، وأهله آنذاك في الجنة من الحور والولدان ، ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة ، كما في قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)

وقوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) ، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم ، وهذا من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله ، وهذا مما يزيد سرور العبد ، وهو السرور الدائم .

والآخر سرور عاجل ، وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم ، لأنهم كانوا في أهلهم مسرورين في الدنيا ، وشتان بين سرور وسرور .

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك في الدنيا ، بأنهم يصلون سعيرا ، ولم يبين سبب سرور الآخرين ، ولكن بينه في موضع آخر وهو خوفهم من الله في قوله تعالى : (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم) .

وهنا يقال : إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ، ولم يعطه الأمان معاً ، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة (ولن خاف مقام ربه جنتان) .

(فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى) .

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لا يبالي فيؤتى كتابه بشماله وبصلى سعيرا ، كما في قوله تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الخفت العظيم ، وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) تكذيبا للبعث . وقوله هذا هو بعينه المذكور في هذه الآيات (إنه ظن أن لن يحور) .

وقوله : (إنه ظن أن لن يحور) ، هذا الظن مثل ما تقدم في حق
 المطففين (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) مما يشعر أن
 عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه ، هو الدافع لكل سوء والمضيق
 لكل خير ، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والممانع
 لكل شر ، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما في
 مستهل المصحف (هدى للمعتقين) الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ
 إِذَا اتَّسَقَ ، لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ .

الشفق لغة : رقة الشيء .

قال القرطبي : يقال شيء شفيق ، أى لا تماسك له لرقته ، واشفق
 عليه أى رق قلبه عليه ، والشفقة الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب ،
 وكذلك الشفق .

قال الشاعر :

تهوى سياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

فالشفق بقية ضوء الشمس وحمرةها ، فكأن تلك الرقة من ضوء
 الشمس .

ونقل عن الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت
 العشاء الآخرة إذا ذهب ، قيل : غاب الشفق . ١ هـ .

وهذا ما عليه الأئمة الثلاثة في توقيت وقت المغرب من غروب الشمس إلى غياب الشفق ، وهو الحمرة بعد الغروب ، كما قال الخليل .

وعند أبي حنيفة رحمه الله : أن الشفق هو البياض الذي بعده .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في بيان أوقات الصلوات الخمس عند قوله تعالى : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) ورجح أن الشفق : الحمرة .

ونقل القرطبي قولاً ، قال : وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلاً .

وقال الخليل : صعدت منارة الاسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردد من أفق لى أفق ولم أره يغيب .

وقال ابن أويس : رأيته يتماهى إلى طلوع الفجر ، ثم قال : قال علماءنا : فلما لم يتجدد وقته سقط اعتباره . اهـ .

فهو بهذا يرجح مذهب الجمهور في معنى الشفق ، والنصوص في ذلك من السنة فيها مقال .

فقد روى الدارقطني حديثاً مرفوعاً : الشفق الحمرة .

وتكلم عليه الشوكاني ثم ذكر من يقو به من الصحابة وهم ابن عمر ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وعبادة . ومن الأئمة : الشافعي ،

وابن أبى ليلى ، والثورى ، وأبو يوسف ومحمد ، من الفقهاء ، والخليل
والفراء من أهل اللغة .

فأنت ترى أن أبا يوسف ومحمداً من أصحاب أبى حنيفة وافقا
للجمهور .

وفى شرح الهداية أيضاً : رواية عن أبى حنيفة .

أما ما ذكره القرطبي ففيه نظر ، أى من جهة عدم غياب البياض ،
فإن المعروف عند علماء الفلك أن بين الأحمر والأبيض مقدار درجتين ،
والدرجة تعادل أربع دقائق ، وعليه فالفرق بسيط ، والله تعالى أعلم

وقوله : (والليل وما وسق) هو الجمع والضم للشيء الكثير ،
ومنه سمي الوسق بمقدار معين من مكيل الحب ، وهو ستون صاعا .
وقيل : فيه معانٍ أخرى ، ولكن هذا أرجحها .

والمعنى هنا : والليل وما جمعه من المخلوقات . قيل : كأنه أقسم بكل
شيء كقوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

وقوله : (والقمر إذا اتسق) أى انسع أى تكامل نوره ، وهو
افتعل من وسق ، والقاعدة الصرفية أن فاء الفعل المثالى ، أى الذى
فاؤه واو ، إذا بنى على افتعل تقلب الواو تاء وتدغم التاء فى التاء ،
كما فى : وصلته فانتصل ووزنته فاتزن ، أو تصل أو تزن ، وهكذا هنا
أو تسق .

وقوله : (لتركبن طبقاً عن طبق) .

قال ابن جرير : اختلف القراء في قراءته ، فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة لتركبن بفتح التاء والباء ، واختلف قارؤا ذلك في معناه ، فقال بعضهم : يعنى يأمروا ، ويعنى حالات الترقى والعلو والشدائد مع القوم ، وهذا المعنى عن مجاهد وابن عباس .

وقيل : طبقاً عن طبق : يعنى سماء بعد سماء ، أى طباق السماء ، وهو عن الحسن وأبى العالية ومسروق .

وعن ابن مسعود : أنها السماء تتغير أحوالها تنشق بالغمام ، ثم تحمر كاللؤلؤ ، إلى غير ذلك . وقد رجح القراءة الأولى والمعنى الأول .

وقرأ عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين : لتركبن بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة .

وذكر المفسرون لمعناه حالا بعد حال معان عديدة طفولة وشباباً وشيخوخة ، فقرأ وغنى ، وقوة وضعفاً ، حياة وموتاً ، وبعثاً ، رخاءً وشدة ، إلى كل ما تحتمله الكلمة .

وقال القرطبي : الكل محتمل ، وكله مراد ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن ذلك إنما هو بعامة الناس ويكون يوم القيامة ، إذ السياق في أصول البعث ، إذا السماء انشقت ، وإذا الأرض مدت ،

فأما من أوتى كتابه يدينه وذكر الحساب المنقلب ، ثم التعبير بالمستقبل
 وتركبن ، ولو كان لأمر الدنيا من تغير الأحوال لكان أولى به الحاضر
 أو الماضي ، وإن كان من المستقبل ماسياً من الزمن لكنه ليس
 بجديد ، إذ تقلب الأحوال في شأن الحياة أمر مستقر في الأذهان ،
 ولا يحتاج إلى هذا الأسلوب .

أما أمور الآخرة من بعث ، وحشر ، وعرض ، وميزان وصراط
 وتطهير كعب ، واختلاف أحوال الناس باختلاف المواقف ،
 في عرصات القيامة فهي الحرية بالتنبيه عليها والتحذير منها والعمل
 لأجلها في كدحه إلى ربه ، فلذا جاء بذلك وهو مشعر باستمرار حالة
 الإنسان بعد الكدح إلى حالات متعددة ودرجات متفاوتة .

ولو اعتبرنا حال المقسم به من حيث تطور الحال من شفق أو
 آخر ضوء الشمس ثم ليل ، وما جمع وغطى بظلامه ، ثم قر يبدأ
 سلالاً إلى اتساق نوره ، لكان إنتقالاً من تغير حركات الزمن إلى
 تغير أحوال الإنسان قطعاً ، وأن القادر على ذلك في الدنيا قادر على
 ذلك في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
 غَيْرُ مَمْنُونٍ .

قيل : المن : القطع والنقص ، ومنه قول الشاعر :

لمعفر قهد تنأر شلوه عنس كواسب ماين طعامها
والقهد : ضرب من الضأن تعلوه حمرة صغيرة آذانه ، والكواسب :
الوحوش ، أى ذئاب أو سباع لا يقطع طعامها .

وقال القرطبي : مغنت الحبل إذا قطعته .

وسأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس عنها فقال : غير مقطوع ، فقال
هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم ، قد عرفه أخو يشكر ،
حيث يقول :

فترى خلفهن من سرعة الرجـع مـيننا كأنه أهباء

قال المبرد : المئين الغبار لأنها تقطعه وراها .

وقيل : غير ممنون أى غير ممنون به عليهم ، ليتكل النعمة عليهم .
وقال ابن جرير : غير ممنون : أى غير محسوب ولا منقوص .
وذكره عن ابن عباس ومجاهد .

وقال ابن كثير : غير مقطوع ، كقوله تعالى (عطاء غير
مجنوذ) ورد قول من قال إنه غير ممنون به عليهم ، لأن الله تعالى
أن يمتن على عباده وهم ما دخلوا الجنة إلا بفضل من الله ومنه
عليهم . انتهى .

ومما يشهد لقول ابن جرير غير محسوب عموم قوله تعالى : (إن
الله يرزق من يشاء بغير حساب) وخصوص قوله تعالى : (ومن

عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يرزقون فيها
بغير حساب) .

وقوله تعالى : (جزاء من ربك عطاء حساباً) فهو بمعنى كافياً
من قولك : حسبي بمعنى كافيني .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا
مانع منه ، وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين ،
لأن المن الممنوع هو ما فيه أذى وتنقيص ، كما في قوله : (ثم لا
يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى) أما المن من الله تعالى على عبده ، فهو
عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴾ .

البروج : جمع برج ، واختلف في المعنى المراد به هنا هل هي المنازل أو الكواكب أو قصور في السماء عليها حراسها ؟

وتقدم لشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة الحجر ، عند الكلام على قوله تعالى (ولقد جعلنا في السماء بروجا) ، وفي سورة الفرقان عند قوله تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) .

وقال : إن أصل هذه المادة من الظهور ، ومنه تخرج للرأى ، وساق بيان المعنى المقصود من يروج السماء وعدد المنازل المذكورة .

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض ، فإن بعض المفسرين يقول : لما ذكر مآل الفريقين وتطائر الصحف في السورة الأولى ، ذكر هنا عملاً من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين في قصة الأخدود .

والذى يظهر أقوى من هذا ، هو والله تعالى أعلم : أنه لما ذكر
(٩ - أضواء البيان ج ٩)

سابقا انفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء ، وإذن لها لربها وحق لها ذلك ، جاء هنا بيان كنه هذه السماء أنها عظمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة ، فهي مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر ، فأولى بك أيها الإنسان ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ .

هو يوم القيامة بإجماع المفسرين ، وقد كانوا يوعدون به في الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين ، كما قال تعالى في حق المؤمنين (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وفي حق الكفار (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وسيترفون بذلك عند البعث حينما يقولون : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لحجرات كلا الفريقين على محلهم .

قوله تعالى : ﴿ وَشَهِيدٌ وَمَشْهُودٌ ﴾ .

لم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود ، وقد ذكر الشاهد في القرآن . بمعنى الحاضر ، كقوله تعالى : (فن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقوله : (عالم الغيب والشهادة) .

وذكر المشهود بمعنى المشاهد باسم المفعول ، كقوله تعالى : (ذلك يوم - مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) .

فالشاهد والمشهود قد يكونان من المشاهدة ، وذكر الشاهد من الشهادة ، والمشهود من المشهود به أو عليه ، كما في قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

فشهيد الأولى : أى شهيد على الأمة التى بعثت فيها ، وشهيد الثانية : أى شاهد على الرسل فى أمهم .

ومن هنا اختلف أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولاً .

قال ابن جرير : ما ملخصه : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة أو النحر ، وعزاه لعلى وأبى هريرة ، والشاهد محمد

صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لابن عباس والحسن ابن علي .

والشاهد الإنسان ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لمجاهد وعكرمة .

والشاهد هو الله ، والمشهود هو يوم القيامة ، وعزاه لابن عباس .

ثم قال : والصواب عندي أنه صالح لكل ما يقال له مشاهد ، ويقال له مشهود فلم يفصل ما إذا كان بمعنى الحضور ، أو الشهادة ، ومثله القرطبي وابن كثير .

وقد فصل أبو حيان على ما قدمنا ، فقال : إن كان بمعنى الحضور ، فالشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة ، ولما ذكر اليوم الموعود ناسب أن يذكر كل من يشهد في ذلك اليوم ، ومن يشهد عليه ، وذكر نحواً من عشرين قولاً .

وقال : كل له متمسك ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أنه من باب الشهادة لأن ذكر اليوم الموعود وهو يكفي عن اليوم المشهود ، بل إنه يحتاج إلى من يشهد فيه وتقام الشهادة على ما سيمرض فيه لإقامة الحجة على الخلق لا لإثبات الحق .

وقد جاء في القرآن تعداد الشهود في ذلك اليوم ، مما يتناسب مع العرض والحساب .

ومجمل ذلك أنها تكون خاصة وعامة وأعم من العامة ، فمن الخاصة شهادة الجوارح على الإنسان كما في قوله تعالى : (حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) ، وقوله (اليوم نحتم على أنفؤاهم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وهذه شهادة فعل ومقال لا شهادة حال ، كما بينها قوله تعالى عنهم : (وقالوا للجلود لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) ، ورد الله زعمهم ذلك بقوله : (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

وتقدم للشيخ بيان شهادة الأعضاء في سورة يس وفي سورة النساء عند قوله تعالى : (ولا يكتُمون الله حديثا ، وشهادة الملائكة وهم الحفظة كما في قوله تعالى : (وقال قريبه هذا ما لدى عتيد) ، وقوله : (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، ثم شهادة الرسل كل رسول على أمته ، كما في قوله عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل

الصلاة والتسليم ، (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) فهذا وإن كان في الحياة فسيؤديها يوم القيامة .

وكقوله في عموم الأمم (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل كما في قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

ومنها : شهادة هذه الأمة على سائر الأمم ، كما في قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة لقوله تعالى : (ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

ومنها : شهادة الله تعالى على الجميع .

وهذا ما يتناسب مع ذكر اليوم الموعود وما يكون فيه من الجزاء والحساب على الأعمال وبجازاة الخلائق عليها : وسيأتى في نفس السياق قوله (والله على كل شيء شهيد) ، وهو كما ترى لا يقتيد بشاهد واحد ، وأيضا لا يعارض بعضها بعضا .

فاختلاف الشهود وتعدددهم باختلاف للشهود عليه ، وتعددده من فرد إلى أمة إلى رسل ، إلى غير ذلك . وكلها داخلة في المعنى وواقعة بالفعل .

وقد ذكرت أقوال أخرى ، ولكن لا تختص بيوم القيامة .

ومنها : أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم ، والمشهود به وحدانية الله تعالى .

ومنها : الشاهد المخلوقات ، والمشهود به قدرة الله تعالى ، فتكون الشهادة بمعنى العلامة .

وأكثر المفسرين إيرادا في ذلك الفخر الرازي حيث ساقها كلها بأدلتها إلا ما ذكرناه من السنة فلم يورده .

وقد جاء في السنة تعيين الشهادات لغير ما ذكر .

منها الشهادة للمؤذن : ما يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر ، إلا شهد له يوم القيامة .

ومنها : شهادة الأرض على الإنسان بما عليها المشار إليه في قوله تعالى : (يومئذ تحدث أخبارها) .

ومنها : شهادة المال على صاحبه فيما أنفق .

ومنها : شهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما . ومحو ذلك والله تعالى أعلم .

تفسيه

في هذا المرض إشارات تتعلق بالفناء وكال العدالة ، وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو على كل شيء شهيد ، وبكل شيء عليم ، وموكل حفظه يكتبون أعمال العباد ، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته ويستنطق أعضاءهم ، ويستشهد الرسل على الأمم والرسول صلى الله عليه وسلم على الرسل ، أى بأنهم بلغوا أمهم رسالات الله إليهم ، فلأن لا يقضى القاضى بعلمه من باب أولى . والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إنكم تحتكمون إلى » ، وإنما أنا بشر أقضى لكم على نحو ما أسمع ، فمن اقتطعت له شيئاً من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من نار » الحديث . أى كان من الممكن أن ينزل عليه الوحي ، ولا سيما في تلك القضية بعينها ، إذ قالوا في موارد درست معالمها ولا بيئة بينهما ، ولكن إذا نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم فيها ، فمن بالوحي لمن يأتي بعده في القضاء ؟

ولذا قال صلى الله عليه وسلم « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » .

ومعلوم أن البينة فعيلة من البيان ، فتشمل كل ما يبين الحق من شهادة وقرينة ، كما في قصة يوسف من القرائن مع إخوته ومع امرأة العزيز . إلخ .

قوله تعالى : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ .

قال أبو حيان ، وجواب القسم في قوله تعالى : (والسماء ذات البروج) ، قيل : محذوف ، فقيل : لتبمئن ونحوه ، وقيل : مذكور ، فقيل : إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ونحوه ، وقيل : قتل ، وهذا نختاره ، وحذفت اللام أى لقتل وحسن حذفها كما حسن في قوله : (والشمس وضحاها) ، ثم قال : (قد أفلح من زكاها) أى لقد أفلح ، ويكون الجواب دليلا على لعنة الله على من فعل ذلك ، وتنبيهها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

ولإذا كان قتل هو الجواب فهى جملة خبرية ، وإذا كان الجواب غيرها فهى جملة إنشائية ، دعاء عليهم .

وقرىء : قَتَلَ بالنشديد ، قرأها الحسن وابن مقسم ، وقرأها الجمهور بالانخفيف ١٥ .

والأخدود : جمع خد ، وهو الشق في الأرض طويلاً . وقوله : (النار ذات الوقود) الوقود بالضم وبالفتح ، والقراءة بالفتح كالسحور ، والوضوء . فبالفتح ما توقد به كصبور والماء المتوضأ به والطعام المتسحر به ، وبالضم المصدر ، والفعل والوقود بالضم ما توقد به .

ذكر صاحب القاموس ، والنار ذات الوقود : بدل من الأخدود .

وقيل في معناها : عدة أقوال ، حتى قال أبو حيان : كسكت عن نظرها .

ونقل الفخر الرازي ثلاثة منها .

وللمشهور عند ابن كثير ما رواه أحمد ومسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم ملك ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبر سني وحضر أجلي ، فادفع إليّ غلاماً لأعلمه السحر ، فدفعت إليه غلاماً كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر والملك راهب ، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر ضربته ، وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر ضربك فقل : حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو ذات يوم إذا أتى على دابة عظيمة فظيمة

قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة ، حتى يجوز الناس ورمائها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أى بنى أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علىّ ، فكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس أعمى فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفنى . فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربى ، فقال : أنا . قال : لا ، ربى وربك الله ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله ، فلم يزل يعبذه حتى دلّه على الغلام ، فبعث إليه فقال : أى بنى بلغ من سحرِكَ أن تبرىء الأكمة والأبرص ، وهذه الأدواء ، فقال : أما أشفى أحداً إنما يشفى الله عز وجل ، قال : أنا . قالا : لا ، قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله فأخذه أيضاً بالعذاب حتى دل على الراهب فأوتى بالراهب فقيل : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرقه أيضاً ، وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى ،

فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغت ذروته ،
فإن رجع عن دينه وإلا فدهدوه ، فذهبوا به فلما علوا به الجبل ،
قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدوا أجمعون ،
وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك . فقال : ما فعل أصحابك ؟
فقال : كفانيهم الله تعالى ، فبعث به نفراً إلى البحر في فرفور ، فقال :
إذا لججتم به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه ، فقال الغلام :
اللهم اكفنيهم بما شئت ففرقوا هم ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك
فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به ، قال : ماهو ؟
قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، ثم تصالبنى على جذع وتأخذسهما
من كفائتي . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك
قتلتني ففعل ، ووضع السهم في قوسه ورماه به صدغه ، فوضع الغلام ،
يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ، فقيل للملك :
أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله وقع بك ، قد آمن الناس كلهم فأمر
بأفواه السكك ، نفخت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال :
من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقتلوه فيها . قال : فكانوا يقيمادون
ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابتها لها ترضعه فكانها تقاعست أن تقع في
في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماء فإنك على الحق . وقد قيل :
إن الغلام دفن فوجد زمن عمر بن الخطاب ويده على صدغه ، كلما
رفعت خرج الدم من جرحه ، وإذا تركت أعيدت على الجرح .

وقد سقنا هذه القصة ، وهى من أمثل ما جاء فى هذه المعنى لما فيها من العبر ، والتى يمكن أن يستفاد منها بعض الأحكام ، حيث إن ابن كثير ، عزاهما للإمام أحمد بن ومسلم ، أى لصحة سندها مرفوعة إلى النبی صلى الله عليه وسلم من ذلك الآتى :

الأول : أن السحر بالعلم كما جاء قصة الملكين ببابل ، هاروت وماروت يعلمان الناس السحر .

الثانى : إمكان اجتماع الخير مع الشر : إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر ، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر .

ثالثاً : إجراء خوارق العادات على أيدى دعاة الخير ، لبيان الحق والتثبت فى الأمر ، كما قال الفلام : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ؟

الرابع : أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب ، إذ قال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك ، فسأل عن أمر الراهب ولم يسأل عن أمر الساحر ؟

الخامس : اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه ، كاعتراف الراهب للفلام .

السادس : ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك ، وتفاوت درجات الناس فى ذلك .

السابع : إسناد الفعل كله لله ، إنما يشقى الله .

الثامن : رفض الداعى إلى الله الأجر على عمله وهدايته (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

التاسع : بيان ركن أصيل فى قضية العوسل ، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى .

العاشر : غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك ، حيث ظن فى نفسه أنه الذى شفى جليسه . وهو لم يفعل له شيئاً ، وكيف يكون وهو لا يعلم ؟

الحادى عشر : اللجوء إلى المنف والبطش عند المعجز عن الإقناع والإفهام ، أسلوب الجهالة والجهاورة .

الثانى عشر : منتهى القسوة والغلظة فى نشر الإنسان ، بدون هوادة .

الثالث عشر : منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين ، وهكذا كان فى الأمم الأولى ، وبيان فضل الله على هذه الأمة ، إذ جاز لها التلطف بما يخالف عقيدتها وقلوبها مطمئن بالإيمان .

وقد جاء عن الفخر الرازى قوله : الآية تدل على أن المكروه على

الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ماخوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك ، وقال . وروى الحسن أن مسيلة أخذ رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : تشهد أنى رسول الله ؟ فقال : نعم ، فتركه ، وقال للآخر مثله ، فقال : لا بل أنت كذاب . فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما الذى يترك فأخذ بالرخصة فلا تبعه عليه ، وأما الذى قتل فأخذ بالأفضل فهينئآله » .

وتقدم بحث هذه المسألة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

الرابع عشر : إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين : اللهم اكفنيهم بما شئت .

الخامس عشر : التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة ، حيث دل الغلام الملك على الطريقة التى يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو .

السادس عشر : إبقاء جسمه حتى زمن عمر رضى الله عنه لإكرام أولياء الله ، والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم .

السابع عشر : إثبات دلالة القدرة على البعث .

الثامن عشر : حياة الشهداء لوجود الدم وعودة اليد مكانها ، بحركة

مقصودة .

التاسع عشر : معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين ، كما هو موضح في تمام القصة .

المشروع : نطق الصبي الرضيع بالحق .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ نُمَّ عَلَيْهَا قُمُودٌ ﴾ .

الضمير في قوله : هم ، والضمير في قوله : قمود ، ذكر فيها خلاف .

ف قيل : راجعان إلى من أحرقوا وأقمودوا عليها .

وقيل : راجعان إلى الكفار .

وعليه ففى قوله : عليها قمود ، إشكال وهو كيف يتمكن لهم القمود على النار .

ف قيل : إنها رجعت عليهم فأحرقتهم ، فقمودهم عليها حقيقة .

وقيل : قمود على حافتها كما تقول : قمود على النهر أو على البئر أو على حافته وحوله ، كما يقال : نزل فلان على ماء كذا ، أى عنده .

وأنشد أبو حيان بيت الأعشى :

تشب لمقرورين بصطليانها وبات على النار الندى والمخلق

و قد استدل صاحب القول الأول بقوله تعالى الآتى (فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) ، فقال : الحريق فى الدنيا و جهنم فى الآخرة .

ولكن فى الآية قرينة ، على أن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم ، وهى قوله : (ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم) حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة ، وجاء بـثم التى هى للتراخى ، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاماً منهم حالا ، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة ، وإلا فلهم العذاب المذكور فى الآخرة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

بمعنى حضور يتفق قوله تعالى : (إذ هم عليها قعود) أى حضور يشاهدون إحراق المؤمنين ، وهذا زيادة فى التبكيت بهم ، إذ يرون هذا المظهر بأعينهم ولم يشفقوا بهم ولم يعتبروا بشبابتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ ﴾ .

هذا ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم ونظيره فى العربية أقوال الشاعر :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
 وذكر أبو حيان قول الشاعر ، وهو قيس الرقيات :
 ما تقوموا من بنى أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا
 وقول الآخر :

ولاعيب فيها غير شكاة عينها كذلك عناق الطير شكلا عيونها
 يقال عين شكلاء : إذا كان في بياضها حمرة قليلة يسيرة .

وقد منا أن نعمتهم عليهم للمستقبل ، كما في قوله تعالى : (إلا أن يؤمنوا بالله) لا على الماضي إلا أن آمنوا ، لأنهم كانوا يقولون لهم : إما أن ترجعوا عن دينكم ، وإما أن تلقوا في النار ، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق ، بل على إصرارهم على الإيمان للمستقبل .

والإتيان هنا بصفتي الله تعالى العزيز الحميد إشعار بأنه سبحانه قادر على نصرته المؤمنين والانتقام من الكافرين ، إذ العزيز هو الغالب ، كما يقولون : من عزّ بز ، ولكن جاء وصفه بالحميد ، ليشر بأمرين .

الأول : أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة ، رغبة في الحميد على ما يأتي الغفور الودود ، ورهبة من العزيز كما سيأتي في قوله : (إن بطش ربك لشديد) وهذا كالإيمان رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمنين .

والأمر الثاني : حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته ، كما

قال : (نم لم يتوبوا) إذ أعطاهم للمهلة من آثار صفته الحميد سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

تأكيد وبيان العزيز الحميد ، إذ لا يخرج عن سلطانه أحد ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو المدبر أمر ملكه ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ربط بأول السورة وشاهد ومشهود ، فهو سبحانه على كل شيء شهيد ، ومن ذلك فعل أولئك ، وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم ومن على شاكلتهم ، بأن الله تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية . وقد جاء بصيغة المبالغة في شهيد ، لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل ، كما كانوا قعوداً على النار وشهوداً على إحراق أولياء الله تعالى ، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل ، إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ .

يحتمل أن يكون مراداً به أصحاب الأخدود ، وفتنوا بمعنى أحرقوا ، ويحتمل أن يكون عاما في كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأي أنواع الفتنة والتعذيب .

وقد رجح الأخير أبو حيان وحمله على المومم أولى ، ليشمل كفار

قريش بالوعيد والتهديد ، وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضعفة المؤمنين ، كعمار وبلال وصهيب وغيرهم .

ويرجح هذا العموم ، العموم الآخر الذى يقابله فى قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) فهذا عام بلا خلاف فى كل من اتصف بهذه الصفات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

فى مقام المنطوق بالمفهوم من العزيز الحميد ، كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .

قيل : يبدئ الخلق ويعيده ، كالزرع والنبات والإنسان بالموء والموت ، ثم بالبعث .

وقيل : يبدأ الكفار بالمذاب ويعيده عليهم ، واستدل لهذا بقوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) .

وفى الحديث : « ما من صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر ، ثم يأتى بها أوفر ما تكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه أخرها أعيد عليه أولها ، حتى يقضى بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى جنة ، وإما إلى نار » إلى آخر الحديث فى صاحب البقر والغنم والذهب .

ولكن الذى يظهر والله تعالى أعلم هو الأول ، لأنه يكثر فى

القرآن كقوله تعالى : (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) - وقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون) .

وجمله آية على قدرته ودليلا على عجز ونقص الشركاء ، في قوله في أول هذه الآية : قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ورد عليهم بقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) ، وقوله (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ، فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ﴾ .

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسليمة للمؤمنين وتثبيتا لهم ، وزجراً للمشركين وردعاً لهم ، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم وفرعون وثمود بدل من الجنود ، وهم جمع جند ، وهم الكثرة وأصحاب القوة ، وحديثه ماقص الله من خبره مع موسى وبني إسرائيل .

وفي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة ، إذ فرعون طغى وادعى الربوبية ، كذلك أصحاب الأخدود الذي قال لجائسه : ألك رب غيري ؟ ولتمذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الهادية ، إذ موسى عليه السلام قدم فرعون من آيات ربه الكبرى فكذب وعصى ، والغلام قدم لهذا الملك الآيات الكبرى : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ،

وعجز فرعون عن موسى وإدراكه ، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه الله من الإغراق والهدمة من قمة الجبل ، فكان لهذا أن يرعوى عن ذلك ويتفطن للحقيقة ، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون .

وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجداً .

وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام ، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون . إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته ، فانقلب الموقف عليه ، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى ، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذي جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام .

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة ، وإن كان في الكل عظة وعبرة ، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه ، والله تعالى أعلم .

وكذلك نود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان ، وقد جمعهم الله أيضاً معاً في سورة الفجر في قوله : (ونود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد) وهكذا جمعهم هنا فرعون ونود .

قوله تعالى ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ .

أى مستمر في كل الأمم ، وتقدم في سورة الانفطار قبلها (بل الذين كفروا يكذبون) .

فقال الكرمانى ، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء فى كتابه
أسرار التكرار فى القرآن : إن المغايرة لمراعاة رموس الآى
والفواصل ، ولكن الظاهر من السياق فى الموضعين مراعاة السياق
لا فواصل الآى ، لأن فى سورة الانشقاق الحديث مع المشركين
(لتركن طبقاً عن طبق فما لهم لا يؤمنون ، وإذا قرئ عليهم
القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون) .

وفى سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب
الأخدود والمشركين فى مكة ، ثم قال (بل الذين كفروا فى تكذيب)
فناسب هذا هنا ، وناسب ذاك هناك . والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ .

أصل الطرق في اللغة : الدق ، ومنه المطرقة ، ولذا قالوا للآتي ليلاً : طارق ، لأنه يحتاج إلى طرق الباب .

وعليه قول امرئ القيس :

فثلك حبلى قد طرقت ومرضع فآلميتها عن ذى تمام هول

أى جئتها ليلاً ، وقول الآخر :

ألم تزيانى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وقول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجى بسلام

وفى الحديث : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا

طارقاً بطرق بخير يارحمن » ، فهو لفظ عم فى كل ما يأتى شئته المفاجيء ،

ولكأنه يأتى فى حالة غير متوقعة ، ولكنه هنا خص بما فسر به

بعده فى قوله تعالى : (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) .

ف قيل : ما يشق الشياطين عند استراق السمع ، كما تقدم فى قوله

تعالى : (فن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) فيكون عاماً فى كل نجم .

وقيل : حاص ، فقيل : زحل وقيل : المريخ ، وقيل : الثريا ،
لأنه إذا أطلق النجم عند العرب ، كان مراداً به الثريا .

وتقدم هذا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة النجم .
وقيل : الثاقب المضيء ، يثقب الظلام بضوئه ، وعليه فهو للجنس
عامة ، لأن النجوم كلها مضيئة .

قال القرطبي ، وقال سفيان : كل ما في القرآن وما أدراك فقد
أخبره به ، وكل شيء قال فيه : وما يدريك ، لم يخبره به .

والواقع أنه الغالب ، فقد جاءت : وما أدراك ثلاث عشرة مرة ،
كلها أخبره بها إلا واحدة ، وهي في الحاقة (وما أدراك ما الحاقة)
وما عداها ، فقد أخبره بها ، وهي : (وما أدراك ما سقر ، لا تبقى
ولا تذر) .

وفي الرسائل (وما أدراك ما يوم الفصل) .

وفي الانفطار : (وما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس
لنفس شيئاً) .

وفي المطففين : (وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم) .

وفي البلد : (وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة) .

وفي النذر : (وما أدراك ما ليلة القدر ؛ ليلة القدر خير من ألف شهر)

وفي القارعة (وما أدراك ما القارعة) .

وأيضاً : (فأمة هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) ، وفي هذه السورة (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) ، فكلها أخبره عنها إلا في الحاقة .

تنبيه

يلاحظ أنها كلها في قصار السور من الحاقة وما بعدها ، أما ما يدريك ، فقد جاءت ثلاث مرات فقط ، (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) في الأحزاب ، (وما يدريك لعل الساعة قريب) في الشورى ، (وما يدريك لعله يزكى) في عبس وتولى ، فلم يخبره فيها صراحة ، إلا أنه في الثالثة قد يكون أخبره لأنه قال (لعله يزكى) فهو وإن لم يصرح هل هو تزكى أم لا ، إلا أن لعل من الله تعالى للتحقيق ، كما هو معلوم .

تنبيه آخر

قال كثير من المفسرين : أقسم الله بالسماء ، وبالنجم الطارق لعظم أمرهما ، وكبر خلقهما كما في قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، ولأنه أقسم بالنجم إذا هوى .

وفيا تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ترجيح كون مواقع

النجوم ، والنجم إذا هوى : إنما هو نجوم القرآن وتنزيله منجماً وهوية نزول الملك به على النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .

قيل : حافظ لأعماله يحصيها عليه ، كما في قوله : (ما يافظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقيل : حافظ ، أى حارس ، كقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، والسياق يشهد للمعنيين معا ، لأن قوله تعالى بعده (فليَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) يدل على أنه في تلك المراحل في حفظ ، فهو أولاً في قرار مكين .

وفي الحديث : « أن الله وكل بالرحم ملكا » الحديث .

وبعد بلوغه سن التكليف يجرى عليه القلم فيحفظ عليه عمله ، فلا مانع من إرادة المعنيين معا ، وليس هذا من حل المشترك على معنييه ، لأن كلا من المعنيين له متعلق ، يختص بزمان خلاف الآخر .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .

الإنسان هنا خاص بينى آدم وذريته عامة ، ولم يدخل فيه آدم

ولا حواء ولا عيسى عليه السلام لأنه بيّن ما خلق منه ، وهو في قوله تعالى (خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) .

وتقدم للشبّخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه الآية عند قوله تعالى (خلق الإنسان من نطفة) في سورة النحل ، وفي سورة الواقعة عند قوله تعالى : (أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ، وتقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) في سورة الدهر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۖ ﴾ .

إنه هنا أى إن الله على رجعه ، الضمير فيه ، قيل : راجع للماء الدافق ، أى أنه سبحانه قادر على رجع هذا الماء من حيث خرج ، كرد اللبن إلى الضرع مثلاً ، ورد الطفل إلى الرحم ، وهذا مروي عن عكرمة ومجاهد .

وقيل : على رجع الإنسان بعد الموت ، وهذا وإن كان في الأول دلالة على القدرة ، ولا يقدر عليه إلا الله ، إلا أن في السياق ما يدل على أن المراد ، هو الثاني لعدة أمور :

الأول : أن رد الماء لم يتعلق به حكم ولا أمر آخر سوى إثبات

القدرة بخلاف رجوع الإنسان بعد الموت ، فهو قضية الإيمان بالبعث .
ويتعلق به كل أحكام يوم القيامة .

الثانى : مجيء القرآن بالخلق الأول ، دليل على الإعادة بعد الموت ،
كقوله تعالى فى يس : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه - أى من ماء
دافق - قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها
أول مرة) ، أى من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

الثالث : أن الأول يحتاج معه إلى تقدير عامل ليوم تبلى السرائر ،
نحو اذكر مثلاً بخلاف الثانى ، فإن العامل فيه : هو لقادر ، أى لقادر
على رجعه يوم تبلى السرائر .

ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله : وكل من خالف ذلك إنما
فر من أن يكون لقادر هو العامل فى الظرف ، لأنه يوم أن قدرته على
رجعه مقيدة بذلك .

ولكن بتأمل أسلوب العرب يعلم جوازه ، لأنه قال : إنه على
رجعه لقادر على الإطلاق أولاً وآخراً ، وفى كل وقت ثم ذكر تعالى :
وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء
والوصول إلى العذاب للتحذير منه . اهـ

فظهر بذلك أن الضمير فى رجعه عائد للإنسان أى بعد موته
بالبعث ، وأن العامل هو لقادر .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى : (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) ، وساق عندها هذه الآية ، وسيأتى التصريح به في سورة العاديات عند قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بمأثر ما في القبور وحصل ما في الصدور) وقد أجل ابتلاء السرائر .

وكذلك أجل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بإيراد الآيات .
وذكر المفسرون : أن المراد بها أمانة التكليف فيما لا يعلمه إلا الله ، ومثلوا لذلك بالحفاظ على الطهارة للصلاة ، وغسل الجنابة ، وحفظ الصوم ، ونحو ذلك . ومنه المقائد وصدق الإيمان أو الفناء ، عياداً بالله .

والسرائر : هي كل ما يخفيه الإنسان حتى في المعاملات مع الناس ، كما في الأثر « الكيس من كانت له عند الله خبيثة سر » ، وقوله : (وأمروا قولكم أو اجهروا به) ، فالسر ضد الجهر ، وقال الأحوص :

سيبقى لما في مضمرة القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

قال أبو حيان : سمعه الحسن ، فقال : ما أغفله عما في السماء والطارق .
(١١ - أضواء البيان ج ٩)

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

قالوا : ليس من قوة في نفسه لضعفه ، وبديل عليه قوله
(وهرضوا على ربك صفًا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) .

وقوله : (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى من الضعف وشدة
الخوف ، ولا ناصر له من غيره ، كما في قوله : (ولم تكن له فئة ينصرونه
من دون الله وما كان منتصرًا) .

وقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله) .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ
الصَّدْعِ ﴾ .

وقيل : رجع السماء : لإعادة ضوء النجوم والشمس والقمر .

وقيل : الرجع : الملائكة ترجع بأعمال العباد .

وقيل الرجع : المطر وأرزاق العباد . والأرض ذات الصدع ، قيل :
تنشق عن الخلائق يوم البعث .

وقيل : تنشق بالنبات .

والذى يشهد له القرآن : أن الرجع والصدع متقابلان من السماء
والأرض بالمطر والنبات ، كما في قوله تعالى . (فليُنظر الإنسان إلى

طعامه أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً
وعنباً وقضباً (والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ .

قال ابن كثير : قال ابن عباس حق . وكذا قال قتادة ، وقال
آخرون : حكم عدل . وقال القرطبي : إنه أى القرآن ، يفصل بين الحق
والباطل .

وقيل : هو ما تقدم من الوعيد في هذه السورة (إنه على رجمه
لقادر يوم تبلى السرائر) .

وقال أبو حيان بما قال به القرطبي أولاً ، ثم جوز أن يكون مراداً
به الثانى ، أى أن الإخبار عن رجوع الإنسان يوم تبلى السرائر ، قول
فصل ، وهذا ما يفيد كلام ابن جرير ، وعزاه النيسابورى إلى الثقال .

وسياق السورة يشهد لهذا القول الثانى ، لأن السورة كلها في معرض
إثبات القدرة على البحث ، وإعادة الإنسان بعد الفناء ، حيث تضمنت
ثلاثة أدلة من أدلة البعث .

الأول : السماء ذات الطارق . لعظم خلقها ، وعظم دلائلها
على القدرة .

الثاني : خلق الإنسان أولاً من ماء دافق ، كما في قوله : (قل يحياها الذي أنشأها أول مرة) .

الثالث : مجموع قوله : (والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع) أى إنزال المطر ، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها . فناسب أن يكون الإقسام على تحقق البعث .

وأكد هذا ما جاء بعده من الوعيد بالإمهال رويدا ، وقد سمي يوم القيامة بيوم الفصل ، كما في قوله : (لأى يوم أجأت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين) .

وذكر الويل في هذه الآية للمكذبين يعادل الإمهال في هذه السورة للكافرين ، وإذا ربطنا بين القسم والمقسم عليه ، لكان أظهر وأوضح ، لأن رجوع الماء بعد فئائه بتلقيح السحاب من جديد يعادل رجوع الإنسان بعد فئائه في الأرض ، وتشقق الأرض عن النبات يناسب تشققها يوم البعث عن الخلائق ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُوا كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾

نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه : من باب المقابلة كقوله : (ومكروا ومكر الله) ، وقوله : (إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ

بهم) ، وهو في اللغة ، كقول القائل ، لما سئل عن أى الطعام يريد ، وهو عارٍ يريد كسوة .

قالوا اختر طعاما نجد لك طبيخه قلت اطبخوا لى جبة وقيصا

وقد اتفق السلف ، أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق ، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد ، لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله تعالى ، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعالجة لشيء بقوة .

وقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : والعرب قد تطلق الكيد على المكر ، والعرب قد يسمون المكر كيداً ، قال الله تعالى : (أم يريدون كيداً) ، وعليه فالكيد هنا لم يبين ، فإذا كان بمعنى المكر ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شيء منه عند قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، بأن مكروا محاولتهم قتل عيسى ، ومكر الله إلقاء الشبه ، أى شبه عيسى على غير عيسى .

وتقدم قوله تعالى : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم

من القواعد نغرة عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) ، وهذا في قصة المروء ، فكان مكرم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء ، فكان مكر الله بهم أن تركهم حتى تصاعدوا بالبناء ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فهدمه عليهم .

وهكذا الكيد هنا ، لأنهم يكيدون للإسلام والمسلمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله يكيد لهم بالاستدراج حتى يأتي موعد إهلاكهم ، وقد وقع تحقيقه في بدر ، إذ خرجوا محادة لله ورسوله ، وفي خيلائهم ومفاخرتهم وكيد الله لهم أن قتل المؤمنين في أعينهم ، حتى طعموا في القتال ، وأمطر أرض المعركة ، وهم في أرض سُبخة ، والمسلمون في أرض رملية فكان زلعا عليهم وثباتا للمؤمنين ، ثم أنزل ملائكته لقتالهم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلِهِمْ رُؤْيَا ﴾ .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، مانصه : هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية .

والجواب : أن الإمهال منسوخ بآيات السيف . اهـ .

وهذا ما يفنيه كلام الطبرى ، وإن لم يصرح به وهو منصوص
القرطبي . ولعل في نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله : (أمهلهم
رويدا) لأن رويدا بمعنى قليلا ، فقد قيد الإمهال بالقلّة مما يشعر
بمجيء النسخ وأنه ليس نهائيا . والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْأَعْلَى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ .

تقدم معنى التسبيح وهو التثني عن كل ما لا يليق ، والأمر بالتسبيح هنا منصب على اسم ربك ، وفي آيات أخر ، جاء الأمر بتسبيح الله تعالى كقوله : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) .

ومثل : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) .

وتسبيح الرب سبحانه كقوله : (سبحان رب العزة عما يصفون) ، فاختلف في هذه الآية ، هل المراد تسبيح الله سبحانه أو للراد تسبيح اسمه تعالى ، كما هو هنا ؟

ثم اختلف في المراد بتسبيح اسم الله تعالى ، وجاءت مسألة الاسم والسمى .

وقد تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة الواقعة ، عند قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) ، قوله : إن الباء هناك داخلة على المفعول كدخولها عليه في قوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) ، وأحال على متقدم في ذلك ، وحكى كلام القرطبي أن الاسم بمعنى المسمى ، واستشهد له من كلام العرب بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقال : لا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا ، لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله أُلحِد فيها قوم ونزَّهها آخرون ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، لاشتمالها على صفاته الكريمة ، كما في قوله : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

وقوله تعالى : (أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

ثم قال : ولستأ نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى ، هل الاسم هو المسمى أو لا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية . ٥١ .

فتضمن كلامه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، احتمال كون المراد : تنزيه اسم الله عما أُلحِد فيه الملحدون ، كاحتمال تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، كما تضمن عدم لزوم كون الاسم هنا بمعنى المسمى ، وأملنا نورد مجمل بيان تلك النقاط إن شاء الله .

أما تنزيه أسماء الله فهو على عدة معان .

منها : تنزيهها عن إطلاقها على الأصنام كاللات والعزى واسم الآلهة .

ومنها : تنزيهها عن اللغو بها والغب ، كالتلفظ بها في حالة تنافي الخشوع والإجلال كمن يعبث بها ويلهو ، ونظيره من يلهو ويسهو عن صلاته ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أو

وضعها في غير مواضعها ، كنفش الثوب أو الفراش المتهن .

ومنها : تنزيها عن المواطن غير الطاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لميا فيه من نقش محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه : صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صوتاً لاسم الله .

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية الواقعة ، وأن اسم ربك واقع موقع المفعول به ، وهو المراد بالتسبيح ، وعلى أن المراد تسبيح الله تعالى ، فقالوا : إن الاسم هو المسمى ، كما قال القرطبي وغيره ، وقالوا : الاسم صلة ، كما في بيت لبيد المتقدم .

أما مسألة الاسم هل هو عين المسمى أم لا ، فقد أشار إليها الفخر الرازي ، وقال : إنه وصف ركيك .

أما قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا يلزم في نظري كون الاسم بمعنى المسمى هنا ، فإنه بلازم إلى بسط قليل ، ليظهر صحة ما قاله .

وقد ناقشها الرازي بعد مقدمة ، قال فيها : من الناس من تمسك بهذه الآية ، في أن الاسم نفس المسمى .

فأقول : إن الخوض في الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل

النزاع ، فلا بد هاهنا من بيان أن الاسم ماهو والمسمى ماهو .
 فنقول : إن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك
 الذات ، فالماعقل لا يمكن أن يقول : الاسم هو المسمى ، وإن كان
 المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات . كان
 قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات هي تلك الذات . وهذا
 لا يمكن أن يغازع فيه عاقل ، فعملنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكة ،
 وذكر الاشتباه على المتأخرين بسبب لفظ الاسم الذي هو قسم الفعل
 والحرف ، إذ هو مراد المتقدمين في إطلاقه وإرادة مسماه .

ومن هنا تعلم : لماذا أعرض الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن
 بيانها ؟ وقد أوردنا هذا البيان الجمل ، لنطلع القارىء إليه ، وعلى
 كل تقدير عند المتقدمين أو المتأخرين فإنه إن وقع الاحتمال في الدوات
 الأخرى ، فلا يقع في ذات الله وأسمائه ، لأن لأسماء الله أحكاماً لا
 لأسماء الآخرين ، ولأسمائه سبحانه حق التسبيح والتزيه والدعاء بها
 كما تقدم .

وهنا وجهة نظر لم أر من صرح بها ، ولكن قد تفهم من كلام
 بعض المفسرين وتشير إليها السنة . وهي : أن يكون التسبيح هنا بمعنى
 الذكر والتعبد ، كالتمجيد والتهليل والتكبير .

وقد جاء في كلام الرازى قوله : ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه ،
 ونحوه في بعض نقول الطبرى .

أما إشارة السنة إلى ذلك ، فقد روى الطبري وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت ، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأها (سبحان ربى الأعلى) .

وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزلت هذه قال : « اجعلوها فى سجودكم » .

وساق القرطبي أثراً طويلاً فى فضلها فى الصلاة وخارج الصلاة ، ولكنه ليس بصحيح .

وجاء الحديث الصحيح « تسبحون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وتسكبرون ثلاثاً وثلاثين ، وتختمون المائة بلا إله إلا الله » .

وقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أن نزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ، وقالت : يتأول القرآن » .

وقالت أم سلمة « إنه كان يقولها فى قيامه وقعوده ، ومجيئه وذهابه ، صلى الله عليه وسلم » فيكون سبح اسم ربك : أى اذكر ربك .

وهذا ما دلت عليه الآية الأخرى فى هذه السورة نفسها فى قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فصرح بذكر

اسم ربك ، كما جاء سبّح اسم ربك ، فوضع الذكر موضع التسبيح ، وهو ما أشرنا إليه . وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

أطلق الخلق ليعم كل مخلوق كما تقدم في السجدة ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، والتسوية التقويم والتعديل ، وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن ما يتناسب خلقه وما خلق له ، فخلق السماوات فسواها في أقوى بناء ، وأعلى سمك ، وأشد تماسك ، لا ترى فيها من تشق ولا فطور ، وزينها بالنجوم ، وخلق الأرض ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها وجعلها فراشا ومهاداً ، وخلق الأشجار فسواها على ما تصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك .

وهذه الحيوانات في خلقها وتسويتها آية (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) .

أما الإنسان فهو في أحسن تقويم ، كل ذلك مما يشترط حقا له سبحانه أن يسبح اسمه في ذاته ، وجميع صفاته ، حيث جمع بين الخلق والتسوية ، فلكمال القدرة والقنزية عن كل نقص .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

أطلق هنا التقديم ليعم كل مقدور ، وهو عائد على كل مخلوق ،

لأن من لوازم الخلق التقدير ، كما قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، وقوله (قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، وهذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القدرة ، وقد جمعها تعالى عند التعريف التام لله تعالى ، لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال : (فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

وقد تقدم بيان عموم قوله تعالى : (الذي خلق فسوى) ، وهنا قدر كل ما خلق ، وهدى كل مخلوق إلى الله ما قدره له ، ففى العالم العلوى قدر مقادير الأمور ، وهدى الملائكة لتنفيذها ، وقدر مسير الأفلاك ، وهداها إلى ما قدر لها ، كل فى فلك يسبحون .

وفى الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة فى إنباتها وهدايتها إلى ما قدر لها ، فالجذر ينزل إلى أسفل والنبته تنمو إلى أعلى ، وهكذا الحيوانات فى تلقيحها ونتاجها وإرضاعها ، كل قد هداه إلى ما قدر له ، وهكذا الإنسان .

وقد قال الفخر الرازى : إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية .

أما معناها بالتفصيل ، فتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : (قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

قوله تعالى : ﴿ سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى نقرئك في سورة طه في الكلام على قوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) ، وبينه بآية القيامة (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) .

وقوله : فلا تنسى : بحمته رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب مع ما ينسخ من الآيات فينساها ، وسيطع إن شاء الله تعالى مع هذه التهمة ، تقمة للفائدة .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكَرْكَ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَى ﴾ .

هل ، إن هنا بمعنى إذ أو أنها شرطية ؟ وهل للشرط مفهوم مخالفة أم لا ؟ كل ذلك بحمته الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بهوس في دفع إيهام الاضطراب ، ورجح أنها شرطية ، وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام مقطوع بنفعه ، ومقطوع بعدم نفعه ، ومحمّل وقال : محل التذكير مالم يكن مقطوعاً بعدم نفعه ، كن بين له مراراً فأعرض ، كأنى لمب ، وقد أخبر الله عنه بمآله فلا نفع في تذكيره .

قوله تعالى : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من الذكوى :

ومنها تذكير المؤمنين ، وذلك في الكلام على قوله تعالى : (وذكر
فان الذكرى تنفع المؤمنين) في سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ .

أى بسبب شقاوتهم السابق أزلا ، كما قال تعالى : (فأما الذين
شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ .

نفى عنه الضدين ، لأن الإنسان بالذات إما حي وإما ميت ،
ولا واسطة بينهما ، ولكن في يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير ،
وهذا أبلغ في التعديب ، إذ لو مات لاستراح ، ومع أنه يتلقى من
العذاب ما لاهياة معه ، كما في قوله تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا
ولا يخفف عنهم من عذابها) .

وقوله : (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك في سورة
طه عند الكلام على قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له
جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

أسند الفلاح هنا إلى من تزكى وذكر اسم ربه صلى ، وفي غير
هذه الآية أسند التزكية لمشيئة الله في قوله : (ولولا فضل الله عليكم

ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) ، وفي آية أخرى ، نهى عن تزكية النفس .

وقد تقدم للشيخ بيان ذلك في سورة النور عند الكلام على قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد) على أن زكى بمعنى تطهر من الشرك والمعاصي ، لا على أنه أخرج الزكاة ، والذي يظهر أن آية النجم إنما نهى فيها عن تزكية النفس لما فيه من امقداحها ، وقد لا يكون صحيحاً كما في سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ تَوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

قرىء : تؤثرون بالتاء وبالياء راجعاً إلى (الأشقى الذى يصل النار الكبرى) ، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم ، وحيث إن هذا الأمر عام في الأمم الماضية ، ويذكر في الصحف الأولى كلها عامة ، وفي صحف إبراهيم وموسى ، مما يدل على خطورته ، وأنه أمر غالب على الناس .

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق ، كما في قوله تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ،

وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون (أى الحياة الدائمة .

وقد روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفتى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفتى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفتى ؟

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما فى قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

ثم قال : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .
ويبين تعالى هذا المآب الحسن وهو فى وصفه يقابل والآخرة خير وأبقى ، فقال : (قل أؤنبشكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد) .

تأمل هذا البديل ، ففى الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث ، وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمت وشملت ، ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة ، كما تقدم فى (أنهار من عسل مصفى ولبن لم يتغير طعمه ، وماء آسن وخنر لذة للشاربين لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وغير ذلك مما ينص على الخيرية فى الآخرة .

ولاشك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيا ، وظاهر عليه ، كما صرح تعالى بذلك فى قوله : (زين للذين كفروا الحياة ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

فمن هذا يظهر أن أسباب إثارة الناس للحياة الدنيا هو تزينها وزخرفتها فى أعينهم بالمال والبنين والخليل والأنعام (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات للصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) .

وقد سبق هذا ، لاعلى سبيل الإخبار بالواقع فحسب ، بل إن من ورائه ما يسمى لازم الفائدة ، وهو ذم من كان هذا حاله ، فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة .

وإذا ذهبنا نطلب العلاج فإننا فى الواقع نواجه أخطر موضوع على الإنسان ، لأنه يشمل حياته الدنيا ومآله فى الآخرة ، ويتحكم فى سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه ، وإن أقرب مأخذ لنا لهو هذا الموطن بالذات من هذه السورة ، وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى) ، وبعدها (قد أفلح من تزكى وذكى اسم ربه فضلى) فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين .

أما التذكير والإنذار ، إذ قال تعالى : (فذكر إن نفعت

(الذكرى) ، فهذا موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآيتين : سيذكر من يخشى : فينتفع بالذكرى وتنفعه ، ويتجنبها الأشقى : فلا تنفعه ولا ينتفع بها ، ثم جاء الحكم بالفلاح : قد أفلح من تزكى ، أى من يخشى وذكر اسم ربه فصلى ، ولم يغفل عن ذكر الله تعالى ، وهذا الموقف بنفسه هو المفصل في سورة الحديد ، وفي معرض التوجيه لنا والتوبيخ للأمم الماضية أيضاً (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

فقسوة القلب وطول الأمد والتسويق : هى العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا . والخشية والذكر : هى العوامل الأساسية لإيثار الآخرة ثم عرض الدنيا فى حقيقتها بقوله : (اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث - إلى قوله - والله ذو الفضل العظيم) .

فوصف الداء والدواء معاً فى هذا السياق . فالداء : هو الغرور ، والدواء : هو المسابقة إلى مغفرة من الله ورضوانه .

وقوله : (إن هذا لى الصحف الأولى) قيل : اسم الإشارة راجع إلى السورة ، كلها لتضمنها معنى التوحيد والمعاد والذكر والعبادات ،

والصنف الأولي : هي صنف إبراهيم وموسى ، على أنها بدل من الأولى .

وجاء عند القرطبي : أن صنف إبراهيم كانت أمثالا ، وصنف موسى كانت مواعظ ، وذكر نماذج لها .

وعند الفخر الرازي من رواية أبي ذر رضى الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب على آدم عشر صحيفة ، وعلى شئت خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

وفي هذا نص على أن في القرآن مما في الصنف الأولي ، وقد جاء ما يدل أن معان أخرى كذلك في صنف إبراهيم وموسى كما في سورة النجم في قوله : (أم لم ينبأ بما في صنف موسى وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سمعیه سوف يرى) إلى آخره .

وهذا يؤيد أنها أكثرها أمثالا ومواعظ ، كما يؤكد ترابط الكتب السماوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْغَاسِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ النَّفْسِ ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خُشِمَةٌ ، قَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ، تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنِيَّةٍ ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .

الكلام في هل هنا ، كالكلام في هل التي في أول سورة الإنسان ، أنها استفامية أو أنها بمعنى قد ؟

ورجح أبو السعود وغيره أنها استفهامية للفت النظر وشدة التعجب والقنوية ، بشأن هذا الحديث ، وهو مروي عن ابن عباس قال : رضى الله عنه : « لم يكن أناه فأخبره به » وحديث الغاشية هو خبرها الذي يتحدث عنها .

والغاشية قال أبو حيان : أصلها في اللغة : الداهية تفشى الناس ، واختلف في المراد بها هنا : فقيل : يوم القيامة .

وقيل : النار . واستدل كل قائل بنصوص . فن الأول قوله : (يوم يغشاهم العذاب) .

قال الفخر الرازي . وإنما سميت القيامة بهذا الاسم ، لأن ما أحاط
بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه .
الأول ، أنها ترد على الخلق بغتة ، وهو كقوله : (أفأمنوا أن تأتيهم
غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة) .

والثاني : أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين .

والثالث : أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد .

ومن استدلالهم على أنها النار ، قوله تعالى : (وتغشى وجوههم
النار) .

وقيل الغاشية : أهل النار يغشونها أى يدخلونها ، فالغاشية
كالدافة في حديث الأضاحي .

وقال الطبري : والراجح عندى أن الله تعالى أطلق ليعم ، فيجب
أن تطلق ليعم أيضاً .

والذى يظهر رجحانه والله تعالى أعلم : أنها في عموم القيامة وليس
في خصوص النار ، فالنار من أهوال ودواهي القيامة ، وهو ما يشهد
له القرآن في هذا السياق من عدة وجوه ، ومنها : أنه جاء بعدها
قوله : (وجوه يومئذ) ويوم أنسب للقيامة منه للنار .

ومنها : التصريح بعد ذلك ، بأن كانت تلك صفاتهم تصلى

ناراً حامية ، مما يدل على أن الفاشية شيء آخر سوى النار الحامية .

ومنها : أن التعميم ليوم القيامة يشمل جميع الخلائق ، وهو الأنسب بالموقف ، ثم ينجى الله الذين اتقوا .

وقد بين تعالى قسم هذا الصنف ، مما يدل على أن الحديث المراد إلغاؤه ، إنما هو عن حالة عموم الموقف .

قوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) الآيات.

اتفقوا على أن يومئذ ، يعنى يوم القيامة .

وقال أبو حيان : والتنوين فيه تنوين عوض . وهو تنوين عوض عن جملة ، ولم تقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً عنها ، لكن لما تقدم لفظ الفاشية .

وأل موصولة باسم الفاعل ، فتفصل للتي غشيت أى للداهية التي غشيت ، فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحلت لفظ الفاشية إليها ، وإلى الموصول الذي هو التي ، وهذا مما يرجح ويؤيد ما قدمناه ، من أن الفاشية هي القيامة . وجوه يومئذ خاشعة ، بمعنى ذليلة .

قال أبو السعود : هذا وما بعده وقع جواباً عن سؤال ، نشأ من

الاستفهام التشويقي المتقدم ، كأنه قيل من جانبه صلى الله عليه وسلم
« ما أتاني حديثها ، فأخبره الله تعالى . فقال : وجوه » . إلخ .

قال : ولا بأس بتفكيرها لأنها في موقع التنويع ، أى سوغ الابتداء
بالسكرة كونها في موقع التنويع : وجوه كذا ، وجوه كذا .

وخاشعة : خبر المبتدأ ، أى وما بعده من صفاتهم .

وقوله (عاملة ناصبة) العمل معروف ، والنصب : التعب ، وقد
اختلف في زمن العمل والنصب هذين ، هل هو كان منها في الدنيا أم
هو واقع منهم فعلا في الآخرة ، وما هو على كلا التقديرين : فالذين
قالوا : هو كان منهم في الدنيا ، منهم من قال : عمل ونصب في العبادات
الفاسدة كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين ، فلم ينفعهم
يوم القيامة ، أى كما في قوله (وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه
هباء منثورا) .

ومنهم من قال : عمل ونصب والتذ ، فيما لا يرضى الله ، فعامله
الله بنقيض قصده في الآخرة ، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر ، لأن
من هذه حالهم لا يعدون في عمل ونصب بل في متعة ولذة .

والذين قالوا : سيقع منهم بالفعل يوم القيامة ، انفقوا على أنه عمل
ونصب في النار من جر السلاسل ، عياذاً بالله . وصمودهم وهبوطهم الوهاد

والوديان ، أى كافي قوله (سأرهقه صعودا) ، وقوله (ومن يعرض
عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) .

وقد ذكر الفخر الرازى تقسيما ثلاثيا ، فقال : إما أن يكون ذلك
كله فى الدنيا أو كله فى الآخرة ، أو بعضه فى الدنيا وبعضه فى الآخرة ،
ولم يرجح قسما منها إلا أن وجه القول بأنها فى الدنيا وهى فى القيسين ،
ونحوهم . فقال : لما نصبوا فى عبادة إله وصفوه بما ليس متصفا به ، وإنما
تخيّلوه تخيلا أى بقولهم ثلاث ثلاثة وقولهم : (عزيز ابن الله) فكانت
عبادتهم لتلك الذات المتخيّلة لا لحقيقة الإله سبحانه .

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه : إن من كان ممن لا ينطق
بالشهادتين ويعمل على جهالة فيما لا يعذر بحمله أن يخشى عليه من هذه
الآية ، كما يخشى على من يعمل على علم ، ولكن فى بدعة وضلالة .

ومما يشهد للأول حديث المسىء صلواته ولأثر حذيفة « رأى رجلا
يصلّى فطابق فقال له : منذ كم تصلّى هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين سنة .
قال له : ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت على ذلك ، مت على غير
فطرة محمد صلى الله عليه وسلم » .

والأحاديث الواردة فى ذلك على سبيل العمومات مثل قوله صلى الله
عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرى فهو رد » أى مردود .

وحديث الحوض « فيزداد أقوام عن حوضي ، فأقول : أمتي أمتي ،
فيقال : إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك إنهم غيروا وبدلوا » .

ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل وموافقته لما جاء به
النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القسم الثاني كما في قوله : (قل هل أنبئكم بالأخسرين
أعمالا الذين ضل سعيهم) الآية .

أما الراجح من القولين في زمن عاملة ناصبة أهو في الدنيا أم في
الآخرة ؟ فإنه القول بيوم القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس وجماعة .
والأدلة على ذلك من نفس السياق .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد جداً في هذا الترجيح ، ولم
أقف على قول لغيره أقوى منه ، نسوق مجمله للفائدة :

قال في المجموع في تفسير هذه السورة بعد حكاية القولين : الحق
هو الثاني لوجوه ، وساق سبعة وجوه :

الأول : أنه على القول الثاني يتعلق الظرف بما يليه ، أي وجوه يوم
الغاشية ، خاشعة عاملة ناصبة صالية .

أما على القول الأول فلا يتعلق إلا بقوله : تصلى . ويكون قوله :

خاشعة صفة للوجوه ، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى . والتقدير : وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى ناراً حامية . والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، والتقديم والتأخير ، إنما يكون مع قرينة .

والثاني : أن الله ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة بعد ذلك (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية في جنة عالية) أى في ذلك اليوم ، وهو يوم الآخرة : فالواجب تناظر القسمين أى في الظرف.

الثالث : أن نظير هذين القسمين ما ذكر في موضع آخر في قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) ، وفي موضع آخر في قوله (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) وهذا كله وصف للوجوه في الآخرة .

الرابع : أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب في القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله : (سيام في وجوههم) وقوله : (فلعرقتهم سيام) ، وهذا الوجه لم يتضح دلالة على المقصود .

الخامس : أن قوله : خاشعة عاملة ناصبة ، لو جعل صفة لهم .
(١٣ - أضواء البيان ٩ ج)

في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم ، فإن هذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقيل : خاشعة للأوثان مثلاً ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن ، وهذا الوجه من أقواها في المعنى وأوضحها دلالة .

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام للفرورون بغيرهم ، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم ، كما في قوله تعالى : (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) .

السادس : وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم في الدنيا مكان خاصاً ببعض الكفار دون بعض ، وكان مختصاً بالعباد منهم ، مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملاً ويستوجبون أشد عقوبة .

السابع : أن هذا الخطاب لو جعل لهم في الدنيا مكان مثله ينفر من أصل العبادة والتفكير ابتداءً ، أي وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع والمتنسكين دون التعرض لهم بقتل ولا قتال ، كما أنها

أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم ، مما يشعر باحترام أصل التعمد لعموم الجنس ، كما أشار رحمة الله تعالى عليه .

وقد أوردنا مجمل كلامه رحمه الله ، لئلا تتخذ الآية على غير ما هو الراجح فيها ، أو يحمل السياق على غير ما سبق له ، وقد ختم كلامه بتوجيه لطيف بقوله : ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة ، وليس في الخطاب تقييد ، كان هذا سعيًا في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه . ٥١ .

ومن الذى يعطى نفسه حق إصلاح الخطاب فى كلام رب العالمين ، إنها لفئة إلى ضرورة ومدى أهمية تفسير القرآن بالقرآن ، الذى نهجه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن .

وقد بدا لى وجه آخر ، وهولو جعل هذا العمل الكفار والمبتدعة ، لكان منطوقه أن العذاب وقع عليهم مجازاة على عملهم ونصبهم فى عبادتهم تلك ، والحال أن عذاب الكفار عموماً إنما هو على ترك العمل لله وحده ، وعقاب المبتدعة فيما ابتدعوه من ضلال ، فإذا كان ما ابتدعوه لاعلاقة له بأركان الإسلام ولا بالعقيدة ، وإنما هو فى فروع من العبادات ابتدعوها لم تكن فى السنة ، فإنهم وإن عملوا ونصبوا فلا أجر لهم فيها ،

ولا يقال : إنهم يعذبون عليها بطل ذلك المذكور مع سلامة العقيدة في التوحيد ، والقيام بالواجب في أركان الإسلام ، إذ العذاب المذكور ليس مقابلا بالعمل والنصيب المذكور ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ نَّارِيَةٍ ﴾ :

قيل : حاضرة ، وقيل : شديدة الحرارة ، وهذا الأخير هو ما يشهد له القرآن في قوله تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، ومعلوم أن الحميم شديد الحرارة ، كما أن حملها على معنى حاضرة لم يكن فيه بيان معنى ما في تلك العين من أنواع الشراب المعد والحضر لهم ، وفي المعجم حميم آن : قد انتهى حره ، والفعل : أنى الماء المسخن يأنى بكسر النون . قال عباس :

علانيه والخليل يغشى متونها حميم وأن من دم الجوف ناعم

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .

تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الجمع بينه وبين قوله تعالى : (فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) ، وبين الصحيح من معنى الضريع ماهو ، وأنه ثبت معروف للعرب ، وهو على الحقيقة لا المجاز

وقد أورد الفخر الرازى سؤالاً والجواب عليه ، وهو كيف ينبت الضريع فى النار ؟ فأجاب بالإحالة على تصور كيف يبقى جسم الكفار حياً فى النار ، وكذلك الحيات والعقارب فى النار .

وهذا وإن كان وجيهاً من حيث منطق القدرة ، ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوم ، وأنها فتنة للظالمين فى قوله : (أذلك خير نزلأ أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه ردوس الشياطين فإنهم لا يكون منها فمالؤن منها البطون) فأثبت شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، وأثبت لها لازمها وهو طلعها فى تلك الصورة البشعة ، وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون .

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثاره المبطلون ، ولكن غاية ما فى الأمر سلب خاصية الإحراق فى النار عن النبات ، وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية .

وقد وجد نظيره فى الدنيا فقلك نار النروذ ، كانت تحرق الطير فى الجو إذا اقترب منها . وعجزوا عن الدنو إليها ليلقوا فيها إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق ورموه من بعيد ، ومع ذلك حفظه الله منها بقوله

تعالى لها : (كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ وَجُودُهُ يَوْمَ يَذْنُوعًا ، لَسَمِيحًا رَاضِيَةً ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ۖ ﴾ .

وهذا هو قسيم القسم الأول في بيان حال أهل الجنة ، ولم يعطف بالواو لإيداننا بكمال تباين مضمونيهما . ويومئذ : هو يوم الغاشية المتقدم ، وهذا يقتضى أن الغاشية عامة في الفريقين . وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس ، وعليه فمنهم من تغشاه بهولها ، ومنهم من تغشاه بنعيمها . وهى بالنسبة لكل منهما مقناهية فيما تغشاهم به ، وهى صادقة على الفريقين .

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر ، بمعنى الشمول والإحاطة التامة . ومن إطلاقها على الخير ما جاء في الحديث : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى فيه إلا حَفَّتْهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم .

وبيان ذلك وتحقيقه في حق كلا القسمين كالآتى :

أما الأول منهما: وهو الفاشية في حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حساً ومعنى ظاهراً وباطناً أولاً خشوع في ذلة ، وهي ناحية نفسية ، وهي أقل أحياناً من الناحية المادية ، فقد يختار بعض الناس الموت عنها ، ثم مع الذلة العمل والنصب حساً وبدناً ، ومع النصب الشديد تصلى ناراً حامية ، وكان يكفي تصلى ناراً . ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة في إبراز عذابهم وزيادة في غشيان العذاب لهم ، ثم يسقون من عين آنية مقناهية في الحرارة فيكونون بين نار حامية من الخارج وحميم من الداخل تصهر منه البطون ، فهو أتم في الشمول للفاشية لهم من جميع الوجوه ، وفي حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالاتى ، وجوه ناعمة مكتملة النعمة ، تعرف في وجوههم نضرة الغعيم .

وهذا في شموله من الناحية المعنوية كمقابله في القسم الأول بدلا من خاشعة في ذلة ناعمة في نضرة لسميها راضية الذى سمعته في الدنيا ، والذي تسعى لتحصيله أو ثوابه في لجنة عالية بدلا من عمل ونصب ، لا تسمع فيها لاغية : منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها ، فهو إكرام لهم حتى في الكلمة التى يسمعونها ، كما في قوله : (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً) . فيها دين جارية . ومعلوم أنها عيور وأنهار تجرى ، كقوله : (في

جفات وعيون) ، ومن لوازم العيون والأنهار ، هو كمال النعيم ، فأشجار ورياحين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الحميم للقسم الأول ، فيها سرر مرفوعة وهم عليها متكون بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء . وأكواب موضوعة لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية . وتمازق مصفوفة متكأ وزرابى مبثوثة مفروشة في كل مكان ، فاكتمل النعيم من كل جانب ، حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره .

فيكون بذلك قد غشيتهم النعمة ، كما غشيت أولئك النعمة . وتكون الفاشية بمعنى الشاملة ، وعلى عمومها للفريقية ، وهي صالحة لغة وشرعاً للمعذبين بالعذاب ، وللمنعمين بالنعيم . وبالله تعالى التوفيق .

تتبيه

مجيء فيها مرتين : فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة . للدلالة على قسمي نعيم الجنة . الأول : عيون ونزهة . والثاني : سرر وسكن .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .

توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة ، لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث وشم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه .

أما الإبل فلعلمها أقرب المعلومات للعرب وألصقتها بحياتهم في مطعمهم من لحمها ومشربهم من ألبانها، وملبسهم من أوبرها وجلودها ، وفي حلمهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد في غيرها في العالم كله لا في الخيل ولا في الغيلة ، ولا في أى حيوان آخر ، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها في معرض امتنانه تعالى عليهم في قوله : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) .

وكذلك في خصوصها في قوله : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم) .

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد في سواها البتة ، وكل منها دليل على القدرة بذاته . أما الجبال فهي مما يملأ عيونهم في كل وقت ويشغل تفكيرهم في كل حين ، لقرها من حياتهم في الأمطار والرعى في سهولها ، والمقيل في كهوفها وظلها ، والرغبة والعظمة في تطاولها وثباتها

في مكائها . وقد وجه الأنظار إليها أيضاً في موطن آخر في قوله تعالى :
 (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) ثوابت ، كما بين تعالى أنها :
 رواسى للأرض أن تميمد بكم والجبال أرساها مقاعاً لكم ولأنعامكم .
 فهي مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا .

أما السماء ورفعها أى ورفعتها في خلقها وبدون عمد ترونها وبدون
 قطور أو تشقق على تطاول زمنها ، فهي أيضاً محط أنظارهم ، وملتقى
 طلباتهم في سقيا أنعامهم .

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث ، كما
 تقدم مرار .

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى : (إن في خلق السموات والأرض)
 الآية . بيان كونها آية . أما الأرض وكيف سطحت ، فإن الآية
 فيها مع عمومها كما في قوله : (نخلق السماوات والأرض أكبر من
 خلق الناس) .

وقوله : (كيف سطحت) آية ثابتة ، لأن جرمها مع إجماع
 المفسرين على تكويرها ، فإنها ترى مسطحة أى من النقطة التي هي
 في امتداد البصر ، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها ، لأن الجرم
 المتكور إذا بلغ من الكبر والاضخامة حداً بعيداً يكاد سطحه يرى
 مسطحاً من نقطة النظر إليه ، وفي كل ذلك آيات متعددة للدلالة على

قدرته تعالى على بعث الخلائق ، وعلى إيقاع ما يغشاهم على مختلف أحوالهم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعلمه التنبيه على هذا المعنى ، عند الكلام على قوله تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) الآية . من سورة يونس .

تنبيه

التوجيه هنا بالنظر إلى السكيفية في خلق الإبل ونصب الجبال ، ورفع السماء ، وتسطيح الأرض ، مع أن السكيف للحالة ، والله تعالى لم يشهد أحداً على شيء من ذلك كله (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى السكيفية وهي شيء لم يشهدوه .

والجواب والله تعالى أعلم : هو أنه بالتأمل في نتائج خلق الإبل ، ونصب الجبال إلخ . وإن لم يعلموا السكيف ، بل ويعجزون عن كنهه وتحقيقه ، فهو أبلغ في إقامة الدلائل عليهم ، كن يقف أمام صنعة بديعة يحهل سر صنعها ، فينساءل كيف تم صنعها ؟ وقد وقع مثل ذلك وهو الإحالة على الأثر بدلا من كشف الكنه والسكيف ، وذلك في سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيي الموتى . فكان الجواب : أن أراه الطيور تطير ، بعد أن ذبحها بيده وقطعها ، وجعل على كل جبل منها جزءاً . فلم يشاهد كيفية وكنهه ، وحقيقة الإحياء ،

وهو ديب الروح فيها وعودة الحياة إليها . لأن ذلك ليس في استطاعته، ولكن شاهد الآثار المترتبة على ذلك، وهي تحركها وطيرانها وعودتها إلى ما كانت عليه قبل ذبحها . مع أنه كان للعزير موقف مماثل وإن كان أوضح في البيان حيث شاهد العظام وهو سبحانه ينشزها ، ثم يكسوها لحما . والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى بعد ذلك (فذكر إنما أنت مذكر) فإن مجيء هذا الأمر بالفاء في هذا الموطن ، فإنه يشعر بأن النظر الدقيق والفكر الدارس ، مما قد يؤدي بصاحبه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى قدرته ، كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة في خطبته المشهورة : ليل داج، ونهار ساج ، وسما ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساه ، وأرض مدحاه ، وأنهار مجراه . فقد ذكر السماء والجبال والأرض .

وكقول زيد بن عمرو بن نفيل ، مؤمن الجاهلية المعروف :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرها ثقلا

دحاها فلما استوت شدها سواء وأرسي عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

إذا هي سبقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجلا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الريح تصرف حالا فخالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل ، فيما يحيط بهم

عامة . وفي تلك الآيات الكبار خاصة ، فيجدون فيها مايكفيهم .
كما قيل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم . فذكرهم إنما أنت
مذكر . وهذا عام ، أى سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات
أو بالتلاوة من آيات الوحي . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتُهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع .

قال عبيد :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

كما فى قوله : (إليه مرجعكم جميعاً فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون)
وهو على الحقيقة كما فى صريح منطوق قوله تعالى : (ثم إلى مرجعكم
فأحكم بينكم) الآية .

وقوله : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون) .

وقوله : (ثم إن علينا حسابهم) الإتيان بثم للاشعار ما بين إيابهم
وبدء حسابهم ، (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) .

وقوله : (إن علينا) بتقديم حرف التأكيد ، وإسناد ذلك لله تعالى ،

وبحرف على مما يؤكد ذلك لاحالة ، وأنه بأدق ما يكون ، وعلى الصغيرة والكبيرة كما في قوله : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) .

ومن الواضح مجيء (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) بعد قوله تعالى : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا ، ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصاً بهؤلاء ، بل هو عام بجميع الخلائق . ولكن إسناده لله تعالى مما يدل على الممانى المتقدمة .

نسأل الله العفو والسلامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

اختلف في المراد بالفجر ، فقيل : انفجار النهار من ظلمة الليل .
وقيل : صلاة الفجر .

وكلا القولين له شاهد من القرآن . أما انفجار النهار ، فكما في قوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) .

وأما صلاة الفجر فكما في قوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) ، ولكن في السياق ما يقرب القول الأول ، إذ هو في الأيام والليالي الفجر وليال عشر ، الليل إذا يسرى ، وكلها آيات زمنية أنسب لها انفجار النهار .

بقى بعد ذلك اختلافهم في أى الفجر عنى هنا ، فقيل بالعموم في كل يوم ، وقيل : بالخصوص . والأول قول ابن عباس وابن الزبير وعلى رضى الله عنهم .

وعلى الثانى فقيل : خصوص الفجر يوم النحر . وقيل : أول يوم الحرم ، وليس هناك نص يعول عليه . إلا أن فجر يوم الفجر أقرب إلى الليالى العشر ، إن قلنا : هى عشر ذى الحجة على ما يأتى إن شاء الله .
(١٤ - أضواء البيان ج ٩)

أما الليالي العشر فأقوال المفسرين محصورة في عشر ذى الحجة ، وعشر المحرم والعشر الآخر من رمضان . والأول جاء عن مسروق أنها العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام وأتممتها بعشر ، وكلها الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس . وليس في القرآن نص بعينها .

وفي السفة بيان فضيلة عشر ذى الحجة وعشر رمضان كما هو معلوم ، فإن جمل الفجر خاصا بيوم النحر ، كان عشر ذى الحجة أقرب للسياق . والله تعالى أعلم .

والشفع والوتر : ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولاً ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلاً .

أما جملة فقالوا : إنما الوتر هو الله ، للحديث : « إن الله وتر يحب الوتر » ، وما سواه شفع ، كما في قوله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) ، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق ، كما في عموم (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) .

أما التفصيل فقالوا : المخلوقات إما شفع كالحیوانات أزواجاً ، والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء . وهكذا ذكروا لكل شيء مقابلة ، ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة .

والواقع أن أقرب الأقوال عندي والله أعلم : أنه هو الأول لأنه

ثبت علمياً أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة .

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواة ومحيط ، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر ، حتى في أدق عالم الصناعة كالكهرباء ، فإنها من سالب وموجب ، وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أى جهاز كان ، حتى الماء الذى كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين ، أكسجين وهيدروجين ، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أى الغليان ، ويتآكلان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء . وهكذا .

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب ، فلم يبق في الكون شيء قط فرداً وتراً بذاته ، إلا مانص عليه الحديث « إن الله وتر يحب الوتر » ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغنى بذاته عن غيره ، والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت . إلخ . بخلاف المخلوق ، وقلنا : المستغنى بذاته عن غيره ، لأن كل مخلوق شفعاً ، فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثانى ، ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك . ولهذا كان القول الأول ، وهو أن الوتر هو الله ، والشفع هو المخلوقات جميعها ، هو القول الراجح ، وهو الأعم في المعنى .

قوله : (والليل إذا يسر) اتفق المفسرون على المعنى وهو سريان الليل ، ولكن الخلاف فى التعمين هل المراد به عموم الليالى فى كل ليلة أم ليلة معينة ، وما هى ؟

فقيل : بالعموم كقوله : (والليل إذا عسعس) .

وقيل : بالخصوص فى ليلة مزدلفة أو ليلة القدر .

وأيضاً يقال : إذا كان الفجر فجر النحر ، والعشر عشر ذى الحجة فيكون (والليل إذا يسر) ليلة الجمع . والله تعالى أعلم .

وقد رجح القرطبي وغيره عموم الليل ، وقد جمع فى هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلاً ، فشملت الخالق والمخلوق والشفع والوتر إجمالاً وتفصيلاً ، فى انفجار الفجر وانتشار الخلق وسريان الليل وسكون الكون ، والعبادات فى الليالى العشر .

فكان من أعظم ما أقسم الله به قوله تعالى : (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى عقل ، والحجر كل مادته تدور على الإحكام والقوة ، فالحجر لقوته ، والحجرة لإحكام ما فيها ، والعقل سمي حجراً بكسر الحاء . لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق ، والحجور عليه لمنعه من تصرفه وإحكام أمره ، وحجر المرأة لطفلها ، فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كافٍ لذى عقل ، والجواب : بلى ، وهذا ما يقوى هذا القسم بلا شك .

ثم اختلف في جواب هذا القسم حيث لم يصرح تعالى به ، كما صرح به في نظيره ، وهو قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإِنَّه لقسم لو تعلمون عظيم) .

ثم صرح بالمقسم عليه (إِنَّه لقرآن كريم) الآية . وهنا لم يصرح به مع عظم القسم فوقع الخلاف في تعيينه .

فمبطل : هو مقدر تقديره ليعذب من يدل له قوله (ألم تر كيف فعل ربك بعاد — إلى قوله — فصب عليهم ربك سوط عذاب) .

وقيل : موجود وهو قوله : (إن ربك لبالمرصاد) قاله القرطبي . وهذا من حيث الصناعة في اللغة وأساليب التفسير وجيه ، ولكن يوجد في نظري والله تعالى أعلم : ارتباط بين القسم وجوابه وبيننا يحىء في آخر السورة من قوله : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) إلى آخر السورة .

كما أنه يظهر ارتباط كبير بينه وبين آخر السورة التي قبلها ، إذ جاء فيها (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) ، (والفجر وليال عشر — إلى قوله — هل في ذلك قسم لذي حجر) ، لأن ما فيه من الوعيد بالعذاب الأكبر والقصر في إيجابهم إلى الله وحده وحسابهم عليه فحسب يتناسب معه هذا القسم العظيم .

أما ارتباطه بما في آخر السورة ، فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات (والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر) والذي في آخر السورة أيضاً خمس مسميات : **دَكَ الْأَرْضَ دَكًّا دَكًّا** ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وحى يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى .

صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول الففخ في الصور ، ودك الأرض إلى نهاية الحساب ، وتذكر كل إنسان ماله وما عليه ، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

لم يبين هنا ماذا ولا كيف فعل ، بمن ذكروا ، وهم عاد و ثمود وفرعون .

وقد تقدم ذكر ثلاثتهم في سورة الحاقة عند قوله تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم - إلى قوله - فأخذهم أخذة رابية) .

والجدید هنا : هو وصف كل من عاد من أنها ذات العماذ ، ولم يخلق

مثلها في البلاد ، وتمود أنهم جابوا الصخر بالواد ، وفرعون أنه ذو أوتاد .

وقد اختلف في المعنى بهذه الصفات كلها .

أما عاد ، فقيل : العماد عماد بيوت الشعر ، والمراد بها القبيلة . وطول عماد بيوتها : كفاية عن طول أحسامهم ، كما قيل في صخر :

* رفيع العماد طويل النجاد *

وطول الأجسام يدل على قوة أصحابها .

وقيل : إرم : كانت مدينة رفيعة البنيان ، وذكروا في أخبارها قصصاً تفوق الخيال ، وأنها في الربع الخالي ، ولكن حيث لم تثبت أخبارها بسند يعول عليه ، ولم يصدقه الواقع ، فقال قوم : قد خسف بها ولم تعد موجودة .

أما تمود : فقد جابوا ، أى نحتوا الصخر بالواد ، بواد القرى في مدائن صالح ، وهى بيوتهم موجودة حتى الآن .

وأما فرعون ذو الأوتاد ، فقيل : هى أوتاد الخيام ، كان يتدها لمن يعذبهم .

وقيل : هى كفاية عن الجنود بثبت بها ملكه .

وقيل : هى أكتات وأسوار مرنفات ، يلعب له فى مراتبها .

قال ابن جرير مانصه : حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة « وفرعون ذى الأوتاد ، ذكر لنا أنها كانت مطال ، وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وجبال »

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا القول هو الصحيح ، وأنها مرتفعة ، وأنها هى المعروفة الآن بالأهرام بمصر ، ويرجع ذلك عدة أمور :

منها : أنها تشبه الأوتاد فى منظرها طرفه إلى أعلا ، إذ القمة شبه الود ، مديبة بالنسبة لضخامتها ، فهى بشكل مثلث ، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا .

ومنها : ذكره مع نمود الذين جابوا الصخر بالواد ، بجامع مظاهر القوة ، فأولئك نحتوا الصخر بيوتاً فارهين ، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لاجبال حوله ، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد . والحال أنها قطع كبار صخرات عظام فى اقتطاعها وفى نقلها إلى محل بنائها ، وفى نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت ، وتسخير العباد فى ذلك .

ومنها : أن خملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة فى كل زمان ولكل جيل ، أوقع فى للعظة والاعتبار ، بأن من أهلك تلك الأمم ، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم .

وصدق الله العظيم : (إن ربك لبالمرصاد) .

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ، كَلَّا ﴾

بين تعالى أنه يعطى ويمسك ابتلاء للعبد .

وقوله تعالى : كلاً ، وهى كلمة زجر وردع ، وبيان أن المعنى لا كما قلتم فيه تعديل لمفاهيم الكفار ، بأن العطاء والمنع لا عن إكرام ولا لإهانة ، ولكنه ابتلاء كما فى قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقوله : (اعملوا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَشْكُرُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ الْثَرَثَ أَكْلًا لَمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم فى العطاء والمنع ، جاء فى هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجاباً وسلباً جمعاً وبذلاً ، فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم ، مهيبض الجناح ، مكسور الخاطر ، والتقماع عن إطعام المسكين ، خالى اليد جائع البطن ، ساكن الحركة ،

وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المال وهم يمسون عنها ، وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة ، فى قوله تعالى فى سورة البلد (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة) ومن الجانب الآخر (وتأكلون التراث أكلًا لما) أى الميراث ، فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية ، أحوج إلى مال مورثهن ، وتحبون المال حبًا حتى استعبدكم وألهاكم التمسكار فيه .

وهنا لفت نظر للفرقيين ، فمن أعطى منهم لا ينبغى له أن يغفل طرق البذل الهامة ، ومن منع لا ينبغى له أن يستشرف إلى ما لا ينبغى له ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . ﴾

تقدم فى سورة الحاقة أيضًا هذا السياق نفسه ، بعد ذكر نوح و عاد وفرعون فى قوله (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة - إلى قوله - والملاك على أرجائها) الآية . مما يبين معنى صفًا صفًا ، أى على أرجائها صفًا بعد صف .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على ما يفسرها

في سورة الرحمن على قوله تعالى : (إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفِذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) . وقوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) وجاء ربك : من آيات الصفات .

مواضع البحث والنظر

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مراراً في الأضواء في عدة محلات ، وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور في قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ، والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) سواء .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث آيات الصفات كاملة في محاضرة أسماها « آيات الصفات » وطبعت مستقلة .

كما تقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأعراف عند قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) وَإِنْ كَانَ لم يعرض لصفة الحمى بذاتها ، إلا أنه قال : إن جميع الصفات من باب واحد ، أى أنها ثابتة لله تعالى على مبدأ ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، على غير مثال للمخلوق ، فثبت استواء يليق بجلاله على غير مثال للمخلوق .

وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت حمى . وكما ثبت مجيء ثبت نزول . والكل من باب ليس كمثل شيء ، أى على ما قال الشافعي رحمه الله :

نحن كلفنا بالإيمان ، فعلمينا أن نؤمن بصفات الله على ما يليق بالله على مراد الله ، وليس علينا أن نكيف ، إذ الكيف ممنوع على الله سبحانه .

قوله تعالى ﴿يَوْمَ ذِئْبٌ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآنِىْ لَهُ أَلَدٌ كَرِىْ﴾

قد بين تعالى موضوع تذكّر الإنسان ، وهو قوله : (يقول باليتنى قدمت لحياتى) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة الفرقان عند قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَلَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه اللام ، وهل هي لنفي القسم أو لتأكيد ،
وذلك عند قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) إلا أنها هنا ليست
لنفي ، لأن الله تعالى قد أقسم بهذا البلد في موضع آخر ، وهو في
قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين) ،
لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعاً لقوله تعالى بعده : (وأنت - أي
الرسول صلى الله عليه وسلم - حل) أي حال أو حلال (بهذا البلد) ، أي
مكة ، على ماسياتي إن شاء الله .

وقد ذكر القرطبي وغيره نظائرها من القرآن ، والشعر العربي مما
لا يدل على نفي ، كقوله تعالى : (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) مع
أن المراد مامنعك من السجود ، وكقول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صباية وكاد صميم القلب لا يتقطع

أي وكاد صميم القلب يتقطع .

وقد بحثها الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بحثاً مطولاً في دفع
إيهام الاضطراب .

وقوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد) حل : بمعنى حال ،
والفعل المضعف يأتي مضارعه من باب ، نصر ، وضرب ، فإن كان
متعديا كان من باب نصر .

تقول : حل المعقدة يحملها بالضم ، وتقول : حل بالمكان يحمل
بالكسر إذا أقام فيه ، والإحلال دون الإحرام .

وقد اختلف في المراد بحل هل هو من الإحلال بالمكان ، أو
هو من التحلل ضد الإحرام ؟

فأكثر المفسرين أنه من الإحلال ضد الإحرام ، واختلفوا في
المراد بالإحلال هذا .

ف قيل : هو إحلال مكة له في عام الفتح ، ولم تحل لأحد قبله
ولا بعده .

وقيل : حل : أى حلال له ما يفعل بمكة غير آثم ، بينما هم
آثمون بفعلهم .

وقيل : حل : أى أن المشركين معظومون هذا البلد وحرمة في
نفوسهم ، ولكنهم مستحلون لإيذاءك وإخراجك .

وذكر أبو حيان : أنه من الحلول والبقاء والسكن ، أى وأنت
حال بها . ا هـ .

وعلى الأول يكون إخباراً عن المستقبل ووعداً بالفتح ، وأنها تحمل له بعد أن كانت حراماً ، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له ، وأن الله عالم بما يفعلون به . وسينصره عليهم .

وعلى الثاني : يكمن تأكيداً لشرف مكة ، إذ هي أولاً فيها بيت الله وهو شرف عظيم ، ثم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حالاً فيها بين أهلها .

والله يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا الثاني هو الراجح ، وإن كان أقل قائلًا ، وذلك لقرئتي من نفس السورة ومن غيرها من القرآن الكريم.

منها : أن حلوله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد له شأن عظيم فعلاً ، وأهمه أن الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم ، كما في قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فسكانه تعالى يقول : وهذا البلد الأمين من العذاب ، وهؤلاء الآمنون من العذاب بفضل وجودك فيهم .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم بحلوله فيها بين أظهرهم ، يلاقى من المشاق ويصبر عليها .

وفيه أروع المثل للصبر على المشاق في الدعوة ، فقد آذوه كل الإيذاء حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلى عند الكعبة ، وهو يصبر (١٠ - أضواء البيان ج ٩)

عليهم ، وآذوه في عودته من الطائف ، وجاءه ملك الجبال نصرة له ، فأبى وصبر ودعا لهم ، ومنعوه الدخول إلى بلده مسقط رأسه فصبر ، ولم يدع عليهم ، ورضى الدخول في جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب لقوله بعده (لقد خلقنا الإنسان في كبد) ، وهذا من أعظمه .

فإذا كان كل إنسان يكابد في حياته ، أياً كان هو ، ولأى غرض كان ، فكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام ، حتى يقسم بها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ .

قيل : الوالد هو آدم ، وما ولد ، قيل : ما نافية . وقيل : مصدريّة .

فعلى أنها نافية : أى وكل عظيم لم يولد له .

وعلى المصدريّة : أى بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس ، وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل ونمو الجنين وتفصيله وتخليقه وتسهيل ولادته .

وقيل : ووالد وما ولد : كل والد مولود من حيوان وإنسان .

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم ، وما ولد ذريته ،

يأتىه المناسب مع هذا البلد لأنها أم القرى ، وهو أبو البشر ،
حكاه أفسم بأصول الموجودات وفروعها .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .

تقدم بيانه عند قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدَحًا فَلَا فِئْءَ) .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا . أَيْحَسِبُ أَنَّ لَمُ يَرَهُ
أَحَدٌ ﴾ .

لم يبين أيراه أحد؟ ومن الذى يراه ؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ، ولكن جاء الجواب مقروناً
بالدليل والإحصاء فى قوله تعالى بعده (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) لأن من جعل الانسان عَيْنَيْنِ يبعثر
بهما ويعلم منه خائنة الأعين ، ولساناً ينطق به ويحصى عليه ما يلفظ
من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وهداه الطريق ، طريق البذل وطريق
الإمساك ، وإذا كان الأمر كذلك فلن ينفق درهما إلا وهو سبحانه
يعلمه ويراه .

قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

النجد : الطريق ، وهو كما تقدم فى سورة الإنسان بعد تفصيل

خلق الإنسان (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه
 سمياً بصيراً ، إنا هديناه السبيل) أى الطريق على كلا الأمرين بدليل
 (إنا شاكرًا وإنا كفور .

وتقدم المعنى هناك ، ويأتى فى السورة بعدها عند قوله تعالى :
 (فآلمها فجورها وتقواها) زيادة إيضاح له ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ .

وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله : (وما أدراك ما العقبة) ثم
 ذكر تفصيلها .

وقد ذكر أن كل ما جاء بصيغة وما أدراك ، فقد جاء تفصيله
 بعده كقوله تعالى : (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم
 يكون الناس كالفراش المبثوث) وما بعدها .

وتقدم عند قوله تعالى : (الخاق ما الخاق) .

وفى تفسير العقبة بالذكورات ، فك الرقة ، وإطعام اليتيم والمساكين
 توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقاً لا ما يدعيه الإنسان بدون حقيقة فى
 قوله : (أملكك مالا لبدًا) .

أما فك الرقة : فإنه الإسهام فى حق الرقيق والاستغلال فى عتقها
 يعبر عنه بفك النسمة .

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية ، حيث قدم في سلم الاقتحام قتلك العقبة .

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقيق أو فك النسمة ، يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بمضو ، وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير ، وفي هذا إشعار بحقيقة موقف الإسلام من الرق ، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب .

فهاهو هنا يجعل عتق الرقبة ، سلم اقتحام العقبة ، وجعله عتقاً للمعتق من النار كل عضو بمضو . ومعلوم أن كل مسلم يسعى لذلك وجعله كفارة لكل عيّن وللظهار بين الزوجين ، وكفارة القتل الخطأ ، كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب في الوقت الذي لم يفتح للاسترقاق إلا باب واحد ، هو الأسر في القتال مع الشركيين لا غير ، وما مما سبق تنبيهها عليه رداً على المستشرقين ومن تأثر بهم ؛ في ادعائهم على الإسلام أنه ممتطش لاسترقاق الأحرار .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على قوله تعالى :
(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) في سورة الإسراء .

وقوله تعالى : (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) أى شدة وجوع .
والساغب : الجائع ؛ قال القرطبي : وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت جارا يا بن قيس لعاصم لما بت شعبانا وجارك ساغبا

أى لو كنت جاراً بحق تعنى بحق الجار ، لما حدث لجارك هذا .

وهذا القيد لحال الاطعام دليل على قوة الإيمان بالجزاء وتقديم ما عند الله على ما فى قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) ، على ما تقدم من أن الضمير فى حبه أنه للطعام ، وهذا غالب فى حالات الشدة والمسغبة .

وقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فهى أعلى منازل الفضيلة فى الإطعام .

وقوله : (يتيماً ذا مقربة) فاليتيم من حرم أبويه أو أحدها ، وقد خصوا فى اللغة يتيم الحيوان ، من فقد الأم ، وفى الطيور من فقد الأبوين ، وفى الإنسان من فقد الأب .

وذا مقربة : أى قرابة ، وخص به ، لأن الإطعام فى حقه أفضل وأولى من غيره ، وفيه الحديث « أن الصدقة على الغريب صدقة وصلته وعلى البعيد صدقة قطع » .

والأحاديث فى الإحسان إلى اليتيم متضافرة ، ويكفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين » أى السبابة والتى تليها

قوله تعالى : (أو مسكيناً ذا متربة) ، قيل : المسكين من السكون وقلة الحركة ، وللمتربة : اللصوق بالتراب .

وقد اختلف في التفريق بين المسكين والفقير أنهما أشد احتياجاً وما حد كل منهما ، فاتفقوا أولاً على أنه إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا ، وإذا ذكر أحدهما فقط ، فيشمل الثاني معه ، ويكون الحكم جامعاً لهما كما هو هنا : فالإطعام يشمل الاثنين معاً ، وإذا اجتمعا فرق بينهما بالعريف .

فالمسكين كما تقدم والفقير ، قالوا : مأخوذ من الفقرة وهي الحفرة تحفر للأنخلة ونحوها للفرس ، فكأنه نزل إلى حفرة لم يخرج منها .

وقيل : من فقار الظاهر ، وإذا أخذت فقار منها عجز عن الحركة ، فقيل : على هذا الفقير أشد حاجة ، ويرجحه ما جاء في قوله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) فسامم مساكين مع وجود سفينة لهم يتسببون عايتها للمعيشة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً » الحديث . مع قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من الفقر » ، وهذا الذي عليه الجمهور ، خلافاً لما لك .

وقد قالوا في تعريف كل منهما : للمسكين من يجد أقل ما يكفيه ،

والفقر، من لا يجد شيئاً ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿ تَمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

هذا قيد في اقتضاء العقبة ، بتلك الأعمال من عتق أو إطعام ، لأن عمل غير المؤمن لا يجعله يقتضيه العقبة يوم القيامة لإحباط عمله ولاستيفائه إياه في الدنيا ، وثم هنا للترتيب الذكري لا الزمني ، لأن الإيمان مشروط وجوده عند العمل .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان شروط قبول العمل وصحته في سورة الإسراء عند قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) ، وكقوله : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) ، وقوله : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) لأن الإيمان هو العمل الأساسي في عمل العبد على عمل الخير يبتغى به الثواب ، وخاصة الإنفاق في سبيل الله ، لأنه بذل بدون عوض عاجل .

وقد بحث العلماء موضوع عمل الكافر الذي عمله حالة كفره ثم أسلم ، هل ينفع به بعد إسلامه أم لا ؟

والراجح : أنه ينفع به ، كما ذكر القرطبي أن حكيماً بن جزام بعد ما أسلم قال : يا رسول الله إنا كنا نتحدث بأعمال في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام « أسلمت على ما أسلفت من الخير » ، وحديث عائشة قالت : « يا رسول الله إن ابن جعدان كان في الجاهلية

يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ، ويحمل على
إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : لا ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي
خطيئتي يوم الدين .

ومفهومه أنه لو قالها ، أى لو أسلم فقالها كان ينفعه ، والله
تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾

تتمة لصفاتهم ، والصبر عام على الطاعة وعن المعصية ، والرحمة زيادة
في الرحمة ، والحديث « الراجون يرحمهم الرحمن » .

وذكر الرحمة هنا يناسب مع العطف على الرقيق والمساكين واليتيم ،
والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا . وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا . وَالنَّهَارُ إِذَا
جَلَّهَا . وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا .
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا .
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . 》

في تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى سبع مرات بسبع آيات
كونية ، هي الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ،
والنفس البشرية ، مع حالة لكل مقسم به ، وذلك على شيء واحد ،
وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها ، ومع كل آية جاء
للقسم بها توجيهها إلى أثرها العظيم المشاهد للمموض ، الدال على القدرة
الباهرة .

وذلك كالآتي أولاً : (والشمس وضحاها) فالشمس وحدها آية
دالة على قدرة خالقها ، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل
تقدير ، وهي على الزمان بدون انتقاص ، فهي في ذاتها آية .

ثم جاء وصف أثرها وهو : ضحاها ، وهو انتشار ضوئها ضحوة

النهار ، وهذا وحده آية ، لأنه نتيجة لحركتها ، وحركتها آية من آيات الله كما قال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وهى الآية التى حاج بها إبراهيم عليه السلام نمرود فى قوله : (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب فبهت الذى كفر) .

فى هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية ، وضحاها : نتيجة لهذا السير ، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله ، من انتشار فى الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها .

وقد قالوا : لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينفذ منها بشيء ، لأنها تحرق باقترابها ، ويتجمد العالم من بعدها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

فالضحى وحده آية وهو حرها كقوله : (وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي) أى بحرّ الشمس ، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده فى قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى) .

وقوله : (والقمر إذا تلالما) فهو كذلك القمر وحده آية ، وكذلك تلوه للشمس ونظام مسيره بهذه الدقة ، وهذا النظام فلا يسبقها

ولا نفوته : (لا الشمس ينبغي أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) .

وفي قوله تعالى : (إذا تلاها) أى تلا الشمس ، دلالة على سير الجميع ، وأنها سابقته وهو تاليها .

ف قيل : تاليها عند أول الشهر تفرب ، ويظهر من مكان غروبها .

وقد قال بمض أهل الحياة : تاليها في منزلة الحجم ، أى كبرى وهو كبير بعدها في الحجم ، وفيه نظر .

ولا يخفى ما في القمر من فوائد للخلق ، من تخفيف ظلمة الليل ، وكذلك بعض الخصائص على الزرع ، وأهم خصائصه بيان الشهور بتقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم ، وحج ، وزكاة ، وعدد النساء ، وكفارات بصوم ، وحلول الديون ، وشروط المعاملات ، وكل ماله صلة بالحساب في عبادة أو معاملة .

وقد جاء القسم بالقمر في المدثر في قوله : (كلا والقمر والليل إذا أدبر) الآية .

وقوله : (والقمر إذا انسق) مما يدل على عظم آيته ودقيق دلالته .

وقوله : (والنهار إذا جلاها) والنهار هو أثر من آثار ضوء الشمس .

وجلاها . قيل : الضمير فيه راجع للشمس كما في الذي قبله ، ولكن اختار ابن كثير أن يكون راجعاً للأرض ، أى كشفها وأوضح كل ما فيها ليغيسر طلب المعاش والسمى ، كقوله : (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبسراً) وقوله : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً)

وقد أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى : أى ظهر ووضح بدون ضمير إلى غيره في قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) أى في مقابلة غشاوة الليل يكون بتجلى النهار .

وقد بين تعالى عظم آية النهار وعظم آية الليل ، وأنه لا يقدر على الإتيان بهما إلا الله ، كما في قوله : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تهفرون) :

وقوله : (والليل إذا يغشاها) قالوا : ينشى الشمس فينحجب

ضياؤها ، والكلام على الليل ، كالكلام على النهار ، من حيث الآية . والدلالة على قدرته تعالى .

وتقدمت النصوص الكافية وسيأتى الإقسام بالليل في قوله : (والليل إذا يغشى) أى يغشى السكون كله ، كما في قوله : (والليل وما وسق) أى جمع واشتمل بظلامه .

والضمير في يغشاها : راجع إلى الشمس ، وعليه ، قيل : إن الإقسام في هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس في حالات مختلفة ، في ضعاها ثم تجليها ، ثم تلو القمر لها ، ثم يغشيان الليل إياها ، وهنا سؤال : كيف يغشى الليل الشمس ، مع أن الليل وهو الظلمة نتيجة لغروب الشمس عن الجهة التي فيها الليل ؟

ف قيل : إن الليل يغطى ضوء الشمس ، فتتكون الظلمة ، والواقع خلاف ذلك : وهو أن الشمس ظاهرة وضوؤها منتشر ، ولكن في قسم الأرض المقابل للظلمة الموجودة ، كما أن الظلمة تكون في القسم المقابل للنهار ، وهكذا .

ولذا قال ابن كثير : إن الضمير في يغشاها وجلاها راجع إلى الأرض ، إلا أن فيه مفارقة في مرجع الضمير ، والله تعالى أعلم .

وقوله : (والسماء وما بناها) قيل : ما ، بمعنى الذى ، وجيء بها بدلا عن من ، التى لأولى العلم ، لإشعارها معنى الوصفية ، أى والسماء والقادر الذى بناها ، وكذلك ما بعدها فى الأرض ، وما طحاها ونفس ، والحكيم العليم الذى سواها ، وما مشترك بين العالم وغيره ، كقوله : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، ومثله : (فأنكحوا ما طاب لكم من النساء) .

وتقدم مرارا أحوال السماء فى بنائها ورفعها ، وجعلها سبعا طباقا ، وقد بين فى تلك النصوص كيفية بنائها ، وأنه سبحانه وتعالى بناها بقوة ، كما فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) أى بقوة ، وقوله تعالى : (والأرض وما طحاها) مثل دحاها

وقالوا : إبدال الدال طاء مشهور ، وطحا تأنى بمعنى خلق ، وبمعنى ذهب فى كل شيء ، فمن الأول :

وما تدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

ومن الثانى قول علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب يعيد الشباب عصر حان مشيب

ولا منافاة فى ذلك بأنه تعالى خلقها ومدها ، وذهب بأطرافها

بكل مذهب ، أى فى مدها .

تنبيه

قالوا : ذكر السماء وما بناها ، للدلالة على حدوثها ، وبالتالي على حدوث الشمس والقمر ، وأن تدبيرها لله .

وقوله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) قالوا : النفس تحمل كامل خلقة الإنسان بجسمه وروحه وقواه الإنسانية ، من تفكير وسلوك .. إلخ .

وقيل : النفس هنا بمعنى القوى المفكرة المدركة منـاط الرغبة والاختيار ، وعليه فذكر النفس بالمعنى الأول ، تكون تسويتها في استواء خلقتها وتركيب أعضائها ، وهي غاية في الدلالة على القدرة والكمال والعلم ، كما في قوله : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقال : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) أى من أعضاء وأجزاء وتراكيب وعدة أجهزة تبهر العقول في السمع ، وفي البصر ، وفي الشم ، وفي الذوق ، وفي الحس ، ومن داخل الجسم ما هو أعظم ، فحق أن يقسم بها .

وما سواها : أى بالقدرة الباهرة ، والعلم الشامل . وذكرها بالمعنى الثانى ، فإنه فى نظرى أعظم من المعنى الأول ، وذلك أن القوى

المدركة والفكرة والمقدرة للأمور التي لها الاختيار ، ومنها
القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع ، فإنها عالم
مستقل .

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم ، لأن الجانب الخلقى قال تعالى
فيه : (خلقي السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ولكن في
هذ الجانب قال : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال
فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً
جهولاً) .

ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق وأداها بوفاء ،
وقال رضى الله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه .

فهذه النفس في تسويتها لتلقى معاني الخير والشر ، واستقبال
الإلهام الإلهي الفجور ، والقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك
المجادات التي لا تبدى ولا تميد ، والتي لا تملك سلباً ولا إيجاباً .

وهنا مثال بسيط فيما استحدث من آلات حفظ وحساب ، كالآلة
الحاسبة والمقال الإلكتروني ، فإنها لا تخطئ كما يقولون ، وقد بهرت
المقول في صفتها ، ولكن بنظرة بسيطة نجدتها أمام النفس الإنسانية
كقطرة من بحر .

فدقول : إنها أولا من صنع هذه النفس ذات الإدراك الفاعل والاستنتاج الباهر .

ثانياً : هي لا تخطئ لأنها لا تقدر أن تخطئ ، لأن الخطأ ناشئ عن اجتهاد فكري ، وهي لا اجتهاد لها ، إنما تشير وفق مارسم لها كالمادة المسجلة في شريط ، فإن المسجل مع دقة حفظه لها فإنه لا يقدر أن يزيد ولا ينقص حرفاً واحداً .

أما الإنسان فإنه يغير ويبدل ، وعندما يبدل كلمة مكان كلمة ، فلقدترته على إيجاد الكلمة الأخرى ، أو لاختياره ترك الكلمة الأولى .

وهكذا هنا ، فالله تعالى هنا خلق تلك النفس أولاً ، ثم سوانها على حالة تقبل لتلقى الإلهام بقسميه : النجور والتقوى ، ثم تسلك أحد الطريقين ، فكان مجيء القسم بها بعد تلك المسميات دلالة على عظم ذاتها وقوة دلالتها على قدرة خالقها ، وما سواها مستعدة قابلة لتلقى إلهام الله إياها .

تنبيه

وفي مجيئها بعد الآيات الكونية ؛ من شمس وقمر وليل ونهار ،

وسماء وأرض ، لفت إلى وجوب التأمل في تلك المخلوقات ، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها والاستدلال على تغير الأزمان ، وحركة الأفلاك ، وإحداث السماء بالبناء أنه لا بد لهذا العالم من صانع ، ولا بد للمحدث المتجدد من فناء وعدم .

كما عرض إبراهيم عليه السلام على النمرود نماذج الاستدلال على الربوبية والألوهية ، فأشار إلى الشمس أولاً ، ثم إلى القمر ، ثم انتقل به إلى الله سبحانه .

وقوله : (فألمها فجورها وتقواها) إن كان ألهمها بمعنى هداها وبين لها ، فهو كما في قوله : (وهديناهم النجدين) وقوله : (إنا هديناه السبيل) ، وهذا على الهداية العامة ، التي بمعنى الدلالة والبيان .

وإن كان معنى التيسير والإلزام ، ففيه إشكال القدر في الخير الاختيار .

وقد بحث هذا المعنى الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب بجنأ وافيًا .

قوله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

هذا هو جواب القسم فيما تقدم ، فالواو قد حذفت منه اللام لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه .

وقد نوه عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) من سورة ص ، وأنهم استدلوا لهذه الآية عليه .

والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام لطول الفصل ، وزكاها بمعنى طهرها ، وأول ما يطهرها منه دنس الشرك ورجسه ، كما قال تعالى : (إنما المشركون نجس) وتطهيرها منه بالإيمان ثم من المعاصي بالتقوى ، كما في قوله تعالى : فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ثم بعمل الطاعات (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)

واختلف في مرجع الضمير في زكاها ودساها ، وهو يرجع إلى اختلافهم في (فآلهمها فجورها وتقواها) فهل يعود على الله كما في (ونفس وما سواها) أم يعود على العبد .

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص . فما يستدل به للقول الأول قوله تعالى : (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) وقوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية : « اللهم أنت نفسى تقواها وزكها ، أنت خير من زكاها ، وأنت وليها ومولاها » .

ومما استدل به للقول الثانى فكوله : (قد أفلح من تزكى

وذكر اسم ربه (فصلى) ، وقوله : (ومن تزكى فإنما يتركي لنفسه وإلى الله المصير) وقوله : (فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى) . وقوله : (وما يدريك لعله يزكى) ، وكلها كما ترى محتملة ، والإشكال فيها كالإشكال فيما قبلها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الجمع بين تلك النصوص كالجمع فى التى قبلها ، وأن ما يتركى به العبد من إيمان وعمل فى طاعة وترك لمعصية ، فإنه بفضل من الله ، كما فى قوله تعالى المصحح بذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) .

وكل النصوص التى فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى العبد ، فإنها بفضل من الله ورحمة ، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للإيمان ، فهو الذى يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح . وترك المعاصى ، كما فى قولك « لا حول ولا قوة إلا بالله » وقوله : (فلا تزكوا أنفسكم) ، وقوله : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) إنما هو بمعنى المدح والثناء ، كما فى قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) بل إن فى قوله تعالى : (بل الله يزكى من يشاء ولا يظنون فتىلا) الجمع بين الأمرين ، القدرى

والشرعى ، بل الله يزكى من يشاء بفضله ، ولا تظلمون فتيلا ببدله . والله
والله تعالى أعلم .

بقوله تعالى ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

ثمود : اسم للقبيلة أسند إليها التكذيب ، أى بنى الله صالح ،
وأشقاها هو عاقر الناقة أسند الانبعاث له وحده بين ما جاء بعده ،
(فكذبوه فعقروها) فأسند العقير لهم .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الجمع بين ذلك فى
سورة الزخرف ، ومضمونه أنهم متواطئون معه كفى قوله : (فنادوا
صاحبهم فتعاطى فعقر) فكانوا شركاء له فى عقرها ، كما قال الشاعر :
والسامع الدم شريك لقاته ومطعم المأكول شريك للأكل

وفى قصة أبى طلحة فى صيد الحمار الوحشى ، سألهم النبى صلى
الله عليه وسلم محرمون للعمرة « هل دله عليه منكم أحد ؟
قالوا : لا ، قال : هل عاوناه عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ،
قال : فاكلوا إذا » ، لأن مفهومه : لو عاونوا أو دلوا لكانوا
شركاء فى صيده ، فيحرم عليهم لقوله تعالى : (ولا تقتلوا الصيد

وأنتم حرم) وبعدم اشتراكهم حل لهم ، فلو عاونوا أو شاركوا
لحرم عليهم ، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سواء
عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فمقرها وحده ، كان هذا باسم
الجميع ، فكانت العقوبة باسم الجميع ، ويؤخذ من هذا قتل
الجماعة بالواحد ، وعقوبة الريثة مع الجاني ، والله
تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ .

يقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون ، على أنهما
يتان عظيمتان .

وتقدم الكلام عليهما في السورة قبلها عند قوله : (والنهار
إذا جلاها والليل إذا يغشاها) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هاتين
الآيتين ، عند قوله تعالى : (وجعل الليل والنهار آيتين) في سورة
بنى إسرائيل ، وذكر كل النصوص في هذا المعنى . وأثر الليل
والنهار في حياة الناس ، ومعرفة الحساب ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة ، وإيراد
كل النصوص في عدة مواضع ، أشار إليها كلها في سورة النجم عند
قوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى)
وقد قرئت بمدة قراءات منها (والذي خلق الذكر والأنثى) ، ومنها
(والذكر والأنثى) .

وذكرهما ابن كثير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخارى ومسلم ، وعلى القراءة المشهورة .

(وما خلق الذكر والأنثى) ، اختلف في لفظة « ما » قليل : إنها مصدرية ، أى وخلق الذكر والأنثى .

وقيل : بمعنى من ، أى والذى خلق الذكر والأنثى . فعلى الأول يكون القسم بصفة من صفات الله وهى صفة الخلق ، ويكون خصم الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتى .

وعلى قراءة : والذكر والأنثى . يكون القسم بالخلق كالليل والنهار ، لما فى الخلق من قدرة الخالق أيضاً ، وعلى أنها بمعنى الذى يكون القسم بالخالق سبحانه ، وتكون ما هنا مثل ما فى قوله : (والسماء وما بناها) وغاية ما فيه استعمالها وهى فى الأصل لغير أولى العلم ، إلا أنها لوحظ فيها معنى الصفة ، وهى صفة الخلق أو على ما تستعمله العرب عند القرينة ، كقوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم) وقوله : (فانكحوا ما طاب لکم من النساء) لما لوحظ فيه معنى الصفة وهو الاستمتاع ، ساغ استعمال ما بدلا عن .

وفى اختصاص خلق الذكر والأنثى فى هذا المقام لفت نظر إلى

هذه الصفة ، لما فيها من إعجاز البشر عنها ، كما في الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدرُوا على شيء في خصوصه ، كما قدمنا في السورة قبلها .

وذلك : أن أصل التذكير والتأنيث أمر فوق إدراك وقوى البشر ، وهي كالآتي أولاً في الحيوانات الثديية ، وهي ذوات الرحم تحمل وتلد ، فإنها تنتج عن طريق اتصال الذكور بالإناث .

وتذكير الجنين أو تأنيثه ليس لأبويه دخل فيه ، إنه من نطفة أمشاج ، أى خلط من ماء الأب والأم ، وجعل هذا ذكراً وذاك أنثى ، فهو هبة من الله كما في قوله : (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ويعمل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير) .

وقد ثبت علمياً أن سبب التذكير والتأنيث من جانب الرجل ، أى أن ماء المرأة صالح لهذا وذاك ، وماء الرجل هو الذى به يكون التمييز لانقسام يقع فيه ، فالمرأة لا تعدو أن تكون حرتاً ، والرجل هو الزارع ، ونوع الزرع يكون عن طريقه ، كما أشارت إليه الآية الكريمة (نساؤكم حرث لكم) ، والحرث لا يتصرف فى الزرع ، وإنما يتصرف عن طريق الحارث .

ويتم ذلك عن طريق مبدء معلوم علمياً ، وهو أن خلية القاتنج

في الأنثى دائماً وأبداً مكونة من ثمانية وأربعين جزءاً ، وهي دائماً وأبداً تنقسم إلى قسمين متساويين أربعة وعشرين ، فيلتحم قسم منها مع قسم خلية الذكر ، وخليئة الذكر سبعة وأربعون ، وإنما أبداً تنقسم أيضاً عند التلقيح إلى قسمين ، ولكن أحدها أربعة وعشرون ، والآخر ثلاثة وعشرون ، فإذا أراد الله تذكير الحمل سبق القسم الذى من ثلاثة وعشرين . فيندمج مع قسم خلية الأنثى ، وهو أربعة وعشرون ، فيكون مجموعهما سبعة وأربعين ، فيكون الذكر بإذن الله .

وإذا أراد الله تأنيث الحمل سبق القسم الذى هو أربعة وعشرون من الرجل ، فيندمج مع قسم خلية المرأة أربعة وعشرين ، فيكون من مجموعهما ثمانية وأربعون ، فتكون الأنثى بإذن الله ، وهكذا في جميع الحيوانات .

أما النباتات فإن بعض الأشجار تتميز فيه الذكور من الإناث ، كالنخل والتوت مثلاً ، وبقية الأشجار تكون الشجرة الواحدة تحمل زهرة الذكورة وزهرة الأنوثة ، فتلقح الرياح بعضها من بعض .

وقد حدثني عدة أشخاص عن غريبتين في ذلك .

إحدهما : أن نخلة موجودة حتى الآن في بعض السنين فلا

يؤخذ منه ليؤبر النخيل ، وفي بعض السنين نخلة تطلم وتثمر .

وحدثني آخر في نفس المجلس : من أنه توجد عندم شجرة نخل يكون أحد شقيها فخلا يؤخذ منه الطلع يلقح به النخل ، وشقها الآخر نخلة يتلقح من الشق الآخر لمجاورته .

كما حدثني ثالث : أن والده قطع بعض خل النخل لكثرتة في النخيل ، وبعد قطعه نبت في أصله ومن جذعه وجذوره نخلة تثمر . وكل ذلك على خلاف العادة ، ولكنه دال على قدرة الله تعالى ، وأنه خالق الذكر والأنثى .

أما عمل هذا الجهاز في الحيوانات ، بل وفي الحشرات الدقيقة ، وتكاثرها ، فهو فوق الحصر والحد .

وقد ذكروا في عالم الحشرات ، ما يلقح نفسه بنفسه ، باحتكاك بعض فخذه ببعض ، وكل ذلك مما لا يعلمه ولا يقدر على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى ، مما لو تأمله العاقل لوجد فيه كما أسلفنا القدرة الباهرة ، أعظم مما في الليل إذا يفسى وما في النهار إذا تجلى ، ولا سيما إذا صغر الكائن كالمموضة فما دونها مما لا يكاد يرى بالعين ، ومع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة . سبحانه اللهم ما أعظم شأنك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

تقدم في السورة الأولى قوله تعالى : (قد أفلح من زكاهما
وقد خاب من دساها) وكلاهما بالسمي إليه والعمل من أجله ، وهنا
مقول : إن سعيكم منها كان لشيء ، أي متباعد بعض من بعض .

والشتات : التباعد والافتراق ، وشق : جمع شئت . كمرض
ومريض ، وقتل وقتيل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

قد يجمع الله الشقيتين بعدما يظنان كل الفتن ألا تلاقيا

وهذا جواب القسم ، وفي القسم ما يشعر بالارتباط به ، كهبد
ما بين الليل والنهار ، وما بين الذكر والأنثى ، فهما مختلفان تمامًا ،
وهكذا هما مفترقان في النتائج والوسائل ، كهبد ما بين فلاح من زكاهما ،
وخيبة من دساها المتقدم في السورة قبلها .

ثم فصل هذا الشتات في التفصيل الآتي (فأما من أعطى واتقى
وصدق بالحسنى فسنيسره لیسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب
بالحسنى فسنيسره للمسرى) .

وما أمد ما بين العطاء والبخل والتصديق والتكذيب والیسرى
والمسرى ، وقد أطلق أعطى ليعم كل عطاء من ماله وجهه وجهه
حتى الكلمة الطيبة ، بل حتى طلاقة الوجه ، كما في الحديث : ولو أن
أخاك بوجه طلق .

والحسنى : قيل المجازاة على الأعمال .

وقيل : لتخلف على الإنفاق .

وقيل : لا إله إلا الله .

وقيل : الجنة .

والذى يشهد له القرآن هو الأخير لقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقالوا : الحسنى هى الجنة ، والزيادة التنظر إلى وجهه الكريم ، وهذا المعنى يشمل كل المعاني لأنها أحسن خلف لكل ما ينفق العبد ، وخير وأحسن مجازاة على أى عمل مهما كان ، ولا يتوصل إليها إلا بلا إله إلا الله .

وقوله : (فسنيسره لليسرى) وقوله : (فسنيسره للعسرى) بعد ذكر أعطى وانتفى فى الأولى . وبخل واستغنى فى الثانية .

قيل : هو دلالة على أن فعل الطاعة ييسر إلى طاعة أخرى ، وفعل للمعصية يدفع إلى معصية أخرى .

قال ابن كثير : مثل قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

ثم قال : والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، دالة على أن الله عز وجل

يمجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة . وذكر عن أبي بكر عند أحد ، وعن عليّ عند البخارى ، وعبد الله بن عمر عند أحد ، وعدد كثير روايات متعددة ، أشملها وأصحها حديث عليّ عند البخارى قال على : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى بيع الفرق فى جنازة . فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى - إلى قوله - للعسرى) » فهى من الآيات التى لها تعلق ببحث القدر .

وتقدم مراراً بحث هذه المسألة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

قال أبو حيان : جاء قوله (فسنيسره للعسرى) على سبيل المقابلة ، لأن العسرى لا تيسر فيها . ٥١ .

وهذا من حيث الأسلوب ممكن ، ولكن لا يبعد أن يكون

معنى التيسير موجوداً بالفعل ، إذ للشاهد أن من خذلهم الله - عياداً بالله - يوجد منهم إقبال وقبول وارتياح ، لما يكون أثقل وأشق ما يكون على غيرهم ، ويرون ما هم فيه سهلاً ميسراً لا غضاضة عليهم فيه ، بل وقد يستمرؤون الحرام ويستطعمونه .

كما ذكر لي شخص : أن لصاً قد كفّ عن السرقة حياءً من الناس ، وبعد أن كثر ماله وكبر سنه أعطى رجلاً دراهم ليسرق له من زرع جاره ، فذهب الرجل ودار من جهة أخرى وأثناء بتمرة من زرعه هو ، أى زرع اللص نفسه ، فلما أكلها تفلها ، وقال : ليس فيه طعمة المسروق ، فمن أين أتيت به ؟ قال : أتيت به من زرعك ، ألا تستحى من نفسك ، تسرق وعندك ما يغنيك . نفجّل وكف .

وقد جاء عن عمر نقيض ذلك تماماً ، وهو أنه لما طلب من غلامه أن يسقيه مما في شكوته من لبنه ، فلما طعمه استنكر طعمه ، فقال للغلام : من أين هذا ؟ فقال : مررت على إبل الصدقة فخلّبوالي منها ، وها هو ذا ، فوضع عمر إصبعه في فيه ، واستقاء ما شرب .

إنها حساسية الحرام استنكرها عمر ، وأحسن بالحرام فاستقاءه ، وهذا وذاك بتيسير من الله تعالى ، وصدق صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ونحن نشاهد في الأمور العادية أصحاب المهن والحرف كل واحد راضٍ بعمله وميسر له ، وهكذا نظام الكون كله ، والذي يهم هنا أن كلا من الطاعة أو المعصية له أثره على ما بعده .

تنبيه

قيل : إن هذه المقارنة بين : من أعطى واتفى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، واقعة بين أبي بكر رضى الله عنه ، وبين غيره من المشركين .

ومعلوم أن العبارة بصوم اللفظ فهي عامة في كل من أعطى واتفى وصدق ، أو بخل واستغنى وكذب . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ .

رد على من بخل واستغنى ، وما هنا يمكن أن تكون نافية أى لا يغنى عنه شيء ، كما في قوله : (ما أغنى عنى ماله) ، وقوله : (يوم لا ينفع مال ولا بنون) .

ويمكن أن تكون استفهامية وقوله (إذا تردى) أى في النار عياناً بالله ، أو تردى في أعماله ، فآله إلى النار بسبب بخله في الدنيا ، كما يشهد له قوله تعالى : (ولا يحسن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) لآية .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾

فيه للعلماء أوجه ، منها : إن طريق الهدى دال وموصل علينا بخلاف الضلال .

ومنها : التزام الله للخلق عليه لهم الهدى ، وهذا الوجه محل إشكال ، إذ أن بعض المخلق لم يهدم الله .

وقد بحث هذا الأمر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إلهام الاضطراب ، من أن الجواب عليه من حيث إن الهدى عام وخاص . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَلَا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ .

أى بكمال التصرف والأمر ، وقد بينه تعالى في سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) أى المتصرف في الدنيا (مالك يوم الدين) أى المتصرف في الآخرة وحده (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) . وهذا كدليل على تيسيره لعباده إلى ما يشاء في الدنيا ، ومجازاتهم بما شاء في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ .

أى تلتظى ، والظى : اللمع الخالص ، وفي وصف النار هنا بتلظى

مع أن لها صفات عديدة منها : السмир ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية ، وغير ذلك .

وذكر هنا صنفًا خاصًا ، وهو من كذب وتولى ، كما تقدم في موضع آخر في وصفها أيضًا بلطف في قوله تعالى : (إنها لظى نزاعة للشوى) ، ثم بين أهلها بقوله : (تدعوا من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى) .

وهو كما هو هنا (فأنذرتكم ناراً تلتظى لا يصلها إلا الأشتى . اللهى كذب وتولى) ، وهو المعنى في قوله قبله : (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل ، كل منزلة تختص بصنف من الناس ، فاخترت لظى بهذا الصنف ، واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين ، وكانوا يخوضون مع الخائضين ، ونحو ذلك . ويشهد له قوله : (إن المنافقين في الهرك الأسفل من النار) كما أن الجنة منازل ودرجات ، حسب أعمال المؤمنين . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .

هذه الآية من مواضع الإيهام ، ولم يتعرض لها في دفع إيهام الاضطراب ، وهو أنها تنص وعلى سبيل الحصر ، أنه لا يصل النار إلا

الأشقى مع محبى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً) مما يدل على ورود الجميع .

والجواب من وجهين : الأول كما قال الزمخشري : إن الآية بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين .

ف قيل : الأشقى وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له ، وقال الأتقى ، وجعل مختصاً بالجنة ، وكأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل : عنهما ما أبو جهل أو أمية بن خلف المشركين ، وأبو بكر المصديق رضى الله عنه ، حكاه أبو حيان عن الزمخشري .

والوجه الثانى : هو أن الصلى الدخول والشى ، وأن يكون وقود النار على سبيل الخلود ، والورود والدخول المؤقت بزمن غير الصلى لقوله فى آية الورود ، التى هى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) ، (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) ويبقى الإشكال ، بين الذين اتقوا وبين الأتقى ويحاج عنه : بأن التتقى يرد ، والأتقى لا يشمر بورودها ، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف . والله تعالى أعلم .

ولولا التأكيد فى آية الورود بالهجرى بحرف من وإلا وقوله : (كان على ربك حتماً مقضياً) لولا هذه المذكرات لكان يمكن أن

يقال : إنها مخصوصة بهذه الآية ، وأن الأتقى لا يردّها ، إلا أن وجود تلك المذكورات يمنع من القول بالتخصيص . والله تعالى أعلم .

وفيه تقرير مصير القسمين المتقدمين ، من أعطى واتقى وصدق ، ومن بغل واستغنى وكذب ، وأن صليها بسبب التكذيب والتولى والإعراض وهو عين الشقاء ، ويتجنبها الأتقى الذى صدق ، وكان نتيجة تصديقه أنه أعطى ماله يتزكى ، وجعل إتيان المال نتيجة التصديق أمر بالغ الأهمية .

وذلك أن العبد لا يخرج من ماله شيئاً إلا بمعوض ، لأن الدنيا كلها ماموضة حتى الحيوان تعطيه علفاً يعطيك ما يقابله من خدمة أو حليب . إلخ .

فالمؤمن المصدق بالحسنى يعطى وينتظر الجزاء الأوفى الحسنة بمشر أمثالها ، لأنه مؤمن أنه متعامل مع الله ، كما فى قوله : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) .

أما المكذب : فلم يؤمن بالجزاء آجلاً ، فلا يخرج شيئاً لأنه لم يجد عوضاً معجلاً ، ولا ينتظر ثواباً مؤجلاً ، ولذا كان الذين يهيموا الدار والإيمان ، يحبون من هاجر إليهم ويبواسونهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خاصة ، إيماناً بما وعد الله ، بينما كان المنافقون لا ينفقون إلا كره
ولا يخرجون إلا الرديء ، الذى لم يكونوا ليأخذوه من غيرهم إلا
ليمنضوا فيه ، وكل ذلك سببه التصديق بالحسنى أو التكذيب بها

ولذا جاء فى الحديث الصحيح « والصدقة برهان » أى على صحة
الإيمان بما وعد الله للفقين ، من الخلف المضاعفة الحسنة :

وقوله : (يؤتى ماله يتزكى) أى يتطهر ويستزيد ، إذ التزكية
تأتى بمعنى النماء ، كقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
وتزكهم بها) وهذا رد على قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى) ،
وعلى عموم : (فأما من أعطى واتقى) ، ولا يقال : إنها زكاة المال ،
لأن الزكاة لم تشرع إلا بالمدينة ، والسورة مكية عند الجمهور ، وقيل :
مدنية . والصحيح الأول .

تفسيه

قد قيل أيضاً : إن المراد بقوله : (وسيجنبها الأتقى) الذى
يؤتى ماله يتزكى) إلى آخر السورة . نازل فى أبى بكر رضى الله عنه ،
لما كان يعشق ضعفة المسلمين ، ومن يعذبون على إسلامهم فى مكة ،
ف قيل له : لو اشتريت الأقوياء بساعدونك ويدافعون عنك . فأنزل الله
الآيات إلى قوله : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء

وجه ربه الأعلى) وابتغاء وجه رب هو بعينه ، وصدق بالحسنى أى لوجه الله يرجو الثواب من الله .

وكما تقدم ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وإن صورة السبب قطعية الدخول . فهذه بشرى عظيمة للصدیق رضی الله عنه ، ولسوف يرضى فى غاية من التأكيد من الله تعالى ، على وعده بإياه صلى الله عليه وسلم وأرضاه .

وذكر ابن كثير : أن فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعت خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعى منها ضرورة ، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم » . ١٠٨ .

وإنا لندرجو الله كذلك فضلاً منه تعالى .

تنبيه

فى قوله تعالى : (ولسوف يرضى) ، وذكر ابن كثير إجماع المفسرين أنها فى أبى بكر رضى الله عنه أعلى منازل البشرى ، لأن هذا الوصف بعينه ، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً فى السورة بعدها ، سورة الضحى (والآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك

ربك فترضى) ، فهو وعد مشترك للصديق وللرسول صلى الله عليه وسلم ،
إلا أنه في حق الرسول صلى الله عليه وسلم أسند العطاء فيه لله تعالى
بصفة الربوبية (ولسوف يعطيك ربك) كما ذكر فيه العطاء ، مما
يدل على غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو معلوم بالضرورة من أنه
صلى الله عليه وسلم له عطاءات لا يشاركه فيها أحد ، على ما سيأتي
إن شاء الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

تقدم معنى الضحى في السورة المتقدمة .

وقيل : المراد به هنا النهار كله ، كما في قوله : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلمبون) . وقوله : (والليل إذا سجي) قيل : أقبل ، وقيل : شدة ظلامه ، وقيل : غطى ، وقيل : سكن .

واختار الشيخ رحمة الله علينا وعليه في إملائه معنى : سكن

واختار ابن جرير أنه سكن بأهله ، وثبت بظلامه ، قال كما يقال بحر ساج ، إذا كان ساكنا ، ومنه قول الأعشى :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج ما يوارى الدعامصا

وقول الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء النساج
وأنشدهما القرطبي ، وذكر قول جرير :

ولقد رميتك يوم رحن بأعين ينظرون من خلل الستور سواج
أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه ، لأنها
طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون ، فإنه يقول له مؤانسا :
ما ودعك ربك وما قلى ، لا فى ليل ولا فى نهار ، على ما سياتى
تفصيله إن شاء الله .

وقوله : (ما ودعك ربك) قرئ بالشديد من توديع المفارق .
وقرئ : ما ودعك ، بالتحفيف من الودع ، أى من الترك ، كما قال
أبو الأسود :

ليت شمري عن خليل ما الذى نما له فى الحب حتى ودعه
أى تركه ، وقول الآخر :

ونم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السر
أى تركوم فرائس السيوف .

قال أبو حيان : والتوديع مبالغة فى الودع ، لأن من ودعك
مفارقا ، فقد بالغ فى تركك . اهـ .

والقراءة الأولى أشهر وأولى ، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل .

قال القرطبي ، وقال المبرد : لا يكادون يقولون : ودع ولا وفر ، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، وبديل على قول المبرد سقوط الواو في المضارع ، فنقول في مضارع : ودع يدع كيزن ويهب ويرث ، من وزن ووهب وورث ، ونقول في الأمر : دعْ وزنْ ، وهبْ ، أما ذر بمعنى اترك ، فلم يأت منه الماضي ، وجاء المضارع : يذرهم ، والأمر : ذرم . فترجعت قراءة الجمهور بالتشديد من ودعك من التوديع .

وقد ذكرنا هذا الترجيح ، لأن ودع بمعنى ترك فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة ، وهذا لا يليق بمقام المصطفى صلى الله عليه وسلم عند ربه . أما المواعدة والوداع ، فقد يكون مع المودة والصلة ، كما يكون بين الحبين عند الافتراق ، فهو وإن وادعه بحسبه فإنه لم يوادعه بحبه وعطفه ، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى : (وما قل) ،

تنبيه

هما ماودعك بصيغة الماضي ، وهو كذلك للمستقبل ، بدليل الواقع

وبدليل (ولا الآخرة خير لك من الأولى) لأنها تدل على مواصلة
 عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيراً له من الأولى ،
 فيكون ما بين ذلك كله في عناية ورعاية ربه .

وقد جاء في صلح الحديبية ، قال لعمر : أنا عبد الله ورسوله ،
 أى تحت رحمته وفى رعايته .

وقوله : وما قل ، حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها ، فدلّت
 عليها هكذا . قال المفسرون :

وقال بعضهم : تركت لرأس الآية ، والذي يظهر من لطيف
 الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف ، أن الموداعة تشعر بالوفاء
 والود ، فأبرزت فيها كاف الخطاب ، أى لم تقأت موادعتك وأنت
 الحبيب ، والمصطفى المقرب .

أما قل : فقيها معنى البغض ، فلم يناسب إبرازها إماماً في
 إبعاد قصده صلى الله عليه وسلم بشيء من هذا المعنى ، كما تقول لعزیز
 عليك : لقد أكرمتك ، وما أهنت لقد قربتك ، وما أبعدت كراهية أن
 تنطق باهانتك وكراهيته ، أو تصرح بها في حقه ، والقل : يمد ويقصر
 هو للبغض ، يمد إذا فتحت القاف ، ويقصر إذا كسرتها ، وهو واوى
 ويأوى ، ودكر القرطبي ، قال : أنشد ثعلب :

أيام أم الفمر لا تقلها ولو تشاء قبلت عيها
وقال كثير عزة :

أسيئي بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
فالأول قال : فقلها من الواوى ، والثانى قال : مقلية من الياء ،
ودما فى اللسان شواهد ،

وقد جاء فى السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه
لحبيبه وعنايته به وحفظه له بما كان يكاؤه به عمه ، وقد قال عمه فى
ذلك :

والله لن يعملوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

وذكر ابن هشام فى رعاية عمه له ، أنه كان إذا جنّ الليل وأرادوا
أن يناموا ، تركه مع أولاده ينامون ، حتى إذا أخذ كل مضجعه ، عمد
عمه إلى واحد من أبنائه ، فأقامه وأنى بحمد صلى الله عليه وسلم ينام
موضعه ، وذهب بولده ينام مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا
كان هناك من يريد به سوءاً فرأى مكانه فى أول الليل ، ثم جاء من
يريد به سوء وقع السوء بابنه ، وسلم محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فعل
لصديق رضى الله عنه عند الخروج إلى الهجرة فى طريقهما إلى الفار ،

فكان رضى الله عنه تارة يمشى أمامه صلى الله عليه وسلم ، وتارة يمشى ورائه ، فسأله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « أذكر الرصيد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون ورائك ، فقال : أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر ؟ قال : بلى ، فذاك أبى وأمى يارسول الله ، ثم قال : إن أهلك أهلك وحدى ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة » : فذاك عمه فى جاهلية وليس على دينه صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

خير تأتى مصدراً كقوله : إن ترك خيراً أى مالا كثيراً ، وتأتى أفعل تفضيل محذوفة الميزة ، وهى هنا أفعل تفضيل بدليل ذكر المقابل ، وذكر حرف من ، مما يدل على أنه سبحانه أعطاه فى الدنيا خيرات كثيرة ، ولكن ما يكون له فى الآخرة فهو خير وأفضل مما أعطاه فى الدنيا ، ويوم أن الآخرة خير له صلى الله عليه وسلم وحده من الأولى ، ولكن جاء النص على أنها خير للأبرار جميعاً ، وهو قوله تعالى : (وما عند الله خير للأبرار) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الظيرية للأبرار عند الله ، أى يوم القيامة بما أعد لهم ، كما فى قوله : (إن الأبرار لفى

نعم) ، وقوله : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها
كافورا) .

أما بيان الظهيرة هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيان الخير
في الدنيا أولاً ، ثم بيان الأفضل منه في الآخرة .

أما في الدنيا المدلول عليه بأفعل التفضيل ، أى لدلالته على اشتراك
الأميرين في الوصف ، وزيادة أحدهما على الآخر ، فقد أشار إليه في
هذه السورة والتي بعدها ، ففي هذه السورة قوله تعالى : (ألم يجدك
يتيماً فآوى) أى منذ ولادته ونشأته ، ولقد تمهده الله سبحانه من
صغره فصانه عن دنس الشرك ، وطهره وشق صدره ونقاه ، وكان رغم
يحمه سيد شباب قريش ، حيث قال عنه عند خطبته خديجة لزواجه بها
فقال : « فتى لا يعادله فتى من قريش ، حليماً وعقلاً وخلقاً ، إلا رجح
عليه » .

وقوله : (ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى) .
على ماسيأتى بيانه كله ، فهى نعم يبعدها تعالى عليه ، وهى من
أعظم خيرات الدنيا من صغره إلى شبابه وكبره ، ثم اصطفاؤه بالرسالة ،
ثم حفظه من الناس ، ثم نصره على الأعداء ، وإظهار دينه وإعلاء
كلمته .

ومن الناحية المعنوية ما جاء في السورة بعدها : (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) .

أما خيرية الآخرة على الأولى ، فعلى حد قوله : (وسوف يعطيك ربك فترضى) وليس بعد الرضى مطلب ، وفي الجملة : فإن الأولى دار عمل وتكليف وجهاد ، والآخرة دار جزاء وثواب وإكرام ، فهي لا شك أفضل من الأولى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

جاء مؤكداً باللام وسوف ، وقال بعض العلماء : يعطيه في الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله ، والنصر على الأعداء .

والجمهور : أنه في الآخرة ، وهذا وإن كان على سبيل الإجمال ، إلا أنه فصل في بعض المواضع ، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

وجاء في السنة بيان المقام المحمود وهو الذى ينهض عليه الأولون والآخرين ، كما في حديث الشفاعة العظمى حين يتغلى كل نبي ،

ويقول : « نفسى نفسى ، حتى يصلوا إلى النبی صلى الله عليه وسلم
فيقول : أنا لها أنا لها » إلخ .

ومنها : الحوض المورود ، وما حصت به أمته غراً محجلين ، يردون
عليه الحوض .

ومنها : الوسيلة ، وهى منزلة رفيعة عالية لا تنبى إلا لعبد واحد ،
كما فى الحديث : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم
صلوا علىّ وسلموا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبى إلا
لعبد واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها ، وإذا رجا ربه أن تكون
له طلب من الأمة طلبها له ، فهو مما يؤكد أنها له ، وإلا لما
طلبها ولا ترجاها ، ولا أمر بطلبها له ، وهو بلا شك أحق بها
من جميع الخلق ، إذ الخلق أفضلهم الرسل ، وهو صلى الله عليه وسلم
مقدم عليهم فى الدنيا ، كما فى الإسراء تقدم عليهم فى الصلاة فى بيت
المقدس .

ومنها : الشفاعة فى دخول الجنة كما فى الحديث : « أنه صلى الله
عليه وسلم أول من تفتح له الجنة ، وأن رضوانا خازن الجنة يقول له :
أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » .

ومنها : الشفاعة ، المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار ، كما في الحديث : « لا أرضى وأحد من أمتي في النار » أسأل الله أن يرزقنا شفاعته ، ويوردنا حوضه . آمين .

وشفاعته الخاصة في الخاص في عمه أبي طالب ، فيخفف عنه بها ما كان فيه .

ومنها : شهادته على الرسل ، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك ، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

تنبيه

اللام في « وللاخرة » وفي « ولسوف » للتأكيد وليست للقسم ، وهي في الأول دخلت على المبتدأ ، وفي الثانية المبتدأ محذوف تقديره ، لأنك سوف يعطيك ربك فترضى . قاله أبو حيان وأبو السعود .

قوله تعالى (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) .

تقدم بيان معنى اليتيم عند قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) .

والرسول صلى الله عليه وسلم مات أبوه ، وهو حمل له سقته

أشهر ، وماتت أمه وهى عائدة من المدينة بالأبواء وعمره صلى الله عليه وسلم

وقد قيل : إن يعمه لأنه لا يكون لأجد حق عليه ، نقله أبو حيان .
والذى يظهر أن يعمه راجع إلى قوله (ماودعك ربك) أى
ليقول الله تعالى أمره من صفه ، وتقدم معنى إِبْواء الله له ، فكان
يعمه لإبراز فضله ، لأن ينمى الأمل أصبح سيد القدر ، وكافل
اليامى .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ .

الضلال : يكون حساً ومعى ، فالأول : كمن تاه فى طريق يسلكه ،
والثانى : كمن ترك الحق فلم يتبعه .

فقال قوم : المراد هنا هو الأول ، كأن قد ضل فى شعب من
شعاب مكة ، أو فى طريقه إلى الشام . ونحو ذلك .

وقال آخرون : إنما هو عبارة عن عدم للتعليم أولاً ثم منحه
من العلم مما لم يكن يعلم ، كقوله : (ما كنت تدرى ما الكتاب
ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من
عبادنا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بحث هذه المسألة فى
عدة مواضع : أولاً فى سورة يوسف عند قوله تعالى : (إن أبانا

لنى ضلال مبين) ، وساق شواهد الضلال لغة هناك .

وثانياً : فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (الذين ضل سبيهم فى الحياة الدنيا) .

وثالثاً : فى سورة الشعراء عند قوله تعالى : (قال فعلتها إفاً وأنا من الضالين) .

وفى دفع لميham الاضطراب أيضاً : وهذا كله يغنى عن أى بحث آخر .

ومن الطريف ما ذكره أبو حيان عند هذه الآية ، حيث قال : ولقد رأيت فى النوم ، أنى أفكر فى هذه الجلة ، فأقول على الفور : ووجدك : أى وجد رهطك ضالاً فهده بك ، ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : واسأل القرية . ا هـ .

وقد أورد النيسابورى هذا وجهاً فى الآية ، وبهذه المناسبة أذكر منامين كنت رأيتهما ولم أرد ذكرهما حتى رأيت هذا لأبى حيان ، فاستأنست به لذكرهما ، وهما : الأول عندما وصلت إلى سورة ن عند قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ومن منهج الأضواء تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا وصف مجمل ، وحديث عائشة « كان خلقه القرآن » فأخذت فى التفكير ، كيف أفصل هذا المعنى من

القرآن ، وأبين حكمه وصفحه وصبره وكرمه وعطفه ورحمته ورأفته وجهاده وعبادته ، وكل ذلك مما جعلنى أقف حائراً وأمكث عن الكتابة عدة أيام ، فرأيت الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في النوم ، كأننا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وكأنه ليس في نشاطه العادى ، فسألته ماذا عندك اليوم ؟

فقال : عندى تفسير .

فقلت : أتدرس اليوم ؟ قال : لا ، فقلت : وما هذا الذى بيدك ؟ لدفتر فى يده ، فقال : مذكرة تفسير ، أى التى كان سيفسرها وهى مخطوطة ، فقلت له : من أين فى القرآن ؟ فقال : من أول ن إلى آخر القرآن ، فخرصت على أخذها لأكتب منها ، ولم أتجرأ على طلبها صراحة ، ولكن قلت له : إذا كنت لم تدرس اليوم فأعطنيها أبيضها وأجلدها لك ، وآتيك بها غداً ، فأعطانيها فانتبهت فرحاً بذلك وبدأت فى الكتابة .

والمرة الثانية فى سورة المطففين ، لما كتبت على معنى التطفيف ، ثم فكرت فى التواعد الشديد عليه مع يتأذى فيه من شىء طفيف ، حتى فكرت فى أن له صلة بالربا ، إذا ما بيع جنس بنفسه ، فحصلت مغايرة فى الكيل ووقع تفاضل ، ولكنى لم أجد من قال به ، فرأيت فيما يرى النائم ، أنى مع الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، ولكن لم يتحدث معى فى شىء من التفسير .

وبعد أن راح عنى ، فإذا بشخص لا أعرفه يقول : وأنا أسمع دون
أن يوجه الحديث إلىّ إن فى التطفيف ربا ، إذا بيع الحديد بحديد ،
وكلمة أخرى فى معناها نسيتهما بعد أن انتهت .

وقد ذكرت ذلك تأسياً بأبى حيان ، لما أجد فيه من إيناس ،
والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ،
وعلى ما جاء فى الرؤيا من مبشرات : وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾

العائل : صاحب العيال ، وقيل : العائل الفقير ، على أنه من لازم
العيال الحاجة ، ولكن ليس بلازم ، ومقابلة عائلا بأغنى ، تدل على
أن معنى عائلا أى فقيراً ، ولذا قال الشاعر :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يميل
وما تدرى وإن ذمرت سقياً اغيرك أم يكون لك الفصيل

وهذا مما يذكره الله لنبىه صلى الله عليه وسلم من تعداد النعم عليه ،
وأنه لم يودعه وما قلاه ، لقد كان فقيراً من المال فأغناه الله بمال
عنه .

وقد قال عنه فى خطبة نكاحه بخديجة : وإن كان فى المال قل
فما أحببتم من الصداق ، فعلى ، ثم أغناه الله بمال خديجة ، حيث جمعت
مالها تحت يده .

قال النيسابورى ما نصه : يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت : مالك ؟ فقال : الزمان زمان قطع ، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك ، فأستعجى منك ، وإن أنا لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريباً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنائير حتى وضعتها ، بلغت مبلاناً لم يقع بصرى على من كان جالساً خدامى ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله ، إن شاء فرقته وإن شاء أمسكه .

فهذه القصة وإن لم يذكر سندها ، فليس بغريب على خديجة رضى الله عنها أن تفعل ذلك له صلى الله عليه وسلم ، وقد فعلت ما هو أعظم من ذلك ، حين دخلت معه الشعب فتركت مالها ، واختارت مشاركته صلى الله عليه وسلم لما هو فيه من ضيق العيش ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وأموالها طائلة فى بيتها .

ثم كانت الهجرة وكانت مواساة الأنصار ، لقد قدم المدينة تاركاً ماله ومال خديجة ، حتى إن الصديق ليدفع ثمن المبرد لبناء المسجد ، وكان بعد ذلك فى بنى النضير ، وكان يقضى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، لا يوقد فى بيته صلى الله عليه وسلم نار ، إنما هما الأسودان : التمر والماء .

ثم جاءت غنائم حنين ، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ورجع

بدون شيء ، وجاء مال البحرين فأخذ العباس ما يطيق حمله ، وأخيراً توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة في آصع من شعير .

وقوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) يشير إلى هذا الموضع ، لأن أغنى تعبير بالفعل ، وهو يدل على التجدد والحدوث ، فقد كان صلى الله عليه وسلم من حيث المال حالاً فحلاً ، والواقع أن غناه صلى الله عليه وسلم كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس ، ويكفى أنه صلى الله عليه وسلم أجود الناس .

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة في الحالتين ، في حالى الفقر والغنى ، إن قلّ ماله صبر ، وإن كثر بذل وشكر .

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له مما فاق كل عطاء . قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) ثم قال : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) .

وقد اختلفوا في المقارنة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر ، ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين ، ليرسم القدوة المثل في الحالتين .

تنبيه

في الآية إشارة إلى أن الإبواء والمهدى والغنى من الله لإسنادها هنا لله تعالى .

ولكن في السياق لطيفة دقيقة ، وهي معرض التقرير ، يأتي بكاف الخطاب : ألم يمدك يتيا ، ألم يمدك ضالا ، ألم يمدك عائلا ، لتأكيد التقرير ، لم يسند اليتيم ولا الإضلال ولا الفقر لله ، مع أن كله من الله ، فهو الذى أوقع عليه اليتيم ، وهو سبحانه الذى منه كلما وجده عليه ، ذلك لما فيه من إيلاء له ، فما يسنده الله ظاهراً ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب .

وفي تعداد النعم : فأوى ، فهدى ، فأغنى . أسند كله إلى ضمير للنعم ، ولم يبرز ضمير الخطاب .

قال المفسرون : لمراعاة رؤوس الآى والفواصل ، ولكن الذى يظهر والله تعالى أعلم : أنه لما كان فيه امتنان ، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لثلاث يتقل عليه المنة ، بينما أبرزه فى : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، ورفعنا لك ذكرك . لأنها نعم معنوية ، انفرد بها صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ .
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

يجيء الفاء هنا مشعر ، إما بتفريع وهذا ضعيف ، وإما بإفصاح
عن تعدد ، وقد ذكر الجلل بتقدير ، مهما يكن من شيء .

وقد ساق تعالى هنا ثلاث مسائل : الأولى معاملة الأيتام فقال :
(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) ، أى كما آواك الله فأواه ، وكما أكرمك
فأكرمه .

وقالوا : قهر اليتيم أخذ ماله وظلمه .

وقيل : قرىء بالكاف « تكهر » ، فقالوا : هو بمعنى القهر إلا
أنه أشد .

وقيل : هو بمعنى عبوسة الوجه ، والمعنى أعم ، كما قال صلى الله عليه
وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل ،
ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدين وقهر الرجال » ، فالقهر أعم
من ذلك .

وبالغظر فى نصوص القرآن العديدة فى شأن اليتيم ، والتي زادت
على العشرين موضعاً ، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها
تدور حول دفع المضار عنه ، وجلب المصالح له فى ماله وفى نفسه ،

فهذه أربعة ، وفي الحالة الزوجية ، وهي الخامسة . أما دفع المضار عنه في ماله ، ففي قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) جاءت مرتين في سورة الأنعام والأخرى في سورة الإسراء ، وفي كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة في سورة الأنعام ، بدأت بقوله تعالى : (قل تعالوا أنزل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) .

وذكر قتل الوالد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم .
ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

وبلاحظ أن النهى منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلا بالتي هي أحسن ، وقد بين تعالى التي هي أحسن بقوله : (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) .

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجره ، فله الأقل من أحد أمرين : إما نفقته في نفسه ، وإما أجرته على عمله ، أى إن كان العمل يستحق أجره ألف ريال ، ونفقته يكفيها خمسمائة أخذ نفقته فقط ، وإن كان العمل يكفيه أجره مائة ريال ، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط ، حفظاً لماله .

ثم بعد النهى عن اقتراب مال اليتيم ذلك ، فقد تتطالع بعض النفوس إلى فوارق بسيطة من باب التحيل أو نحوه ، من استبدال

شئ مكن شئ ، فيكون طريقاً لاستبدال طيب بخبيث ، فجاء قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) .

والحوب : أعظم الذنب ، ففيه النهى عن استبدال طيب ماله ، بخبيث مال الولي أو غيره حسداً له على ماله ، كما نهى عن خا ط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير ، وهذا منع للتحويل وسد للذريعة ، حفظاً لماله .

ثم يأتي الوعيد الشديد في صورة مفزعة في قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) .

وقد اتفق العلماء : أن الآية شملت في النهى عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه إتلاف أو تفويت سواء كان بأكل حقيقة أو باختلاس أو بإحراق أو بإغراق ، وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفى الفارق ، إذ لا فرق في ضياع مال القيمة عليه ، بين كونه بأكل أو بإحراق بنار أو بإغراق في ماء حتى الإهمال فيه ، فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظاً لماله .

وأخيراً ، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتى هى أحسن ، ولم يبدله بغيره أقل منه ، ولم يخطئه بماله لياً كله عليه ، ولم يعتمد

عليه بأى إتلاف كان محفوظا له ، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده ،
 فيأتى قوله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم
 منه رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن
 يكبروا) .

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله فى آخر الآية :
 (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى حتى لا تكون منكرة
 فيما بعد .

وفى الختام ينبه الله فيهم وازع مراقبة الله بقوله : (وكفى بالله
 حسيباً) ، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بمسد محاسبة دقيقة فيما
 له وعليه .

ومهما يكن من دقة فى الحساب ، فالله سيجاسب عنه ، وكفى
 بالله حسيباً ، وهذا كله فى حفظ ماله .

أما جلب المصالح ، فإننا نجد فيها أولاً جملة مع الوالدين ،
 والأقربين ، فى عدة مواطن ، منها قوله تعالى : (قل ما أنفقتم من
 خير فلوالدين والأقربين واليتامى) .

ومنها قوله : لإيراده فى أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المال
 (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین
 وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) إلى آخر الآية .

ومنها : ما هو أدخل في الموضوع حيث جمل له نصيباً في التركة في قوله : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى ، ومرة أخرى يجمل لهم نصيباً فيما هو أعلى منزلة في قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله) الآية

وكذلك في سورة الحشر في قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية .

لجعلهم الله مع ذى القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جعله الله في عموم وصف الأبرار ، وسبيلاً للوصول إلى أعلى درجات النعيم في قوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

وذكر أفعالهم التي منها : أنهم يوفون بالوعد ، ثم بعدها : أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة في قوله : (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة) الآية .

ولقد وجدنا ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن يسوق الله الخضر
وموسى عليهما السلام ليقيا جداراً ليتيمين على كنز لهما حتى يباينا
أشدهما ، في قوله تعالى : (وأما الجدار فكان لفلامين يتيمين في
المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يباينا
أشدهما ويستخرجا كفضهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى)

هذا هو الجانب المالى من دفع المصرة عنه في حفظ ماله ، ومن
جانب جلب النفع إليه عن طريق المال .

أما الجانب النفسى فكالاتى :

أولاً : عدم مساءته في نفسه ، فمنها قوله تعالى : (أرأيت الذى
يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام
المسكين) .

ومنها قوله (كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام
المسكين) فقدم إكرامه إشارة له .

ثانياً : فى الإحسان إليه ، منها قوله تعالى : (لا تعبدوا إلا الله
وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى) فيحسن إليه كما يحسن لوالديه
ولدى القربى .

ومنها سؤال ، وجوابه من الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل

إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح (أى تعاملونهم كما تعاملون الإخوان ، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف ، ولذا قال تعالى : (والله يعلم المفسد من المصلح) .

وفى تقديم ذكر المفسد على المصلح : إشعار لشدة التحذير من الإفساد فى معاملته ، ولأنه محل التحذير فى موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد فى قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليتولوا قولاً سديداً) .

أى حتى فى مخاطبتهم بإيام لأنهم بمنزلة أولادهم ، بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتاماً من بعدهم ، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاماً من بعدهم ، فليحسنوا معاملة الأيتام فى أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية .

تلك هى نصوص القرآن فى حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه ، مما يفصل مجمل قوله : (فأما اليتيم فلا تقهر) .

لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شئ يحتاجه ، ولا بإتلاف ماله ، ولا بالتحميل على أكله وإضاعته ، ولا بشئ بالكلىة ، لا فى نفسه ولا فى ماله .

والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالغة مبلغها في حقه ،
 وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس به وأشفقهم عليه ، حتى قال :
 « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين - يشير إلى السبابة والوسطى -
 وفرج بينهما » رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

وفى رواية أبى هريرة عند مسلم ومالك : « كافل اليتيم له أو
 لغيره » أى قريب له أو بعيد عنه .

وعند أحمد والطبرانى مرفوعا : « من ضم يتيما من بين أبوين
 مسلمين إلى طعامه وشرابه ، وجبت له الجنة » قال المنذرى : رواه
 أحمد ، محتج بهم إلا على بن زيد .

وعند ابن ماجه عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال :
 « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم ، يُحسن إليه . وشر بيت فى
 للمسلمين ، بيت فيه يتيم يُساء إليه » .

وجاء عند أبى داود ما هو أبعد من هذا وذلك ، حتى إن
 الأم لتعطل مصالحها من أجل أيتامها ، فى قوله صلى الله عليه وسلم
 « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين يوم القيامة - وأوما بيده - يزيد
 بن زريع - بفتح الزاى وإسكان الباء - بالوسطى والسبابة امرأة
 آمت زوجها - بألف ممدودة وميم مفتوحة وتاء - أصبحت أيمًا ، بوفاة

زوجها - ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا
أو ماتوا .

وجعله الله دواء لقساوة القلب ، كما روى أحد رجاله رجال
الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا شكأ إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال « امسح رأس اليتيم ، وأطعم
للسكين » .

وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامى ، حيث يخاطب
الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم ، وأرأفهم بمباد الله ، الموصوف
بقوله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) ويقول (وإنك لعلى خلق
عظيم) ليكون مثالا مثاليا في أمة قست قلوبها وغلظت طباعها ،
فلا يرحمون ضعيفا ، ولا يؤدون حقا إلا من قوة يدينون لمبدأ « من
عزَّ بَرَّ ، ومن غلب استلب » يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة ، كما
قال شاعرهم :

قبيلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ويقول حكيمهم :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يثدنون بناتهم ، ويحرمون من الميراث نساءهم ، يأكلون

التراث أكلا لهما ، ويحبون المال حباً ، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم ،
فألان قلوبهم ورقق طباعهم ، فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه .

وحقيقة هذا التشريع الإلهى الحكيم منذ أربعة عشر قرناً تأتى
فوق كل ما يتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها ، مما يحقق
كمال التكامل الاجتماعى بأبهى معانيه ، المنوء عنه فى الآية الكريمة
(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليقتنوا
الله وليقولوا قولاً سديداً) ، فحمل كافل اليتيم لليوم ، إنما يعمل حتى
فيما بعد لو ترك ذرية ضعافاً ، وعبر هذا عن الأيتام بلازمهم وهو
الضعف إبرازاً لحاجة اليتيم إلى الإحسان ، بسبب ضعفه فيكونون
موضع خوفهم عليهم لضعفهم ، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم ، كما
يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم .

وهكذا تضع الآية أمامنا تسكافلاً اجتماعياً فى كفالة اليتيم ، بل
إن اليتيم نفسه ، فإنه يقيم اليوم ورجل الغد ، فكما تحسن إليه يحسن
هو إلى أيتامك من بعدك ، وكما تدين تدان ، فإن كان خيراً
كان الخير بالخير والبادىء أكرم ، وإن شراً كان بمثله والبادىء
أظلم .

ومع هذا الحق المعبادل ، فإن الإسلام يحث عليه ويعنى به ، ورغب

في الإحسان إليه وأجزا المثوبة عليه ، وحذّر من الإساءة عليه ،
وشدد العقوبة فيه .

وقد يكون فيما أوردناه إطالة ، ولكنه وفاء بحق اليتيم أولا ،
وتأثر بكثرة ما يلاقيه اليتيم ثانيا .

تنبيه

ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه ، بل ذلك
من مصاحته كما قيل :

قس ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وقوله :

(وأما السائل فلا تنهر) ، قالوا : السائل الفقير والمحتاج ،
يسأل ما يسد حاجته وهو مقابل لقوله : (ووجدك عائلا فأغنى)
أى فكما أغناك الله وبدون سؤال ، فإذا أتاك سائل فلا تنهره ، ولو
في رد الجواب بالتى هى أحسن .

ومعلوم : أن الجواب بلطف ، قد يقوم مقام المطاء في إجابة

السائل ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يعطيه للسائل بعده وعداً حسناً لحين مسيره ، أخذاً من قوله تعالى : (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً) .

وقد أورد الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، يدين عند هذه الآية في هذا المعنى ، ما قول الشاعر :

إن لم تكن ورق يوماً أجود بها للسائلين فإني لئن العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقي إما نوالى وإما حسن مردود
فليسمد النطق إن لم يسمد المال .

وقيل : السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد ، وقالوا هذا مقابل قوله : (ووجدك ضالاً فهدى) أى لا تنهر مستغنيا ولا مسترشداً ، كقوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم رحيماً شفيقاً على الجاهل حتى يعلم ، كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد حين صاح به الصحابة فقال لهم « لا تزعموه » ، إلى أن قال الأعرابي : اللهم ارحمني

وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً أبداً » وكالآخر الذي جاء يضرب صدره وينتف شعره ويقول : « هلك وأهلك ، واقعت أهلى فى رمضان ، حتى كان من أمره أن أعطاء فرقاً من طعامه يكفّر به عن ذنبه ، فقال : أعلّى أنقر منا يا رسول الله ؟ فقال : قم فأطعمه أهلك » .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقف للمرأة فى الطريق يصفى إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها ، بل يحبها على أسئلتها .

وقد حث صلى الله عليه وسلم على إكرام طالب العلم ، وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وأن الحيّتان فى البحر لتستغفر له رضى بما يصنع .

وقوله : (وأما بفعمة ربك فحدث) : النعمة كل ما أنعم الله به على العبد ، وهى كل ما ينعم به العبد من مال وحافية وهداية ونصرة من النعمومة واللين ، فقيل : المراد بها المذكورات والصحث بها شكرها عملياً من إيواء اليتيم كما آواه الله ، وإعطاء السائل كما أغناه الله ، وتعليم المسترشد كما علمه الله ، وهذا من شكر النعمة ، أى كما أنعم الله عليك ، فتغنم أنت على غيرك تأسيماً بفعل الله معك .

وقيل : التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث ،
والنعمة هنا عامة لتكثيرها وإضافتها ، كما في قوله تعالى : (وما بكم
من نعمة فمن الله) أى كل نعمة . ولكن الذى يظهر أنها في الوحي
أظهر أو هو أولى بها ، أو هو أعظمها ، لقوله تعالى : (اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمى ورضيت لكم الإسلام ديناً) فقال :
نعمتى ، وهنا نعمة ربك . ولا يبعد عندى أن يكون صلى الله عليه وسلم
إنما نحر مائة ناقة في حجة الوداع ، لما أنزل الله عليه هذه الآية ، ففعل
شكراً لله على إتمام النعمة بإكمال الدين .

وقد قالوا في مناسبة هذه السورة بما قبلها : إن التى قبلها في
الصديق (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده
من نعمة تجرى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) وهنا
في الرسول صلى الله عليه وسلم (ما ودعك ربك وما قلى ، والآخرة خير
لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) مع الفارق الكبير في
العطاء والخطاب .

والواقع أن مناسبات السور القصار ، أظهر من مناسبات الآى في
السورة الواحدة ، كما بين هاتين السورتين والليل مع الضحى ، ثم
ما بين والضحى وألم نشرح ، إنها تقمة للنعم التى يعدها الله تعالى
على رسوله .

وهكذا على ما ستأتى الإشارة إليه فى محله إن شاء الله تعالى .
أعلم علماً بأن بعض العلماء لم يعتبر تلك المناسبات .

ولكن ما كانت المناسبة فيه واضحة ، فلا ينبغى إغفاله ، وما
كانت خفية لا ينبغى التكلف له .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الشُّرُوحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ .
الَّذِي أَثَقَلَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ذكر تعالى هنا ثلاث مسائل : شرح الصدر ، ووضع الوزر ،
ورفع الذكر .

وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام ، فهو استفهام تقريرى
لتقرير الإثبات ، فقوله تعالى (أَلَمْ نَشْرَحْ) بمعنى شرحنا على المبدأ
المعروف ، من أن نفي النفي إثبات . وذلك لأن همزة الاستفهام وهي
فيها معنى النفي دخلت على لم وهي للنفي ، فتراكبا فبقي الفعل مثبتاً .
قالوا : ومثله قوله تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) . وقوله (أَلَمْ
رَبُّكَ فِينَا وَلِيدًا) .

وعليه قول الشاعر :

أَلَسَمَ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُون رَاحٍ

فتقرر بذلك أنه تعالى يعدد عليه نعمه العظمى ، وقد ذكرنا
سابقاً ارتباط هذه السورة بالتى قبلها فى تقمة نعم الله تعالى على رسوله ،
صلى الله عليه وسلم .

وروى النيسابورى عن عطاء وعمر بن عبد العزيز : أنهما كانا يقولان : هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة ، وكانا يقرأتهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم .
والذى دعاها إلى ذلك هو أن قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) كالعطف على قوله (ألم يمدك يتيا) ورد هذا الإدعاء - أى من كونها سورة واحدة - وعلى كل فإن هذا إذا لم يحملها سورة واحدة فإنه يحملها مرتبطتين . معاً فى المعنى ، كما فى الأنفال والتوبة .

واختلف فى معنى شرح الصدر ، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا ، وكلها يكمل بعضها بعضاً .

فتعل : هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر ، وغسله وملؤه لإيماناً وحكمة ، كما فى رواية مالك بن صعصعة فى ليلة الإسراء ، ورواية أبى هريرة فى غيرها .

وفيه كما فى رواية أحمد : أنه شق صدره وأخرج منه الفل والحسد ، فى شيء كهيئة الملقاة ، وأدخلت الرأفة والرحمة .

وقيل : شرح الصدر ، إنما هو توسيعه المعرفة والإيمان ومعرفة الحق ، وجعل قلبه وعاء للحكمة .

وفى البخارى عن ابن عباس « شرح الله صدره للإسلام »

وعند ابن كثير : نورناه وجعلناه فسحاً رحيباً واسعاً ، كقوله
(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

والذى يشهد له القرآن : أن الشرح هو الانشراح والارتياح .
وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة . كما في
قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)
حقوله : فهو على نور من ربه : بيان لشرح الصدر للإسلام .

كما أن ضيق الصدر ، دليل على الضلال ، كما في نفس الآية
(ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) الآية .

وفي حاشية الشيخ زادة على البيضاوى قال : لم يشرح صدر أحد
من العالمين ، كما شرح صدره عليه السلام ، حتى وسع علوم الأولين
والآخرين . فقال « أوتيت جوامع الكلم » . ١٠ هـ .

ومراد به بلوم الأولين والآخرين ، ما جاء في القرآن من أخبار
الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد ، وما بينه وبين ذلك مما علمه
الله تعالى .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن شرح الصدر الممتن به عليه
صلى الله عليه وسلم ، أوسع وأعم من ذلك ، حتى إنه ليشمل صبره
وصفحه وعفوه عن أعدائه ، ومقابلته بالإساءة بالإحسان ، حتى إنه ليسع
العدو ، كما يسع الصديق .

كقصة عودته من تقيف : إذ آذوه سفهاؤهم ، حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم ، وقال له جبريل : إن ملك الجبال معي ، إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل ، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك ، ولكأنهم لم يسيثوا إليه فيقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يطمون ، إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة ، ولذا توجه نبي الله موسى إلى ربه يطلبه إياها ، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى (اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قال رب اشرح لي صدري ، ويسرلي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، اشدد به أزري) إلى آخر السياق .

فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل : بدأها بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون ، وهو اللسان في الإقناع ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، ثم العامل المادي أخيراً في المؤازرة ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري ، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته ، لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة

من سحر عظيم ، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم .

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير ، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقى تلك التعاليم من الوحي ، كقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وكقوله (والكاظمين الفیظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره .

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر ، وفلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة ، وتلقى كل ذلك بصدر رحب .

وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله ، أن يكون رحب الصدر هادئ النفس متجملًا بالصبر .

وقوله (ووضعتنا عنك وزرك) ، والوضع يكون للحط والتخفيف ، ويكون للحمل والبتثقل ، فإن عدى بمن كان للحط ، وإن عدى بطل كان للحمل ، في قولهم : وضعت عنك ، ووضعت عليك ، والوزر لغة الثقل .

ومنه : حتى تضع الحرب أوزارها ، أى ثقلها من سلاح ونحوه ..

ومنه الوزير : الماحمل ثقل أميره وشغله ، وشرعاً الذنب كما
 في الحديث : « ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل
 بها إلى يوم القيامة » ، وقد يتماوران في التعبير كقوله تعالى
 (ليحملوا أوزارهم كاملة) وقوله مرة أخرى (وليحملن أثقالهم
 وأثقالا مع أثقالهم) .

وقد أفرد لفظ الوزر هنا وأطلق ، ولم يبين ما هو وما نوعه ،
 فاختلف فيه اختلافاً كثيراً .

ف قيل : ما كان فيه من أمر الجاهلية ، وحفظه من مشاركته
 معهم ، فلم يلحقه شيء منه .

وقيل : ثقل تأله مما كان عليه قومه ، ولم يستطع تغييره ،
 وشغفته صلى الله عليه وسلم بهم ، أى كقوله تعالى : (فلعلك باخع
 نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) أى أسفاً
 عليهم .

وقال أبو حيان : هو كناية عن عصمته صلى الله عليه وسلم من
 الذنوب ، وتطهيره من الأرجاس :

وقال ابن جرير : وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا
 عنك ثقل أيام الجاهلية التي كدت فيها .

وقال ابن كثير : هو بمعنى : ليغفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فكلام أبي حيان : يدل على العصمة ، وكلام ابن جرير يدل على شيء في الجاهلية ، وكلام ابن كثير مجمل .

وفي هذا المجال مبحث عصمة الأنبياء عموماً ، وهو مبحث أصولي تحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عايها وعليه بحثه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) ، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية ، ومقياس ذلك ، عقلاً وشرعاً ، وفي سورة ص عند قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه) ، ونبه عندها على أن كل ما يقال في داود عليه السلام حول هذا المعنى ، كله إسرائيليّات لا تليق بمقام النبوة . ٥١ .

أما في خصوصه صلى الله عليه وسلم ، فإننا نورد الآتي : إنه مهما يكن من شيء ، فإن عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها ، لنص القرآن الكريم في قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعاً .

أما قبل البعثة ، فالعصمة من الكبائر أيضاً ، يجب الجزم بها لأنه صلى الله عليه وسلم كان في مقام التمهيد للنبوة من صغره ، وقد شق

صدره في سن الرضاع ، وأخرج منه حظ الشيطان ، ثم إنه لو كان قد وقع منه شيء لأخذه عليه حين عارضوه في دعوته ، ولم يذكر من ذلك ولا شيء فلم يبق إلا القول في الصغار ، فهي دائرة بين الجواز والمنع ، فإن كانت جائزة ووقعت ، فلا تمس مقامه صلى الله عليه وسلم لوقوعها قبل البعثة والتكليف ، وأنها قد غفرت وحط عنه ثقلها ، فإن لم تقع ولم تكن جائزة في حقه ، فهذا المطلوب .

وقد ساق الألويسي رحمه الله في تفسيره : أن عمه أبا طالب ، قال لأخيه العباس يوماً : « لقد ضمته إلىّ وما فارقتَه ليلاً ولا نهاراً ولا ائتمنت عليه أحداً » ، وذكر قصة بنبيه ومنامه في وسط أولاده أول الليل ، ثم نقله إياه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه ، ثم قال : « ولم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون » .

وذكرت كتب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم أراد مرة في صغره ، أن يذهب لحل عرس ليرى ما فيه ، فلما دنا منه أخذه النوم ولم يصح إلا على حر الشمس ، فصانه الله من رؤية أو سماع ، شيء من ذلك .

ومنه قصة مشاركته في بناء الكعبة حين تعرى ومنع منه حالا ، وعلى المنع من وقوع شيء منه صلى الله عليه وسلم بقي الجواب على معنى الآية ، فيقال والله تعالى أعلم : إنه تكريم له صلى الله عليه وسلم كما جاء في أهل بدر ، قوله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع

على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم « مع أنهم لن يفعلوا محرماً بذلك ، ولكنه تكريم لهم ورفع لمنازلتهم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقرب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورمت قدماءه ، وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فكان كل ذلك منه شكراً لله تعالى ، ورفعاً لدرجته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء : « نعم العبد مهيب ، لو لم يخف الله لم يمهه » ، وهو حصة من حسناته صلى الله عليه وسلم .

أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتقد على نفسه بالتقصير ، ويعتبره ذنباً يستغفره ويستغفر منه ، كما كان إذا خرج من الخلاء قال « غفرانك » .

ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار ، إلا ما قيل شعوره بترك الذكر في تلك الحالة ، استوجب منه ذلك .

وقد استحسّن العلماء قول الجنيد : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو أن المراد مثل ما جاء في القرآن من بعض اجتهاداته صلى الله عليه وسلم ، وفي سبيل الدعوة ، فيرد اجتهاده فيعظم عليه كقصّة ابن أم مكتوم ، وعوتب فيه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية ، ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة ، إلا أنه من باب

واحد كقوله : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، وقصة أسارى بدر ، وقوله : (ليس لك من الأمر شيء) واجتهاده في إيمان همه ، حتى قيل له : (إنك لا تهدي من أحببت) ونحو ذلك . فحصل الآية عليه ، أو أن الوزر بمعناه اللغوي ، وهو ما كان يشغله من أعباء الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، كما ذكر ابن كثير في سورة الإسراء عن الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما كان ليلة أسرى بنى فأصبحت بمكة فظننت ، وعرفت أن الناس مكذّبي ، فعدت معتزلاً حزيباً ، فرأى أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وقصّ عليه الإسراء » .

ففيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم فظن ، والظنّاعة : ثقل وحزن ، والحزن : ثقل . وتوقع تكذيبهم إياه أثقل على النفس من كل شيء . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (الذى أنقض ظهرك) أى ثقله مشعر بأن للذنوب أثقلاً على المؤمن ينوء به ، ولا يخففه إلا التوبة وحمله عنه .

وقوله : (ورفعنا لك ذكرك) لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره ، والرفع يكون حسياً ويكون معنوياً ، فاختلف في المراد به أيضاً .

فقيل : هو حسى في الأذان والإقامة ، وفي الخطب على المنابر

وافتحا حيات الكلام في الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلا ،
 واستشهدوا بقول حسان رضى الله عنه ، وهى أبيات فى ديوانه من
 قصيدة دالية :

أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود بلوح وبشهاد
 وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
 وشق له من اسمه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد
 ومن رفع الذكر معنى أى من الرفعة ، ذكره صلى الله عليه وسلم
 فى كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه .

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحي ذكراً له ولقومه ، فى قوله تعالى :
 (فاستمسك بالذى أوحى إليك إناك على صراط مستقيم ، وإنا لذكر
 لك ولقومك) ، ومعلوم أن ذكر قومه ذكر له ، كما قال الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب

كما علت برسول الله عسدن

فبين أن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم ، إنما هو عن طريق
 الوحي سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل (يا أيها الرسول) ،
 (يا أيها النبي) ، (يا أيها المدثر) ، والتصريح باسمه فى مقام
 الرسالة (محمد رسول الله) أو كان فى فروع التشريع ، كما تقدم فى

أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ .

النصب : التعب بعد الاجتهاد ، كما في قوله : (وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة) .

وقد يكون النصب للدنيا أو للآخرة ، ولم يبين المراد بالنصب في أى شيء ، فاختلف فيه ، ولكنها أقوال متقاربة .

ف قيل : في الدعاء بعد الفراغ من الصلاة .

وقيل : في النافلة من الفريضة ، والذي يشهد له القرآن ، أنه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا ، كما في مثل قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، وقوله : (إن ناشئة الليل ، هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً) أى لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفي سكون الليل ، وقوله : (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) ، فيكون وقته كله مشغولاً ، إما للدنيا وإما للدين .

وفي قوله : (فإذا فرغت فانصب) حل لمشكلة الفراغ التي شغلت

العالم حيث لم تترك للمسلم فراغاً في وقته ، لأنه إما في عمل للدنيا ، وإما في عمل للآخرة .

وقد روى عن ابن عباس : « أنه مرّ على رجلين يتصارعان فقال لهما : ما بهذا أمرنا بعد فراغنا » .

وروى عن عمر أنه قال : « إني لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سهيلاً ، لا في عمل دنيا ولا دين » ولهذا لم يشكُ للصدر الأول فراغاً في الوقت .

ومما يشير إلى وضع الصدر الأول ، مارواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها - وأنا يومئذ حديث السن - : « أ رأيت قول الله تعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) ، فما على الرجل شيء ألا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : كلا لو كان كما تقول لسكانت ، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » .

فانظر رحمك الله وإياي ، فيم يفكر حديث السن ، وكيف يستشكل معاني القرآن ، فثله لا يوجد عنده فراغ .

تفبييه

ذكر الألوسي في قوله تعالى : (فانصب) قراءة شاذة بكسر

الصاد ، وأخذها الشيعة على الفراغ من النبوة ، ونصب على إماما ، وقال : ليس الأمر متعينا بعلى فالسنى يمكن أن يقول : فانصب أبا بكر ، فإن احتج الشيعى بما كان فى غدیر حم ، احتج السنى بأن وقته لم يكن وقت الفراغ من النبوة .

بنى إن قوله صلى الله عليه وسلم : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » كان بعده ، وفى قرب فراغه صلى الله عليه وسلم من النبوة ، إذ كان فى مرضه الذى مات فيه .

فإن احتج الشيعى بالفراغ من حجة الوداع ، رده السنى بأن الآية قبل ذلك انتهى .

وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها ، فيكفى رد احتجاجهم أنها شاذة ، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، لا لقريئة صارفة ولا علاقة رابطة .

ومن اللعب فى التأويل فى هذه الآية ، ما يفعله بعض العوام : رأيت رجلا عامياً عادياً ، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة ، أى بدلة كاملة ، فقال له رجل : ما هذه النصبة يا فلان ؟ فقال له : لما فرغت من عملى نصبت ، كما قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب) .

كما سمعت آخر يتوجع لثة ما فى يده ، ويقول لزميله : ألا تعرف

لى شخصاً أنصب عليه ، أى آخذ قرضه منه ، فقلت له : ولم تنصب عليه ؟ والنصب كذب وحرام . فقال : إذا لم يكن عند الإنسان شيء ، ويده خالية فلا بأس ، لأن الله قال : (فإذا فرغت فانصب) ، وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة لجهلهم ، أو أصحاب الأهواء لطمعهم

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

التقديم هنا مشعر بالتخصيص وهو كقوله تعالى : (إياك نعبد) أى لا نعبد غيرك : وهكذا هنا لا ترغب إلى غيره سبحانه ، كأنه يقول : الذى أنعم عليك بكل ما تقدم ، هو الذى ترغب فيما عنده لا سواه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سَيْنِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ .

التين هو الثمرة المعروفة التي لا عجم لها ولا قشرة ، والزيتون هو كذلك الثمرة التي منها الزيت ، وطور سينين هو جبل الطور الذي ناجى موسى عنده ربه ، والبلد الأمين هو مكة المكرمة ، والواو للقسم .

وقد اختلف في المراد بالتسم به في الأول ، والثاني التين والزيتون ، واتفقوا عليه في الثالث والرابع على ما سيأتي .

أما التين والزيتون ، فمن ابن عباس رضى الله عنهما « أنهما الثمرتان المعروفتان » وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد . كلهم يقول : التين : تينكم الذي تأكلون ، والزيتون : زيتونكم الذي تمصرون .

ومن كذب : التين : مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس ، وكذا عن قتادة . وأرادوا منابت التين والزيتون بقربنة الطور

والبلد الأمين ، على أن منبت التين والزيتون لميسى ، وطور سينين لموسى
والبلد الأمين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن حل التين والزيتون على منابتهما لا دليل عليه ، فالأولى :
إبقتلوهما على أصلهما ، ويشهد لذلك الآتى :

أولا التين : قالوا : إنه أشبه ما يكون من الثمار بشمر الجنة ، إذ
لا عجم له ولا قشر ، وجاء عنه فى السنة « أنه صلى الله عليه وسلم
أهدى له طبق فيه تين ، فأكل منه ثم قال لأصحابه : فلو قلت :
إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فـسـكـاوه ،
فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس » ، ذكره الـيـسـابـورى ولم يذكر
من خرجه .

وذكره ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد ، قائلا : ويذكر عن أبي
الدرداء « أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين » وساق
النص المتقدم . ثم قال : وفى ثبوت هذا نظر .

وقد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس : للتين خواص ،
وقالوا : إنها مما تجمع محلا للقسم به ، وجزم ابن القيم : أنه المراد فى
السورة .

وبما ذكرنا من خواصه ، قالوا : إنه يجعل رمل الكلى والمثانة
ويؤمن من السموم ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ،
ويغسل الكبد والطحال ، وينقي الخلط البلغمي من المعدة ، ويغذي
البدن غذاء جيداً ، ويابس به يغذى وينفع العصب .

وقال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب ، قبل أخذ السم القاتل
نفع ، وحفظ من الضر ، وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن
الطش الكائن عن البلغم المالح ، ولا أكله على الريق منفعة
عجيبة .

وقال ابن القيم : لما لم يكن بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت
له ذكر في السنة ، ولكن قد أقسم الله به في كتابه ، لكثرة منافعه
وفوائده .

والصحيح : أن المقسم به هو التين المعروف . ١٠ .

وكما قال ابن القيم رحمه الله : لم يذكر في السنة لعدم وجوده
بالحجاز والمدينة ، فكذلك لم يأت ذكره في القرآن قط إلا في هذا
الوضع ، ولم يكن من منابت الحجاز والمدينة لمنافاة جوه لجوها ،
وهو وإن وجد أخيراً إلا أنه لا يهود فيها جودته في غيرها .

فترجح أن المراد بالتين هو هذا المأكول ، كما جاء من سمينا :
ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن .

أما الزيتون ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المقدمة ،
أن من أنواع البيان إذا اختلف في المعنى المراد ، وكان مجيء أحد
المعنيين أو المعاني المحتملة أكثر في القرآن ، فإنه يكون أولى بحمل
اللفظ عليه .

وقد جاء ذكر الزيتون في القرآن عدة مرات مقصوداً به تلك
الشجرة المباركة ، فذكر في ضمن الأشجار خاصة في قوله تعالى من
سورة الأنعام (وجنات من أعناب والزيتون والرمان - إلى قوله -
ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) وسماها بذاتها في قوله تعالى من
سورة المؤمنين (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ
لآكلين) وذكرها مع النخل والزرع في عبس في قوله تعالى :
(فأنبتنا فيها حباً ، وعنبا وقضباً وزيتوناً ونخلاً) وذكر من أخص
خصائص الأشجار ، في قوله في سورة النور في المثل العظيم المضروب
((الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح
في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دريئ يوقد من شجرة مباركة
زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور
على نور) . فوصفها بالبركة ووصف زيتها بأنه يكاد يضيء ، ولو لم

شمسه نار ، واختيارها لهذا المثل العظيم ، يحملها أهلاً لهذا القسم العظيم هنا .

أما طور سينين : فأكرم على أنه جبل الطور ، الذي ناجى الله موسى عنده ، كما جاء في عدة مواطن ، وذكر الطور فيها للتكريم وللقسم فن ذكره للتكريم قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن) ، ومن ذكره للقسام به ، قوله تعالى : (والطور وكتاب مسطور) .

وقد تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة الطور قوله ، وقد أقسم الله بالطور في قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين) . ٥١ .

أما البلد الأمين فهو مكة لقوله تعالى : (ومن دخله كان آمناً) فالأمين بمعنى الأمن ، أى من الأعداء ، أن يحاربوا أهله أو يغزوم ، كما قال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) والأمين بمعنى أمن جاء في قول الشاعر :

لم تملى يا أسم ويحك أنى حلفت يميناً لا أخون أميني

يريد : آمنى .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

هذا هو المقسم عليه ، والتقويم التعديل كافي قوله : (ولم يجعل له عوجاً ، قima) وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى أى شكلاً وصورة وإنسانية ، وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث . وروى عن على رضى الله عنه :

دواؤك منك ولا تشعر ودواؤك منك ولا تبصر
ونزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نقطة فعلقة إلى آخره في أكثر من موضع ، كما في قوله : (ألم يك نقطة من منى يمنى ، ثم كان علقه فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) .

وكذلك في هذه السورة التنبيه على البعث بقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) .

أما الجانب المعنوى فهو الجانب الإنسانى ، وهو المتقدم في قوله : (ونفس وما سواها) على ما قدمنا هناك ، من أن النفس البشرية هى مناط التكليف ، وهو الجانب الذى به كان الإنسان إنساناً ، وبهما كان خلقه فى أحسن تقويم ، ونال بذلك أعلى درجات التكريم : (ولقد كرمنا بنى آدم) .

والإنسان وإن كان لفظاً مفرداً إلا أنه للجنس بدلالة قوله :
 (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) ، وهذا مثل ما في سورة
 (والمعر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) فباستثناء الجمع
 منه ، علم أن المراد به الجنس .

والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان في أحسن تقويم ،
 يشعر أن المخاطب منكر لذلك ، مع أن هذا أمر ملموس محسوس ،
 لا ينكره إنسان .

وقد أجاب الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعابه في دفع إيهام
 الاضطراب على ذلك : بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات
 الإنكار ، عومل معاملة للمنكر ، كقول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رحمه وإن بنى عمك فيهم رماح

وأمارات الإنكار على المخاطبين ، إنما هي عدم إيمانهم بالبعث ،
 لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان ، لعرف منه أن القادر على خلقه
 في هذه الصورة ، قادر على بعثه .

وهذه المسألة أفرداها الشيخ في سورة الجاثية بتنبيه على قوله تعالى :
 (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) ، وتكرر

هذا البحث في عدة مواضع ، وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء في آخر يس ، (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

قيل : رد إلى الكبر والمهرم وضعف الجسم والعقل .

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمى إلى ترجان

كما في قوله تعالى : (ومن نمره ننكسه في الخلق) .

وذكر الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه هذا القول ، وساق معه قوله : (الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) ، وساق آية التين هذه (ثم رددناه أسفل سافلين) ، وقال : على أحد التفسيرين ، وقوله : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس رواه ابن جرير .

وقيل : رد النار إلى بسبب كفره ، وهذا مروى عن مجاهد

والحسن .

وقد رجح ابن جرير المعنى الأول ، وهو كما ترى ، ما يشهد له

القرآن في النصوص التي قدمنا ، واستدل لهذا الوجه من نفس السورة .
وذلك لأن الله تعالى قال في آخرها (فما يكذبك بعد بالدين) أى
بعد هذه الحجج الواضحة ، وهى بدء خلق الإنسان وتطوره إلى أحسن
أمره ، ثم رده إلى أخط درجات المعجز أسمل سافلين ، وهذا هو
المشاهد لهم ، محتج به عليهم .

أما رده إلى النار فأمر لم يشهده ولم يؤمنوا به ، فلا يصلح أن
يكون دليلاً يقيمه عليهم ، لأن من شأن الدليل أن ينقل من المعلوم
إلى المجهول والبهت هو موضع إنكارهم ، فلا محتج عليهم لإثبات
ما ينكرون بما ينكرونه ، وهذا الذى ذهب إليه واضح .

وما يشهد لهذا الوجه : أن حالة الإنسان هذه فى نشأته من نقطة ،
فعلقة ، فطفلاً ، ففلاماً ، فشبخاً ، وهرم ، وعجز . جاء مثلها فى البسات
وكلاهما من دلائل البعث ، كما فى قوله : (اعملوا إنما الحياة الدنيا
لعب ولهو - إلى قوله - كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج
فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من
الله ورضوان) ، وقوله : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه
مصفراً ثم يجعله حطاماً ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) .

فكذلك الإنسان ، لأنه كالبسات سواء كما قال تعالى : (والله

أنتبكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم
مأخراجاً .

ويكون الاستثناء إلا الذين آمنوا فأنهم لا يصلون إلى حالة
الخرف وأرذل العمر ، لأن المؤمن مهما طال عمره ، فهو في طاعة ،
وفي ذكر الله فهو كامل العقل ، وقد تواتر عند العامة والخاصة
أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته ، لا يصاب بالخرف ولا
الذهنيات .

وقد شاهدنا شيخ القراء بالمدينة المنورة للشيخ حسن الشاعر ،
لا زال على قيد الحياة بعد كتابة هذه الأسطر تجاوز المائة بكثير ،
وهو لا يزال يقرأ تلاميذه القرآن ، ويعلمهم القراءات العشر ، وقد
يسمع لأكثر من شخص يقرءون في أكثر من موضع وهو يضبط
على الجميع .

وقد روى الشوكاني مثله ، عن ابن عباس أنه قال ، ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم .

وعلى الأول : فالأجر هو الثواب ، إما بدوام أعمالهم لكمال

عقولهم ، وإما بأن الله يأمر الملائكة أن تسكب لهم من الأجر ما كانوا يعملونه في حال قوتهم من صيام وقيام ، وتصدق من كسبهم ومحو ذلك ، للأحاديث في حق المريض والسافر ، فيظل ثواب أعمالهم مستمرا عليهم غير مقطوع .

وعلى الثاني : فيكون الأجر هو النعيم في الجنة يعطونه ولا يمن عليهم ، ولا يقطع عنهم كما قال تعالى (أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا) .

تقييده

وهنا وجهة نظر من وجهين : وجه خاص وآخر عام .

أما الخاص : فإن كلمة رددناه ، فالرد يشعر إلى رد لأمر سابق ، والأمر السابق هو خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأحسن تقويم شامل لشكله ومعناه ، أى جسمه وإنسانيته ، فردة إلى أسفل سافلين ، يكون بعدم الإيمان كالحيوان بل هو في تلك الحالة أسفل دركاً من الحيوان ، وأشر من نفساً من الوحش ، فلا إيمان يحسكه ولا إنسانية تهذبه ، فيكون طاغية جباراً يميث في الأرض فساداً ، وعليه يكون الاستثناء ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيأيمانهم وعملهم الصالحات يترفعون عن السفالة ، ويرتفعون إلى الأعلى فلهم أجر غير ممنون .

والوجه العامة وهي الشاملة لموضوع السورة من أولها ابتداء من التين والزيتون وما معه في القسم إلى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) الآية .

فإنه إن صح ما جاء في قصة آدم في قوله : (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . روى المفسرون أن آدم لما بدت له سوءاته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من الورق ليستر نفسه ، وكلما جاء شجرة زجرته ولم تعطه ، حتى مرّ بشجرة التين فاعطته ، فأخلفها الله الثمرة مرتين في السنة ، وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاها لاقشر لها ولا عجم ،

وقد روى الشوكاني في أنها شجرة التين التي أخذ منها الورق . قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال « لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه » .

قل : وأخرج سميراني وعبد ابن حميد وابن جرير وابن النذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال : « كان لباس آدم وحواء كالظفر . وذكر الأثر . وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » قال : يزحان ورق التين ، فيجملانه على سوءاتهما .

وهذا النفل يكون ذكر التين هنا مع خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا سر لطيف جداً ، وهو إسماعيل الإنسان الآن ، أن جنس الإنسان كله بالإنسان الأول أبي البشر ، وقد خلقه الله في أحسن حالة حساً ومعنى ، حتى رفعه إلى منزلة إسجد الملائكة له وسكناه الجنة ، فمضى أعلى منزلة التكريم ، وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يظأ فيها ولا يضحى ، وظل كذلك على ذلك إلى أن أغواه الشيطان ونسى عهد ربه إليه ، ووقع فيما وقع فيه وكان له ما كان ، فدلاهما بفرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، فنزل إلى الأرض يحرث ويزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز ، حتى يجد لقمة العيش ، فهذا خلق الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين .

وهذا شأن أهل الأرض جميعاً ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون ، يرجوعهم إلى الجنة كارجع إليها آدم بالتوبة ، فقلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى .

وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى ، لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الآمن في الجنة ، فإن امتثلوا وأطاعوا (٢٢ - أضواء البيان ج ٩)

تمسوا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنها .

وهكذا تكون السورة ربطاً بين الماضي والحاضر ، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل ، فما يكذبك بمد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين . فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك ، حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد ، وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن يكفر ، اللهم بلى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴾ .

فالدين هو الجزاء كما في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) والخطاب قيل للرسول صلى الله عليه وسلم . وأن ما في قوله : فما هي بمعنى من أي ، فمن الذي يكذبك بمد هذا البيان ، بمعنى الجزاء والحساب ليلقى كل جزاء عمله .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

السؤال كما تقدم في (ألم نشرح) أي للاثبات ، وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : « اللهم بلى » كما سيأتي .

وأحكم الحاكمين ، قيل : أفعل تفضيل من الحكم أى أعدل الحاكمين ، كما فى قوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحدا) .

وقيل : من الحكمة ، أى فى الصنع والإتقان والخلق ، فيكون اللفظ مشتركا ، ولا يبعد أن يكون من المعنيين معاً ، وإن كان هو فى الحكم أظهر ، لأن الحكيم من الحكمة يجمع على الحكماء .

فعلى القول بالأمرين : يكون من استعمال المشترك فى معنييه معاً ، وهو هنا لا تعارض بل هما متلازمان ، لأن الحكيم لابد أن يعدل ، والعادل لا بد أن يكون حكيماً يضع الأمور فى مواضعها .

وقد بين تعالى هذا المعنى فى عدة مواطن كقوله تعالى (أم نجمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) ، الجواب : لا ، وكقوله (أم حسب الذين أخرجوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) ، وفى قوله (ساء ما يحكمون) بيان لعدم عدالتهم فى الحكم ، وبعبارة عن الحكمة .

ومعلوم أن عدم التسوية بينهم فى مماتهم أنه بالبعث والجزاء ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين فى صنعه وخلقه . خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأعدل الحكام فى حاسه لم يوّ بين الحسن والمساء .

وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذى لحديث أبى هريرة
رضى الله عنه مرفوعاً : « من قرأ والتين والزيتون ، قرأ أليس الله
مأحكم الحاكمين ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .

ومثله عن جابر مرفوعاً ، وعن ابن عباس قوله « سبحانك
اللهم ، فبلى » . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

في هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب ، والعام بالخاص ، والدليل بالدلول عليه ، وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك . وفي الواقع أنها كلها مسائل أساسية بالغة الأهمية عظيمة الدلالة .

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية : إنها وأمثالها من السور التي فيها المعجائب ، وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة ، ولا نستطيع إيفاءها حقها عجزاً وقصوراً .

وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية ، وفصلاً آخر في مباحث تتصل بها ، ولو أوردنا كل ما سمعنا مما تحمله ، لكان خروجاً عن موضوع الكتاب ، ولذا فإننا نقصر

القول على ما يتصل بموضوعه ، إلا ما جرى القلم به مما لا يمكن تركه ، وبالله تعالى التوفيق .

أما المسائل التسع التي ذكرت هنا ، فإننا نردها لنتقيد بها وهي :

أولا : الأمر بالقراءة ، بوجه لنبي أمي .

والثانية : كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافا للمخاطب صلى الله عليه وسلم باسم ربك .

الثالثة : وصف للرب الذي خلق بدلا من اسم الله ، واسم الذي يحيى ويميت أو غير ذلك .

الرابعة : خلق الإنسان بخصوصه ، بعد عموم خلق وإطلاقه .

الخامسة : خلق الإنسان من علق ، ولم يذكر ما قبل العلق من نطفة أو خلق آدم من تراب .

السادسة : إعادة الأمر بالقراءة مع وربك الأكرم ، بدلا من أي صفة أخرى ، وبدلا من الذي خلق المتقدم ذكره .

الثامنة : التعليم بالقلم .

التاسعة : تعليم الإنسان ما لم يعلم .

لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن ، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح ، فهي بحق افتتاحية الوحي ، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم ، والكلام على ذلك مستفيض في كتب التفسير والحديث والسيرة ، فلا موجب لإيراده هنا . ولكن نورد الكلام على ما ذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء الله .

أما المسألة الأولى قوله تعالى : (اقرأ) فالقراءة لفظة الإظهار ، والإبراز ، كما قيل في وصف الناقة : لم تقرأ جنيئا ، أى لم تفتح .

وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لفظة وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبي أى لا تعارض فيه ، لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو ، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام ، وهذا إبراز المعجزة أكثر ، لأن الأمل بالأمس صار مملا اليوم . وقد أشار السياق إلى نوعي القراءة هذين ، حيث جمع القراءة مع التعليم بالقلم .

وفي قوله تعالى : (اقرأ) بدء للنبوة وإشعار بالرسالة ، لأنه يقرأ كلام غيره .

وقوله تعالى : (باسم ربك) تؤكد لهذا الإشعار ، أى ليس من عندك ولا من عند جبريل الذي يقرئك .

وقد قدمنا الرد على كونه صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولا يقرأ

مكتوباً ، من أنه صيانة للرسالة ، كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغي له ، إذا لارتاب المبطلون .

كما قال تعالى : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) الآية . وذلك عند قوله تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) .

وهنا لم يبين ما يقرؤه ولكن مجيء سورة القدر بعدها بمثابة البيان لما يقرؤه وهى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ، وجاء بيان ما أنزل فى سورة المدخان (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) .

والشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى : (وعطك ما لم تكن تعلم) فكأنه فى قوة اقرأ ما يوحى إليك من ربك ، والمراد به هو القرآن بالإجماع .

المسألة الثانية قوله : (باسم ربك) أى اقرأ باسم ربك منشأ ومبتدأ القراءة باسم ربك ، وقد تسكلم المفسرون على الباء أى صلة ، ويكون اقرأ اسم ربك ، أى قل باسم الله ، كما فى أوائل السور .

وقيل : الباء بمعنى على ، أى على اسم ربك ، وعليه : فالقراءة محذوف .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن قوله : (باسم ربك) أى أن ماتقرؤه هو من ربك ، وتبلغه للناس باسم ربك ، وأنت مبالغ عن ربك على حد قوله : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى بوحي) .

وقوله : (ماعلى الرسول إلا البلاغ) أى عن الله تعالى .

وكتوله : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .

ونظير هذا فى الأعراف الحاضرة خطاب الحكيم ، أو ما يسمى خطاب العرش ، حينما يقول ملقيه باسم الملك ، أو باسم الأمة ، أو باسم الشعب ، على حسب نظام الدولة ، أى باسم السلطة التى منها مصدر التشريع والتوجيه السياسى .

وهنا باسم الله ، باسم ربك ، وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذى ينبى العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية والعناية ، إذ الرب يفعل لعبده ما يصلحه ، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخبرى الدنيا والآخرة ، وفى إضافته إلى الخطاب إيناس له .

المسألة الثالثة : وصف الرب بالذى خلق مع إطلاق الوصف ، وذلك لأن صفة الخلق هى أقرب الصفات إلى معنى الربوبية ، ولأنها

أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى خلقة ، وهي الصفة التي يسمون بها
(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) .

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) .

ولأن كل مخلوق لا بد له من خالق (أم خلقوا من غير شيء أم هم
الخالقون) ، وقد أطلق صفة الخلق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود
كله ، خالق كل شيء في قوله : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق
كل شيء) .

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) .

(هو الله الخالق الباري المصور) .

وتلك المسائل الثلاث : هي الأصول في الرسالة وما بعدها دلالة
عليها ، فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحي ، وباسم ربك بيان لجهة
التكليف ، والذي خلق تدليل لتلك الجهة ، أي الرسالة والرسول
والمرسل مع الدليل الجمل . ولا شك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا
بواحدة منها ، فكان لا بد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل .

ولما كانت جهة المرسل هي الأساس وهي المصدر ، كان التدليل
عليها أولاً ، فجاء التفصيل في شأنها بما يسمون به ويسلمونه في أنفسهم ،
وهي المسألة الرابعة

والخلاصة : خلق الإنسان من علق ، وهذا تفصيل يعد لإجمال بيان لبعض من السكل ، فالإنسان بعض مما خلق ، وذكره من ذكر العام بعد الخاص أولا ، ومن إلزامهم بما يسمون به ثم لانتقالهم مما يعلمون ، ويقرون به إلى مالا يعلمون وينكرون .

وفي ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له ، كذكر الروح بعد عموم الملائكة ، تنزل للملائكة والروح فيها ونحوه ، والإنسان هنا الجنس بدليل الجمع في علق جمع علقه ، ولأنه أوضح دلالة عنده ، ليستدل بنفسه من نفسه كما سيأتي .

وقوله (من علق) وهو جمع علقه ، وهي القطعة من الدم ، كالعرق أو الخيط بيان على قدرته تعالى ، وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحيانا فيما تلقى به الرحم ، ويعلمون بأنه مبدأ خلقه الإنسان .

فالقادر على إيجاد إنسان في أحسن تقويم من هذه العلقه ، قادر على جعلك قارئاً وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل ، كما أوجد الإنسان من تلك العلقه ولم يكن موجوداً من قبل ، ولأن الذي يتعمد تلك العلقه حتى تكتمل إنساناً يتعمدها بالرسالة .

وقد يكون في اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة

وجوده ، أن غيره من المخلوقات لم تعلم مبادئ خلقها كعلمهم بالإنسان ، ولأن الإنسان قد مرّ ذكره في السورة قبلها (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ، فبين أنه من هذه المخلوقة كان في أحسن تقويم ، ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله ، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به الله ، ولم يبدأ من النطفة أو التراب ، لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه ، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان ، فقد تنذف في غير رحم كالختم ، وقد تكون فيه ، ولا تكون مخلقة . ١١ .

وهذا في ذاته وجيه ، ولكن لا يبعد أن يقال : إن السورة في مستهل الوحي وبدايته ، فهي كالذي يقول : إذا كنت بدأت بالوحي إليه ولم يكن من قبل ، ولم يوجد منه شيء بالنسبة إليك ، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقه ، بعد أن لم يكن شيئاً .

وعليه يقال : لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي ، قد تركت أيضاً وهي فترة الرؤيا الصالحة ، كما في الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم كان أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصالحة ، يراها فتأتى كفتل الصبح » فكان ذلك إلهاماً للنبوّة وتمهيداً لها لمدة ستة أشهر ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة يراها

الرجل الصالح ، أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة ،
وهي نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحي ، ولكن الرؤيا
للصالح قد يراها الرجل الصالح ، ومثل ذلك تماماً فترة النطفة ، فقد
تكون النطفة ولا يكون الإنسان ، كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة ،
أما العلق فلا تكون إلا في رحم وقرار مكنون ، ومن ثم يأتي
الإنسان مخلقاً كاملاً ، أو غير مخلق على ما يقدر له .

فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان ، وكان مثلها
فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر ، ويبدأ
الدليل بما هو الواقع المسلم على أن الله تعالى هو الخالق ، والخالق
للإنسان من علقه ، فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل ، فالدليل
هو خلق الإنسان ، والمستدل به هو الإنسان نفسه ، كما في قوله
تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فيستدل لنفسه من نفسه على
قدرة خالقه سبحانه .

وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق ، كان بعده إقامة
الدليل على صحة النبوة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجاءت
للمسألة السادسة وهي إعادة القراءة في قوله : (اقرأ وربك الأكرم)
إذ أقام الدليل على أنك مرسل من الله تبليغ عنه وتقرأ باسمه ، فاعلم
أن تلك القراءة وهذا الوحي من ربك الأكرم ، والأكرم

قالوا : هو الذى يعطى بدون مقابل ، ولا انتظار مقابل ، والواقع أن مجيء الوصف هنا بالأكرم بدلا من أى صفة أخرى ، لما فى هذه الصفة من تلاؤم للسياق ، مالا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنفعة .

فأولا : رحمة الخليفة بهذه القراءة التى ربطت العباد بربهم . وكفى

وثانياً : نعمة الخلق والإيجاد ، فهما نعمتان متكاملتان : الإيجاد من العدم بالخلق ، والإيجاد الثانى من الجهل إلى العلم ، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه .

ثم تأتى المسألة الثامنة : وهى من الدلالة على النبوة والرسالة ، وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، سواء كان الوقف على : اقرأ ، وابتداء الكلام : وربك الأكرم الذى علم بالقلم . أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام . الذى علم بالقلم ، لأن من يعلم الجاهل بالقلم ، يعلم غيره بدون القلم بجامع التعليم بعد الجهل . فالقادر على هذا قادر على ذلك .

والقاسمة : بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذى علمه بالقلم .
نقال (علم الإنسان ما لم يعلم) وهذا مشاهد ملموس فى أشخاصهم

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً) .

فألفه الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله تعلمونهن مما علمه الله ، وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول مالم يكن يعلم ؟ وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة ، أى الرسالة والرسول والمرسل ، وهى أسس الدعوة والبعثة الجديدة .

وقد اشتهر عند الناس أنه نبيء « باقرأ » وأرسل « بالمدثر » ولكن فى نفس هذه السورة معنى الرسالة ، لما قدمنا من أن القراءة باسم ربك ، لإشعار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم ، ففيها إشارات الرسالة من أول بدء الوحي .

تنبيه

فى قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) مبحث التعليم ومورد سؤال ، وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه علم بالقلم وأنه علم الإنسان مالم يعلم ، فكان فيه الإشادة بشأن القلم ، حيث إن الله تعالى قد علم به ، وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم ، ثم أورده فى معرض التكريم فى قوله : (ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وعظم المقسم عليه وهو نعمة الله على (٢٣ - أضواء البيان ج ٩)

رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي ، يدل على عظم المقسم به ، وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحي وغيره .

وقد ذكر القلم في السنة أنواعاً متفاوتة ، وكلها بالغة الأهمية .

منها : أولها وأعلامها : القلم الذي كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، والوارد في الحديث « أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب » الحديث .

فعلى رواية الرفع ، يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالتدريج ، وبما قدر وجوده كله .

ثانيتها : القلم الذي يكتب مقادير العام في ليلة القدر من كل سنة ، للمشار إليه بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ثالثها : القلم الذي يكتب به الملك في الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل .

رابعها : القلم الذي بأيدي الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى بالكتابة كما في قوله :

(كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون) إذا قلنا إن الكتابة في ذلك تستلزم قلماً ، كما هو الظاهر .

رابعاً : القلم الذى بأيدى الناس يكتبون به ما يعلمهم الله ، ومن أهمها أقلام كتّاب الوحي ، الذين كانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتابة سليمان لبقيس .

وقوله تعالى : (الذى علم بالقلم) شامل لهذا كله ، إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره ، وعظيم المنّة به على الأمة ، بل وعلى الخليقة كلها .

وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة ، فلماذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم الذى أعلن عن هذا الفضل كله للقلم ! لم يكن هو كاتباً به ، ولا من أهله بل هو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، كما في قوله : (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم) .

والجواب : أنا أشرنا أولاً إلى ناحية منه ، وهى أنه أكل للمعجزة ، حيث أصبح النبي الأمى معلماً كما قال تعالى : (يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب الحكمة) .

وثانياً : لم يكن هذا النبي الأمى مُعَفِّلاً شأن القلم ، بل عفى به كل

للعناية ، وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتاباً للوحى يكتبون ما يوحى إليه
 بين يديه ، مع أنه يحفظه ويضبطه ، وتعهد الله له بحفظه وبضبطه
 فى قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) حتى الذى
 ينساه يموضه الله بخير منه أو مثله ، كما فى قوله تعالى : (ما ننسخ من
 آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) ووعد الله تعالى بحفظه فى
 قوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومع ذلك ، فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة
 كتاب ، وهذا غاية فى العناية بالقلم .

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة ، ومعهم تمة سبعة
 عشر شخصاً ، ثم لم يقتصر صلى الله عليه وسلم فى عنايته بالقلم والتعليم
 به عند كتابة الوحى ، بل جعل التعليم به أعم ، كما جاء خبر عبد الله
 ابن سميد بن العاص « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن
 يعلم الناس الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً » ذكره صاحب
 الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال « علّمت ناساً من
 أهل الصفة الكتابة والقرآن » .

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم ، الملوك إلى الإسلام
 بالكتابة كما هو معلوم .

وأبعد من ذلك ، ما جاء في قصة أسارى بدر، حيث كان يفادى بالمال من يقدر على الفداء ، ومن لم يقدر . وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ، فكثر الكتابة في المدينة بعد ذلك .

وكان ممن تعلم : زيد بن ثابت وغيره .

فإذا كان المسلمون وهم في بادية أمرهم وأحوج ما يكون إلى المال والسلاح ، بل واسترقاق الأسارى فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ، ليدل على أمرين :

أولهما : شدة وزيادة العناية بالتعليم .

وثانيهما : جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بالدين ، كما يوجد الآن من الأمور الصناعية ، في الهندسة ، والطب ، والزراعة ، والقتال ، ونحو ذلك .

وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك ، حتى كان عدد كتاب الوحي اثنين وأربعين رجلاً ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام ، وجاء النص على الكتابة في توثيق الدين في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تدابنتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) الآية ، وهي أطول آية في كتاب الله تعالى رسمت فيهم كتابة العدل الحديثة كلها .

وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه ، فقد وقع الكلام في تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال في التكليف والعلم ، فهل كن كذلك في تعلم الكتابة أم لا ؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

وقع الخلاف بسبب نصين في المسألة :

الأول : حديث الشفاء بنت عبد الله قالت « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة ، فقال لي : ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة ؟ » رواه المحدث في المنتقى عن أحمد وأبيه داود . وقال بعده : وهو دليل على جواز تعلم النساء الكتابة .

والثاني : حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقي مرفوعا . لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة - بمعنى النساء - وعلموهن الفزل وسورة النور « قال الشوكاني في نيل الأوطار ، على حديث المنهجي وحديث عائشة : إن حديث الشفاء دليل على جواز تعليمهن ، وحديث الهيثمي : محمول على من يخشى من تعليمها الفساد ، أدنى تعليم للكتابة والقراءة .

أما تعليم العلم فليس محل خلاف ، والواقع أن هذه المسألة

واضحة المعالم ، ' إذا نظرت كالآتي :

أولا : لاشك أن العلم من حيث هو خير من الجهل ، والعلم قسمان : علم سماع وتلقى ، وهذه سيرة زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاتشة كانت القدوة الحسنة الحسنة في ذلك في فقه الكتاب والسنة ، وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وهذا مشهور ومعلوم .

والثاني : علم تحصيل بالقراءة والكتابة ، وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها ، فمن رأى أن تعليمهم مفسدة منعه ، كما روى عن علي رضي الله عنه : أنه مرّ على رجل يعلم امرأة الكتابة . فقال : لا تزد للشر شراً .

وروى عن بعض الحكماء : أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة ، فقال : أفعى تستقى سما ، وأنشدوا الآتي :

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابه

هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطي :

يا قوم لم تخلق بنات الورى للدرس والطرس وقال وقيل .

لها علوم ولها غيرها فعلموها كيف نشر الغسيل
والثوب والإبرة في كفها طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعليمهن وموقفهن من زاوية واحدة . كما قال
الشاعر الآخر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول

مع أننا وجدنا في تاريخ المرأة نسوة شاركن في القتال ، حتى عائشة
رضي الله عنها كانت تسقى الماء ، وأم سلمة تداوى الجرحى ، إذ لا يؤخذ
قول كل منهما على عمومه .

قال صاحب التراتيب الإدارية : أورد القلنشدى أن جماعة من
النساء كن يكتبن ، ولم ير أن أحداً من السلف أنكر
عليهن ٥١٠ .

ومن المعلوم رواية « كريمة » لصحيح البخارى ، وهى من الرواية
المعتبرة عن المحدثين ، فقد رأيت بنفسى وأنا مدرس بالأحساء نسخة
لسنن أبى دواد عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين
الأيوبي ، وذكر صاحب التراتيب الإدارية قوله : وقد ثبت عن
كثير من نساء أهل الصحراء الأفريقية خصوصاً شنقيط : شنجط ، أى

شنقيط ، وهى المعروفة الآن بموريتانيا ، وتيتبكتو ، وقبيلة كنت
المعجب ، حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتى الشهير ، ختم مختصر
خليل للرجال ، وختمته زوجته فى جهة أخرى للنساء . ٥١ .

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن فى بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا ،
سمعنا ونحن فى مدينة أطار وهى على مقربة من مدينة شنقيط المذكورة ،
سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقاً مائتا فتاة يحفظن
المدونة كاملة .

وقد سمعت فى الآونة الأخيرة ، أنه كانت توجد امرأة تدرس فى
المسجد النبوى ، الحديث ، والسيرة ، واللغة العربية وهى
شنقيطية .

ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة
اليوم وفى كل يوم ، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة ،
ولكن المشكلة تكمن فى منهج تعليمها ، وكيفية تلقى العلم

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصراً على النواحي
التي يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى .

أما كيفية تعليمها ، فإن مشكلاتها إنما جاءت من الاختلاط فى

مدرجات الجامعات ، وفصول الدراسة في الثانويات في فترة المراهقة ، وقلة المراقبة ، وفي هذا يمكن الخطر منها وعليها في آن واحد ، فإذا كان لابد من تعليمها ، فلا بد أيضاً من النهج الذي يحقق الغاية منه ويضمن السلامة فيه ، والتوفيق من الله سبحانه .

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة ، فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف في البيوت ، فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة . والمدار في ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية .

وقد أوردت هذا المبحث استطراداً لبيان وجهة النظر في هذه المسألة ، اقتباساً من قوله تعالى : (الذي علم بالقلم) وبالله التوفيق

مسألة

بيان أولية الكتابة عامة والعربية خاصة ، وأول من خط بالقلم على الأرض :

جاء في المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية المطبوع سنة ١٣٠٤ مانصه : وإنما أصول الكتابة اثني عشر على ما قاله ابن خلكان ، وتبعه كثير من المؤلفين ، كالدميري في حياة الحيوان ، والحلي في السيرة وغيرها .

قال : إن جميع كتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب افتتت عشرة كتابة ، خمس منها ذهب من يعرفها وبطل استعمالها وهى : الحميرية ، والقبطية ، والبربرية ، والأندلسية ، واليونانية ، وثلاث منها فقد من يعرفها فى بلاد الإسلام ومستعملة فى بلادها ، وهى السريانية والفارسية والعبرانية والعربية . ا . كلامه باختصار وفيه ما فيه .

قال : والحميرية : هى خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولى ، وهى عاد إرم ، وكانت كتابتهم تسمى المسند الحميرى ، وكانت حروفها كلها منفصلة ، وكانوا يمتنون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا ياذنهم ، حتى جاءت دولة الإسلام ، وليس بجميع اليمن من يكتب ويقرأ .

وقال المقرئى فى الخطط : القلم المسند ، هو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد . ا .

والمعروف الآن أن الحروف المستعملة فى الكتابة فى العالم كله بعرف النظر عن اللغات المنطوق بها هى ثلاثة فقط ، الخط العربى بحروف ألف باء وبها لغات الشرق . والحروف اللاتينية وبها لغات أوروبا والحروف الصينية .

أما اللغات ، وهى فوق ألفى لغة « والأمهرية بحرف قريب من اللاتينى » .

أما أولية الكتابة العربية ، فقال صاحب المطالع النهرية : فقد اختلفت الروايات فيها ، كما قاله الحافظ السيوطي في الأوائل .

وكذا في المزهري في النوع الثاني والأربعين ، قال : إنه يرى أن آدم عليه السلام أول من كتب بالقلم ، وأن الكتابات كلها من وضعه ، كان قد كتبها في طين وطبعه ، يعني أحرقه ودفنه قبل موته بثلاثمائة سنة ، وبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه ، وكانت اثني عشر كتاباً ، فتعلموه بإلهام إلهي .

وقيل : إن أول من خط بالعربي إسماعيل عليه السلام . ١ هـ .
وقد أطلال السيوطي في المزهري الكلام في هذه المسألة ، نقلا عن ابن فارس الشدباي .

وعن المسكري عن الأوائل في ذلك أقوال ، فقيل لإسماعيل ، وقيل : مرار بن مرة ، وهما من أهل الأنبار ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كفيت أبا جاد وخطي مرامز وصورت مربالي ولست بكاتب

وقيل : أول من وضعه أبجد ، وهوز وخطي ، وكلمن ، وصدفص ، وقرشت ، وكانوا ملوكا فسمى الهجاء بأسمائهم .

وذكر عن الحافظ أبي طاهر السلفي بسنده عن الشعبي قال :
 أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلم من أهل
 الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار .

وقال أبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف : حدثنا عبد الله
 ابن محمد الزهري حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال : سألتنا
 المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : تعلمنا من أهل الحيرة ،
 وسألنا أهل الحيرة : من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار ،
 ثم قال ابن فارس : والذي نقوله إن الخط توقيفي ، وذلك لظاهر قوله
 تعالى : (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وقوله : (ن والقلم وما يسطرون) .

وإذا كان هذا فليس ببعيد ، أن يوقف الله آدم أو غيره من
 الأنبياء عليهم السلام على الكتابة ، فأما أن يكون شيئاً اخترعها
 اخترعه من تلقاء نفسه ، فهذا شيء لا نعلم صحته إلا من خبر صحيح .

قال السيوطي : قلت يؤيد ما قاله من التوقيف ، ما أخرجه ابن
 شقة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قول : « أول كتاب
 أنزله الله من السماء أبا جاد » .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول من خط بالقلم لإدريس عليه السلام » . ٥١٠ .

وقد أطلال النقول في ذلك مما يرجع إلى الأول ، وليس فيه نقل صحيح يقطع به .

وقد أوردنا هذه النبذة بخصوص كلام ابن فارس ، من أن تعليم الكتابة أمر توقيفي ، وما استدلل به السيوطي من أول كتاب أنزله الله من السماء ، فإن في القرآن ما يشهد لإمكان ذلك ، وهو أن الله تعالى أنزل الصحف لموسى مكتوبة .

وفي الحديث « إن الله كتب الألواح لموسى بيده ، وغرس جنة عدن بيده » .

وإذا كان موسى تلقى ألواحاً مكتوبة ، فلا بد أن تكون الكتابة معلومة له قبل إنزالها ، وإلا لما عرفها .

أما المشهور في الأحرف التي نكتب بها الآن ، فكما قال السيوطي في المزهري ، ونقله عنه صاحب المطالع المصرية ما قصه :

المشهور عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبي عن عوانة ، قال : أول من كتب بخطنا هذا . وهو الجزم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وعامر بن حدره . كما في القاموس . وهم من عرب طيء تعلموه

من كتاب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علوه أهل الأنبار ،
ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن
عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكانت
له صحبة بحرب بن أمية فيعلم حرب منه ، ثم سافر معه بشر إلى
مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي حفيان . ففهم منه جماعة
من أهل مكة .

فهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام .

ولذا قال رجل كندى من أهل دومة الجندل ، يئن على قريش
بذلك :

لا تجمعدوا نساء بشر عليكم فقد كان ميمون النقية أزهر
أناكم بخط الجزم حتى حفظتموا من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأثقتموا ما كان بالمال مهملا وطأمنتوا ما كان منه مهترا
فأجريت الأقاليم عودا وبداءة وضاهيتم كتاب كسرى وقهصرا
وأغنيتم عن مسند إلى حميرا ومازبرت في الصحف أقلام حميرا

قال : وكذلك ذكر النووي في شرح مسلم نقل عن الفراء ، أنه
قال : إنما كتبوا الربا في الصحف بالواو ، لأن أهل الحجاز تعلموا

الخط من أهل الحـيرة ، ولقـتـهم الربـوا ، فـعلمـوهم صـورة الخط على لقـتـهم . ٥١ .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) لا يمنع تعليمه تعالى بغير القلم ، كما فى قصة الخضر مع موسى عليه السلام فى قوله تعالى : (فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً) .

وكا فى حديث « نفث فى روعى أنه لن تموت نفس ، حتى تستكمل رزقها وأجلها » الحديث .

وكا فى حديث الرقية بالفاتحة لمن لدغته العقرب فى قصة السرية المعروفة ، فلما سأله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنها رقية ؟ » قال : شئ نفث فى روعى .

وحديث علىّ لما سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم ؟ قال : لا ، إلا فهم ما يؤتيه الله من شاء فى كتابه . وما فى هذه الصحيفة » .

وقوله : وانتقوا الله ويعلمكم الله . نسأل الله علم ما لم نعلم ، والعمل بما نعلم . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْفَانٌ . أَلَمْ يَرَأَهُ اسْتَفْتَى ﴾ .

ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان ، ولقظ الإنسان هنا عام ، ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغنى ولا يطغى ، فيكون هذا من العام الخصوص ، ومخصصه إما من نفس الآية أو من خارج عنها ، ففي نفس الآية ما يفيد قوله تعالى : (أن رآه) أى إن رأى الإنسان نفسه ، وقد يكون رأيا وإما ويكون الحقيقة خلاف ذلك ، ومع ذلك يطغى ، فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان .

ولذا جاء في السنة : ذم المائل المتكبر ، لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى ، فهو معنى في نفسه لا بسبب غناه .

أما من خارج الآية ، فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) ، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان ، وكما فى قوله (الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلا) الآية .

ومفهومه : أن من لم يؤثر الحياة الدنيا ، ولم يحسب أن ماله أخذه ، لن يظفيه ماله ولا غناه ، كما جاء فى قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بنى إسرائيل .

وقد نص القرآن على أوسع غنى فى الدنيا فى نبي الله سليمان ،

آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع هذا قال : (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردها عليّ) الآية .

وقصة السحابة الموجودة في الموطأ : لما شغل بيستانه في الصلاة ، حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان ، ينفذ منه ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « يا رسول الله : إني فنتت بيسقاني في صلاتي ، فهو في سبيل الله » فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطفيان ، ولكن إذا محبه إثارة الحياة الدنيا على الآخرة ، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى . إن النفس لأماراة بالسوء . وأنه لا يبق منه إلا التهذيب بالدين كما قال تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) الآية .

وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) ، وكذلك قال قارون (إنما أوتيته على علم عندى) ، وقال : ثالث الثلاثة من بنى إسرائيل « إنما ورثته كابرأ عن كابر ، بخلاف السلم » إلى آخره . فلا يزيد غناه إلا تواضعاً وشكراً للنعمة ، كما قال نبي الله سليمان (قال هذا من فضل ربي ليهلوني بالشكر أم أكفر ، ومن

شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم) وقد نص
في نفس السورة أنه شكر الله (فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب
أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل
صالحا ترضاه ، وأدخلكم برحمتك في عبادك الصالحين) .

وفي العموم قوله : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة . قال
رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن
أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من
المسلمين) .

وقد كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب
للال الوفير فلم يزدحم إلا قريبا لله ، كعثمان بن عفان رضي الله عنه ،
وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم ، وفي الآية ربط لطيف بأول
السورة ، إذا كان خلق الإنسان من علق ، وهي أحوج ما يكون
إلى لطف الله وعنايته ورحمته في رحم أمه ، فإذا بها مضفة ثم عظام ،
ثم تسكس لحما ، ثم تنشأ خلقا آخر ، ثم يأتي إلى الدنيا طفلا
رضيما لا يملك إلا البكاء ، فيجري الله له نهري من لبن أمه ،
ثم ينبت له الأسنان ، ويفتق له الأمعاء ، ثم يشب وبصير غلاما
يافعا ، فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية ، فإذا هو ينسى
كل ما تقدم ، وينسى حتى ربه ويطنى ويتجاوز جده حتى مع الله

خالقه ورازقه ، كما رد عليه تعالى بقوله : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) الآية .

ومما فى الآية من لطف التعبير قوله تعالى : (أن رآه استغنى) أى أن الطغيان الذى وقع فيه عن وهم ، تراءى له ، أنه استغنى سواء بماله أو بقوته . لأن حقيقة المال ولو كان جبالا ، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق .

وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية ، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله ، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه .

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس ، أن الغنى الشاكر أعظم من الفقير الصابر ، لأن الغنى موجب للطغيان .

وقد قال بعض الناس : الصبر على العافية ، أشد من الصبر على الحاجة .

قوله تعالى : (لَنْ يَنْتَهِيَ لَنْسَقَمَا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَذِبِيَّةٍ خَاطِئَةٍ) .

قال الشيخ رحمه الله تعالى عليه وعليه في دفع إيهام الاضطراب :
أسند الكذب إلى الناصية ، وفي مواضع أخرى أسنده إلى غير
الناصية ، كقوله : (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات
الله وأولئك هم الكاذبون) .

وذكر الجواب بأنه أطلق الناصية وأراد صاحبها على أسلوب
لإطلاق البعض وإيراد الكل ، وذكر الشواهد عليه من القرآن
كقوله تعالى : (تبت يدا أبي لهب وتب) .

والذي ينهى التنبيه عليه من جهة البلاغة : أن البعض الذي
يطلق ويراد به الكل ، لا بد في هذا البعض من مزيد مزية المعنى
المساق فيه الكلام .

فمثلا هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكذبه ، فجاء ذكر
لِلناصية وهي مقدم شعر الرأس ، لأنها أشد نكارة على صاحبها
ونكالا به ، إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلة وخزيا .

فكانت هي هنا أنسب من اليد أو غيرها ، بينما في أبي لمب تطاول بماله ، والفرض مذمة ماله وكسبه الذي تطاول به ، واليد هي جارحة الكسب وآلة التصرف في المال ، فكانت اليد أولى فيه من الناصية .

وهكذا كما يقولون : بث الأمير عيونه : يريدون جواسيس له ، لأن المهن من الإنسان أهم ما فيه لمهمته تلك . ولم يقولوا : بث أرجله ولا رؤوسا ولا أيد ، لأنها كلها ليست كالمهن في ذلك .

ومن هذا القبيل (قلوب يومئذ واجفة) ، (يا أيتها النفس الطمئنة) .

لأن القلب هو مصدر الخوف والنفس هي محط الطمأنينة ، على أن النفس جزء من الإنسان ، وهكذا ، ومنه الآتي (واسجد واقترب) أطلق السجود وأراد الصلاة ، لأن السجود أخص صفاتها . قوله تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .

ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وقوله : في وصف أصحابه رضي الله عنهم : (تراهم ركعاً سجداً ييقنون فضلاً من الله ورضواناً) فقوله :

(يبتغون فضلا من الله ورضوانا) في معنى يتقربون إليه يبين قوله :
(واسجد واقترب) .

وهذا مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله ، حيث
وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول الأمر ، كما بين تعالى
في قوله : (واستمعوا بالصبر والصلاة) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد إلى الله
وهو ساجد » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

الضمير في أنزلناه للقرآن قطعاً .

وحكى الألوسي عليه الإجماع ، وقال : ما ينبغي أن هناك قولاً
ضعيفاً لا يستبر من أنه لجبريل .

وما قاله عن الضعف لهذا القول ، يشهد له السياق ، وهو قوله
تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) .

والمشهور : أن الروح هنا هو جبريل عليه السلام ، فيكون الضمير
في أنزلنا لغيره ، وجيء بضمير النخبة ، تعظيماً لشأن القرآن ، وإشماراً
بملا قدره .

وقد يقال : ذكر سورة القدر قبلها مشعرة به في قوله (اقرأ باسم
ربك) ثم جاءت (إنا أنزلناه) أى القرآن للقراء والضمير المتصل
في إنا ، ونا في إنا أنزلناه مستعمل للجمع وللتعظيم ، ومثلها نحن ،
وقد اجتمعنا في قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) والمراد بهما هنا
التعظيم قطعاً لاستحالة التمدد أو لإرادة معنى الجمع .

فقد صرح في موضع آخر باللفظ الصريح في قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) والمراد به القرآن قطعاً ، فدل على أن المراد بذلك الضمائر تعظيم الله تعالى .

وقد بشر بذلك المعنى وبالاختصاص بتقديم الضمير المتصل إنا ، وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه ، ومثله (إنا أعطيناك الكوثر) ، وقوله (إنا أرسلنا نوحاً) (إنا نحن نحي ونميت) وإزال القرآن منه عظمى .

وقد دل على تعظيم المنة وتعظيم الله سبحانه في قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) ، فقال : كتاب أنزلناه بضمير التعظيم ، ثم قال في وصف الكتاب : مبارك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية من هذه (كتاب أنزلناه إليك مبارك) .

والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الأفراد ، فمن صيغ الجمع ما تقدم ، ومن صيغ الأفراد قوله (إني جاعل في الأرض خليفة) ، وقوله (إني خالق بشرأ من طين) ، وقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) .

ويلاحظ في صيغ الأفراد : أنها في مواضع التعظيم والإجلال ، كالأول في مقام خلق البشر من طين ، ولا يقدر عليه إلا الله .

والثاني : في مقام أنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة ، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه ، فسواء جرى بضمير بصيغة الجمع أو الأفراد ، ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها ، راصل الوضع أو بالقربة في السياق .

ثم اختلف في المنزل ليلة القدر ، هل هو الكل أو البعض ؟

ف قيل : وهو رأى الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط أى بداية الوحي بالقرآن ، وهو مروى عن ابن عباس ، قال : « ثم تعالى نزول الوحي ، بعد ذلك وكان بين أوله وآخره عشرون سنة » .

وقيل : المنزل في تلك الليلة ، هو جميع القرآن جملة واحدة ، وكله إلى سماء الدنيا ، ثم صار ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً حسب الوقائع .

وهذا الأخير هو رأى الجمهور كما قدمنا ، وقد اختاره الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وحكاه الألوسى وحكى عليه الإجماع .

وعن ابن حجر في فتح البارى ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيه بين القولين الأخيرين ، وهو أنه لا منافاة بين القولين ، ويمكن الجمع بينهما ، بأن يكون نزل جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، وبدء نزول أوله (اقرأ باسم ربك) في ليلة القدر .

وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامي حول كيفية نزول القرآن ، وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن ، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ ، وأن الله لم يتكلم به ، عند نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك ، وكتب جوابه وطبع ، فكان كافياً . وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبين أن الله تعالى تكلم به عند وحيه ، ورد على كل شبهة في ذلك .

والواقع أنه لا تعارض كما تقدم ، بين كونه في اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة ، ونزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً ، لأن كونه في اللوح المحفوظ ، فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة ، ومن جملة ذلك القرآن الذي سينزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا ، فهو بمثابة نقل جزء مما في اللوح وهو جملة القرآن ، فأصبح القرآن موجوداً في كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه ، وموجوداً في سماء الدنيا ثم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً .

ومعلوم أنه الآن هو أيضاً موجود في اللوح المحفوظ ، لم يخل منه

اللوح ، وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجماً بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لأن نزل بالتضميف تدل على التكرار كقوله (تنزل الملائكة) أى فى كل ليلة قدر .

وقد جاء (أنزلناه) فتدل على الجملة .

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله : كأنه سلسلة على صفوان ينغدم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » الحديث فى صحيح البخارى .

وفى أبى داود وغيره « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماوات سلسلة كجبر السلسلة على الصفوان » .

وعلى هذا يكون القرآن موجوداً فى اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون ، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا جملة فى ليلة القدر ، ثم نزل منجماً فى عشرين سنة . وكلما أراد الله إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله ، فيسمعه جبريل عليه السلام عن الله تعالى . ولا منافاة بين تلك الحالات للثلاث . والله تعالى أعلم .

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحي وتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي .

وقيل : معنى (أنزلناه في ليلة القدر) أى أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر تعظيماً لها ، فلم تكن ظرفاً على هذا الوجه .

والواقع : أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكنًا إلا أن ما بعده ينفى عنه ، لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلاً ، وهو ما بعدها مباشرة في قوله : (وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) إلى آخر السورة .

وعليه ، فيكون أول السورة في شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله ، وآخر السورة في ليلة القدر وبيان منزلتها .

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمه ، ولكن جاء في القرآن ما يبين الشهر التي هي فيه ، وهو شهر رمضان لقوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان بيان ذلك ، وأنها الليلة التي فيها يبرم كل أمر حكيم ، وليست ليلة الفصف من شعبان كما يزعم بعض الناس .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان الحكمة من إنزاله

مفرقاً عند قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .
 القدر: الرفعة ، والقدر : بمعنى المقدار .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء
 ووجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى القدر الشرف والرفعة ، كما تقول العرب : فلاق ذو قدر ، أي رفعة وشرف .

الوجه الثاني : أنها سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا) .
 وهذا المعنى قد ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان من الأضواء .

والواقع أن في السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة ، وهو قوله : (وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) .

فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كقوله (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة) ، وقوله (خير من ألف شهر) فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أي فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

وأيضاً كونها اختصت بإنزال القرآن فيها ، وبتنزل الملائكة والروح فيها ، وبكونها سلاماً هي حتى مطلع الفجر ، لفيه الكفاية بما لم تختص وتشاركها فيه آيلة من ليل إلى السنة .

وعليه : فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر ، لكونها محلاً لتقدير الأمور في كل سنة ، وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها ، والله تعالى أعلم ، تذكير بنعمة كبرى .

إذا كانت أعمال العبد تنضعف في تلك الليلة ، حتى تكون خيراً من ألف شهر ، كما في هذا النص الكريم . فإذا صادفها العبد في المسجد النبوي يصلي ، وصلاة فيه بألف صلاة ، فكأن تكون النعمة وعظم المنة ، من المنعم المتفضل سبحانه ، إنه لما يعلى الهمة ويعظم الرغبة .

وقد اقتصرنا على ذكر المسجد النبوي دون المسجد الحرام ، مع زيادة المضاعفة فيه ، لأن بعض المفسرين قال بمضاعفة السيئة فيها .

كذلك أي أن المعصية في ليله القدر كالمعصية في ألف شهر ، . والمسجد الحرام يحاسب فيه العبد على مجرد الإرادة ، فيكون الخطر أعظم ، وفي المدينة أسلم .

ولعل مما يؤيد ذلك أن ليالى القدر كلها ، كانت لرسول الله

صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وقد أثبتتها أهل السنة كافة ، وادعت الشيعة نسخها ورفعها كلية ، وهذا لا يلتفت إليه لصحة النصوص وشبه المتواترة .

تنبيه

لم يأت تحديد لتلك الليلة من أى رمضان تكون ، وقد أكثر العلماء في ذلك القول وإيراد النصوص .

فالأقوال منها على أعم ما يكون ، من أنها في عموم السنة ، وهذا لم يأت بجديد ، وهو عن ابن مسعود وإنما أراد الاجتهاد .

ومنها : أنها في عموم رمضان ، وهذا حسب عموم نص القرآن .

ومنها : أنها في العشر الأواخر منه ، وهذا أخص من الذى قبله .

ومنها : أنها في الوتر من العشر الأواخر ، وهذا أخص من الذى قبله .

ومنها : أنها في آحاد الوتر من العشر الأواخر .

غفيل : في إحدى وعشرين .

وقيل : ثلاث وعشرين .

وقيل : خمس وعشرين .

وقيل : سبع وعشرين .

وقيل : تسع وعشرين .

وقيل : آخر ليلة من رمضان على التعمين ، وفي كل من ذلك
نصوص .

ولكن أشهرها وأكثرها وأصحها ، ما جاء أنها في سبع وعشرين ،
وإحدى وعشرين ، ولا حاجة إلى سرد النصوص الواردة في كل
ذلك ، فلم يبق كتاب من كتب التفسير إلا ذكرها ، ولا سيما ابن
كثير والقرطبي .

تنبيه

إذا كانت كل النصوص التي وردت في الوتر من المشر الأواخر
صحيحة ، فإنه لا يبعد أن تكون ليلة القدر دائرة بينها ، وليست
بلازمة في ليلة منها ولا تخرج عنها ، فقد تكون في سنة هي ليلة
إحدى وعشرين ، بينما في سنة أخرى ليلة خمس أو سبع وعشرين ،

وفي أخرى ليلة ثلاث أو تسع وعشرين ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

وقد حكى هذا الوجه ابن كثير عن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، وقال : وهو الأشبه ، والله تعالى أعلم .

وقد قيل : إنه صلى الله عليه وسلم قد أنسيها ، لتجتهد الأمة في الشهر كله أو في العشر كلها ، وما يؤكد أنها في العشر الأواخر اعتكافه صلى الله عليه وسلم ، التماساً لليلة القدر .

وقد جاء في فضلها ما استفاضت به كتب الحديث والتفسير ، ويكفي فيها نص القرآن الكريم .

وفي هذه الليلة مباحث عديدة يطول تنبهها ، منها ما يذكر من أماراتها .

ومنها : محاولة البعض استخراجها من القرآن .

ومنها : علاقتها بحكم بنى أمية ، وليس على شيء من ذلك نص يمكن التعميل عليه ، لذا لا حاجة إلى إيراده ، اللهم إلا ما جاء في بعض أمارات نهارها صبيحتها ، حيث جاء التنويه عن شيء منه في الحديث « أرويتني أسجد صبيحتها في ماء وطين » .

فذكروا من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء ، وقالوا :

لأن أنوار الملائكة عند صعودها ، تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء ، وهذا مروي عن أبي في صحيح مسلم .

ومنها : اعتدال هوائها وجوها ونحو ذلك ، وما يمكن أن يكون له صلة بالسورة ذاتها ، ما حكاه ابن كثير أن بعض السلف ، أراد استخراجها من كتاب الله في نفس السورة ، فقال : إن كلمة هي في قوله : (سلام هي) تقع السابعة والعشرين من عدة كلماتها ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

وقيل أيضا : إن حروف كلمة ليلة القدر تسعة أحرف ، وقد تكررت ثلاث مرات ، فيكون مجموعها سبعة وعشرين حرفاً ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

ولعل أصوب ما يقال : هو ما قدمنا من أنها تقصّل في ليالي الوتر من الشهر الأواخر ، ولا تخرج عنها . والله تعالى أعلم^(١) .

(١) ومن أمّ مباحثها ما جاء عن عائشة رضى الله عنها « ماذا أقول إن أنا صادقها يا رسول الله ؟ قال : قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » ، وهذا على إيجازه جامع لخبري الدنيا والآخرة ، فالمأفية في الدنيا سعادة ، وفي الآخرة نجاة .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا ﴾

قيل : الروح هو جبريل ، كما في قوله : (فنفضنا فيها منه روحنا) ويكون فيها أى في جماعة الملائكة ، أو معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام .

وقيل : إن الروح نوع من الملائكة مستقل ، ويكون فيها ظرف للنزول أى في تلك الليلة .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر ، والذي يظهر أنه شامل لهما معا ، لأن الأمر من الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .

ويشهد له ما جاء في شأنها في سورة الدخان (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا) .

والذي يفرق من الأمر ، هو أحد الأمور . حيث يفصل بين الخير والشر والضر والنفع إلى آخره ، ثم قال : (أمراً من عندنا) كما أشار إليه السياق (لا إله إلا هو يحيى ويميت) ، فكل أمر من

الأمور يقتضى أمراً من الأوامر ، وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ
للمشركة المستعملة في معنيها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

قيل - سلام ، هي أى إن الملائكة تسلم على كل مؤمن لقيته -

وقيل : سلام ، هي أى كل أمر فيها فهو سلام ، ولا يصاب أحد
فيها بسوء ، وعلى كل فلا تعارض بين القولين ، فالأول جزء من
الثانى ، لأن الثانى يجعلها ظرفاً لكل خير ، وينفى عنها كل شر ،
ومن الخير العظيم ، سلام الملائكة على المؤمنين .

لطيفة

كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار ، مشعر بفضل
اختصاص الليل .

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره ، فمن القرآن قوله تعالى :
(سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً) ، ومنه قوله (ومن الليل فتهجد به
ناظراً لك) (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود إن ناشئة الليل
هي أشد وطأً وأقوم قيلاً) . وقوله : (كانوا قليلاً من الليل
ما يجمعون) .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان ثلث الليل
 الآخر ، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » الحديث .
 وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية ، وبتجليات
 الرب سبحانه لعباده ، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون
 الليل ، وزهفته أقوى على استحضار القلب وصفاته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّيْنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البينة

قال الألوسي : وتسمى سورة القيامة ، وسورة البلد ، وسورة المنافكين ، وسورة البرية ، وسورة لم يكن .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْذَرِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ : رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ .

ذكر هنا الذين كفروا ، ثم جاءت من ، وجاء بعدها أهل الكتاب والمشركون ، مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلا من أهل الكتاب والمشركون ، كما يشعر مرة أخرى أن المشركون لبسوا من أهل الكتاب لوجود المعطف ، وأن أهل الكتاب لبسوا من المشركون .

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير ، وانفقوا

على : أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وأن المشركين هم عبدة الأوثان ، والكفر يجمع القسمين .

وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى ، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضاً أم لا ؟

فبين الفريقين عموم وخصوص ، عموم في الكفر وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى ، وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان .

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضاً ، كما في قوله تعالى : (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكاً .

وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية وقال : « وهل كبر إشراكاً من قولها : (اتخذ الله ولداً) » فهو وإن كان مخافتاً للجمهور في منع الزواج من الكتابيات ، إلا أنه اعتبرهن مشركات .

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك ، هل يشمل أهل الكتاب أم لا ؟ مع أننا وجدنا فرقاً في الشرع في معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين ، فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين ، وأحل نكاح الكتابيات ولم يحلها من المشركات ، كما قال تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) .

وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) .

وقال : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) بين ما في حق الكتابيات قال : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتهم أجورهن) فكان بينهما مغايرة في الحكم .

وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى : (وقالت اليهود عزيز ابن الله) المتقدم . ذكرها جمعا مفصلا مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة انواع ، وأهل الكتاب متصفون ببعض دون بعض ، إلى آخر ما أورده رحمة الله تعالى علينا وعليه .

ولعل في نفس آية (وقالت اليهود عزيز ابن الله) فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه من وجهين :

الأول : قوله تعالى : (يضاهون قول الذين كفروا) أي

أى بشابهنهم فى مقاتلهم ، وهذا القدر انصف به المشركون من أنواع الشرك .

الثانى : تذييل الآية بصيغة المضارع عما يشركون بين ما وصفه عبدة الأوثان فى سورة البينة بالاسم والمشركون .

ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث ، وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت ، فشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام ، وأهل الكتاب يقع منهم حيناً وحيناً .

وقد أخذ بعض العلماء : أن الكفر ملة واحدة ، فورث الجميع من بعض ، ومنع الآخرون على أساس المغايرة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيهه

بقى الجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معاملة أهل الكتاب
لحديث : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : (منفكين حتى تأتيهن البينة) اختلاف فى منفكين
اختلافاً كثيراً عند جميع المفسرين ، حتى قال الفخر الرازى عند أول
هذه السورة مانصه : قال الواحدى فى كتاب البسيط . هذه الآية من
أصعب ما فى القرآن العظيم نظماً وتفسيراً ، وقد تحبط فيها الكبار
من العلماء .

مم إنه رحمه الله لم يلخص كيفية الإشكال فيها .

وأنا أقول وجه الإشكال : أن تقدير الآية : (لم يكن الذين كفروا منكم حتى تأتيتهم البينة) ، التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه لم يذكر أنهم منكم عما إذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفار الذي كانوا عليه .

فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منكم حتى تأتيتهم البينة ، التي هي الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض في الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن . ١ . حرفيا .

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال في الآيتين ، وهو مبني على أن منكم بمعنى تاركين : وعليه جميع المفسرين .

والذي جاء عن الشيخ رحمه الله تعالى وعلينا وعليه في إملائه : أن منكم أي مرتدعين عن الكفر والضلال ، حتى تأتيتهم البينة ، أي أوتتهم .

ولكن في منفكين ، وجه يرفع هذا الإشكال ، وهو أن تكون منفكين بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأنيهم البيضة على معنى قوله تعالى : (أبحسب الإنسان أن يترك سدى) وقوله : (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى لن يتركوا وقريب منه قوله تعالى : (قالوا يا هود ما جئنا ببيضة وما نحن بتاركي آلهمنا من هؤلاء) .

وقد حكى أبو حيان قولاً عن ابن عطية قوله ، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أن يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم حنفيين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولا منذراً ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه قال : ما كانوا ليتركوا سدى ، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى . ٥١ .

فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه ، ويزيل الإشكال الكبير عن التفسيرين ، كما أسلفنا

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول في ذلك نسوقه لشموله ،

وهو ضمن كلامه على هذه السورة في المجموع جلد ١٦ ص ٤٩٥
قال :

وفي معنى قوله تعالى : لم يكن هؤلاء وهؤلاء منفكين . ثلاثة
أقول ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد : لم يكونوا منفكين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذابين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفكين
عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث .

أو المراد : أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول .

وناقش تلك الأقوال وردّها كلها ثم قال : فتوله (ولم يكن الذين
كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) أى لم يكونوا متروكين
باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم ، كما أن المنك لا حجر
عليه ، وهو لم يقل منكوكين ، بل قال : منفكين ، وهذا أحسن ، إلى أن
قال : والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولا ترسل
إليهم رسل .

والمعنى : أن الله لا يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث

إليهم رسولا ، وهذا كقوله : (أبحسب الإنسان أن يترك سدى)
لا يؤمر ، ولا ينهى ، أى : أبظن أن هذا يكون ؟ هذا مالا يكون
الهيئة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم
تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، أفنضرب عنكم
الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين) وهذا استفهام إنكار أى
لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل .

تبين من ذلك كله أن الأصح فى « منفكين » معنى « متروكين »
وبه يزول الإشكال الذى أورده الفخر الرازى ، ويستقيم السياق ،
ويتضح المعنى ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى :

(حتى تأتيتهم البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة) .

أجل البينة اسم فصلها فيما بعدها (رسول من الله يتلوا
صحفاً) .

وفى هذا قيل : إن البينة هى نفس الرسول فى شخصه ، لما كانوا
يعرفونه قبل مجيئه ، كما فى قوله : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى

اسمه أحمد) ، وقوله : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) .

فكان وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بينة لهم .

ولذا جاء في الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم نبي الخلتان إلى آخر أخباره صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل الكتاب ، وبما كان متصفاً به صلى الله عليه وسلم ، ومن جيل الصفات كما قالت له خديجة عند بدء الوحي له وفرغه منه : « كلا والله لن يخزيك الله ، والله إنك لتحمل الكل » وتبين على نوائب الدهر « إلى آخره .

وقول عمه أبي طالب : « والله ما رأيت له لب مع الصبيان ولا علت عليه كذبة » إلخ . وقد لقبوه بالأمين .

وحادثة شق الصدر في رضاعه ، بل وقبل ذلك في قصة أبيه عبد الله ، لما تعرضت له المرأة تريده لنفسها ، فأبى . ولما تزوج ودخل بآمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم لقيها بعد ذلك ، فقالت له : لا حاجة لي بك ، فقال : وكيف كنت تعرضين لي ؟ فقالت : رأيت نوراً في وجهك ، فأحببت أن يكون بي ، فلما تزوجت وضعت في آمنة ولم أره فيك الآن ، فلا حاجة لي فيك .

فكلها دلائل على أنه صلى الله عليه وسلم كان في شخصه بيعة لهم ، ثم أكرمه الله بالرسالة ، فكان رسولا يتلو صحفاً مطهرة ، من الأباطيل والزيف ومالا يليق بالقرآن .

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه : (وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً) فعليه يكون رسول من الله بدل من البيعة مرفوع على البدلية ، أو أن البيعة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة .

فالتشريع الذي فيها والإخبار الذي أعلنه تكون البيعة . وعلى كل ، فإن البيعة تصدق على الجميع ، كما تصدق على المجموع ، ولا ينفك أحدهما عن الآخر ، فلا رسول إلا برسالة تتلى ، ولا رسالة تتلى إلا برسول يتلوها .

وقد عرف لفظ البيعة ، للإشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها .

فكانه قيل : حتى تأتيهم البيعة الموصوفة لهم في كتبهم ، ويشير إليها ما قدمنا في أخبار عيسى عليه السلام عنه ، وآخر سورة الفتح

(ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه)
الآية .

قوله تعالى :

(فيها كتب) .

جمع كتاب ، وقال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في إملائه :
كتب : بمعنى مکتوبات .

وقال ابن جرير : في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة . يذكر
القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء
وحكاه ابن كثير واقتصر عليه .

وقال القرطبي : إن الكتب بمعنى الأحكام ، مستدلاً بمثل قوله
تعالى : (كتب عليكم الصيام) وقوله (كتب الله لأغلبن أنا
ورسلي) .

وقيل : الكتب القيمة : هي القرآن ، فجعله كتباً ؛ لأنه يشتمل
على أبواب من البيان .

وذكر الفخر الرازي : أنه محتمل في كتب أى الآيات المكتوبة

في المصحف ، وهو قريب من قول الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه .

وقال الشوكاني : المراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، وهذه المعاني وإن كانت صحيحة ، إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى كتب منه على معنى كتابة أحكام .

والذي يظهر أن مدلول كتب على ظاهرها ، وهو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة ، كما ينص عليه قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، ثم قال : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) ، وكتوله في عموم الكتب الأولى : (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه) ، وقوله : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل) .

ولذا قال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أى بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم لإنزالها ، كما فى قوله : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم)

وقوله : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذمم هم فيه يختلفون) .

وقال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه) ونحو ذلك من الآيات ، مما يدل على أن آى القرآن متضمنة كتباً قيمة مما أنزلت من قبل ، وقد جاء عملياً فى آية الرحمن وقوله : (وكتبنا عليهم فيها — أى فى التوراة — أن النفس بالنفس والعين بالعين) فهذه من الكتب القيمة التى تضمنها القرآن الكريم ، كما قال (ولكم فى القصاص حياة) .

ولعل هذا بين وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب « أمرت أن أقرأ عليك سورة البينة ، فقال : أو ذكرت ، ثم »

وبكى رضى الله عنه ، لأن فيها زيادة طمأنينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المقدمة ، والتى يعرفها عبد الله بن سلام أن الرجم فى التوراة لما غطاها الآتى بها ، كما هو معروف فى القصة . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

بلاحظ أن السورة فى أولها عن الكفار عموماً من أهل الكتاب والمشركون معاً ، وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط ، وذلك مما

يخصهم في هذا المقام دون المشركين ، وهو أنهم لأنهم أهل كتاب ،
وعندهم علم به صلى الله عليه وسلم ، وبما سيأتي به ، وكانوا من قبل
يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وكقوله مراحاة : (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بنبياً
بينهم) ، فلمعرفتهم به قبل مجيئه ، واختلافهم فيه بعد مجيئه ،
وخصهم هنا بالذكر في قوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا
من بعد ما جاءتهم البينة) .

تفنييه

بما يدل على ما ذكرنا من معنى كتب قيمة ، أمران من كتاب الله .

الأول منهما : اختصاص أهل الكتاب هنا بعدم عموم الحديث
عن الذين كفروا ، وما قدمنا من نصوص .

الثاني : أن القرآن لما ذكر الرسول يتلو على المشركين قال (هو
الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) ، فهذا نفس
الأسلوب ، ولكن قال : آياته ، لأنهم لم يكن لهم علم بالكتب الأخرى ،
فانحصر على الآيات .

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾
مَنْفَاءً .

وهذا لا يستوجب التفريق في أمره صلى الله عليه وسلم

ولكن هنا لم يبين موضع الأمر عليهم بعبادة الله مخلصين له الدين ، هل هو في كتبهم السابقة ، أم في هذا القرآن الذى يتلى عليهم في صحف مطهرة ؟ .

وقد بين القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود في كل من كتبهم
والقرآن الكريم، فما في كتبهم قوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة
رسولا أن اعبدوا الله) .

وقوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فإقامة الدين وعدم التفرقة فيه ، هو عين عبادة الله مخلصين
4 الدين .

وَمَا فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا

يَأْتِي نَمَّا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُون ، وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكُمُوا مَعَ
الرَّاكِعِينَ)

فقد نص على كامل المسألة هنا ، أن الكتب القيمة للنصوص
عليها في الصحف المطهرة هي كتب أهل الكتاب ، لقوله تعالى :
(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) وأنهم أمروا في هذا القرآن
بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعليقات المذكورة نفسها ، وإقام
الصلاة لا يكون إلا عبادة الله بإخلاص

وهذه الأوامر سواء كانت في كتبهم أو في القرآن لا تقتضي
الفرق ، بل نستوجب الاجتماع والوحدة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾

القيمة : فيعلمة من القوام ، وهي غاية الاستقامة .

وقد جاء بعد قوله : (فيها كتب قيمة) أي مستقيمة
بقماليها .

وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كافي قوله : (إن هذا
القرآن يهدي للتي هي أقوم) ، وقال تعالى : (الحمد لله الذي أنزل

على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيباً) فنفى عنه العوج ، وأثبت له الاستقامة .

وهذا غاية في القوامه كما قدمنا من قبل ، من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات ، لكنه ينحرف تارة يميناً وشمالاً مع استقامته ، فهو مع الاستقامة لم يحل من العوج .

ولكن ما ينقضى عنه العوج وتثبت له الاستقامة ، هو الطريق الذي يمتد في اتجاه واحد بدون أى اعوجاج إلى أى الجانبين ، مع استقامته في سطحه .

وهكذا هو القرآن ، فهو الصراط المستقيم ، ولذا قال تعالى :
(وذلك دين القيمة) الملة القيمة ، قيمة في ذاتها ، وقيمة على غيرها ،
ومهيمنة عليه ، وكقوله : (ذلك الدين القيم) وقوله : (قل إنا هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيباً ملة لإبراهيم حنيفاً وما كان من
المشركين ، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين
لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

تنبيه

إن في هذه الآية رداً صريحاً على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك ، حيث لم تسلم من لبس ، وهي دعوة وحدة الأديان ، وحمل اللبس فيها أن هذا القول منه حق ، ومنه باطل .

أما الحق فهو وحدة الأصول ، كما قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ، وأما الباطل فهو الإيهام ، بأن هذا ينجر على الفروع مع الجزم عند الجميع ، بأن فروع كل دين قد لا تتفق كلها مع فروع الدين الآخر ، فلم تيجد الصلاة في جميع الأديان ولا الصيام ، وعو ذلك .

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما في القرآن من تفصيل للفروع والسنة ، تكمل تفصيل ما أجل .

وهنا النص الصريح بأن ذلك الذي جاء به القرآن هو دين القيمة ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي أفعل تفضيل ، فلا يمكن أن يعادل وبساوى مع غيره أبداً مع نصوص القرآن ، بأن الله أخذ العهد على

جميع الأنبياء لن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ، ولينصره وليتبعنه ، وأخذ عليهم المهد بذلك . وقد أخبر الرسل أنهم بذلك . فلم يبق مجال في هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان ، بل الدين الإسلامي وحده (إن الدين عند الله الإسلام) ، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قرئت البرية بالهمزة وبالياء ، قرأ بالهمز : نافع وابن ذكوان .
وبالباقون بالياء ، فاختلاف في أخذها .

قال القرطبي : قال الفراء : إن أخذت البرية من البراءة بفتح الباء والراء : أى التراب . فأصله غير مهموز بقوله منه : براه الله يبروه يروا ، أى خلقه ، وقيل : البرية من برت القلم أى قدرته .

وقد تضمنت هذه الآية مسألتين : الأولى منهما : أن أولئك في نار جهنم خالدون فيها ، ومبحث خلود الكفار في النار ، تقدم لشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وافيًا .

والمسألة الثانية أنهم شر البرية ، والبرية أصلها البريئة ، قلبت الهمزة

ياء تسهيلا، وأدغمت الياء في الباء ، والبريئة الخليفة والله تعالى بارئ
النسم ، هو الخالق البارئ المصور سبحانه .

ومن البرية الدواب والطيور ، وهنا النص على عمومه ، فأفهم أن
أولئك شر من الحيوانات والدواب .

وقد جاء النص صريحا في هذا المعنى في قوله تعالى : (إن شر
الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقد بين أن المراد بهم
الكفار في قوله : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)
وقال عنهم : (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال
مبين) فهم لضمهم وعمام في ضلال مبين .

وقد ثبت أن للدواب ليست في ضلال مبين ، لأنها تعلم وتؤمن
بوحداية الله ، كما جاء في هدهد سليمان ، أنكر على بلقيس وقومها
سجودهم للشمس والقمر من دون الله .

ونص مالك في الموطأ في فضل يوم الجمعة « أنه وما من دابة
إلا تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة » ،
وهذا كله ليس عند الكافر منه شيء ، ثم في الآخرة لما يجمع الله جميع
الدواب ويقص لأجما من القرناء ، فيقول لها : كوني ترابا ، فيتمنى
الكافر لو كان مثاها فلم يحصل له ، كما قال : (يوم ينظر المرء
ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) .

وذلك والله تعالى أعلم : أن الدواب لم تعمل خيراً فتبقى لتجازى عليه ، ولم تعمل شراً لتعاقب عليه فكانت لالهها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها ، فلما اقتصر لها من بعضها انتهى أمرها ، فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب . بخلاف الكافر فإن عليه حساب التكليف وعقاب المخالفة . فيعاقب بالخلود في النار ، فكان شر البرية .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

الحكم هنا بالعموم ، كالحكم هناك . ولكنه هنا بالخيرية والتمييز .

أما من حيث الجنس فلا إشكال ، لأن الإنسان أفضل الأجناس (ولقد كررنا بنى آدم) .

وأما من حيث العموم ، فقال بعض العلماء فيها ما يدل على صالح المؤمنين أفضل من الملائكة .

ولعل مما يقوى هذا الاستدلال ، هو أن بعض أفراد جنس الإنسان (٢٧ - أضواء البيان ج ٩)

أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع في البعض . الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة ؟ هذا هو محل الخلاف .

وللقرطبي مبحث في ذلك : مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية مأخوذة من البرى وهو التراب ، فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل .

وأما من جهة النصوص ، فقال في سورة البقرة عند قوله : (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) ، قال المسألة الثالثة : اختلف العلماء في هذا الباب أيهما أفضل ، الملائكة أو بنو آدم ؟ على قولين ، فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة .

وذهب آخرون - إلى أن الملائكة الأعلى أفضل ، واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقوله : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) .

وبما في البخارى : « يقول الله : من ذكرني في ملائكتي في

في ملائ خير منه » وهذا نص على أن الملائ الأعلى خير من ملا الأرض واحتج من فضل بنى آدم بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) بالمعز من برأ الله الخلق ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم » أخرجه أبو داود .

وبأن الله يباهى بأهل عرفات الملائكة ، ولا يباهى إلا بالأفضل والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك خبر الله ، وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع الأمة .

وليس هاهنا شيء من ذلك خلافاً للقدرية والقاضى أبى بكر ، حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل ، لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، إلى آخره .

ثم رد هذا الاستدلال .

وقد سقنا هذا البحث إبيان الخلاف في هذه المسألة المشتبه عليها

لفظ البرية ، وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية ، وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة ، والملائكة فيهم النص بأنهم (عباد مكرمون) والبشر فيهم النص (ولقد كرمنا بني آدم) ، والفرق بينهما ، كالفرق بين الاسم والفعل في الدلالة .

ففي الملائكة بالاسم : مكرمون ، وهو يدل على الدوام والثبوت ، وفي بني آدم كرمنا ، وهو يدل على التجدد والحدوث .

وهذا هو الواقع ، فالعكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه في بني آدم إذ فيهم وفيهم ، ولا يبعد أن يقال : إن التفضيل في الأعمال من حيث صدورها من بني آدم ومن الملائكة ، إذ الملائكة تصدر عنها أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر ، بخلاف بني آدم ، وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج ، حيث ركبت فيه النفس اللوامة والأمارة بالسوء . ونحو ذلك من الجانب الحيواني .

وازدواجية المجهود ، هو أنه ينافزع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ، ويبذل الجهد في فعل الخير ، فهو يجاهد للتخليص من نوازع ثم الشر ، هو يجاهد للقيام بفعل الخير ، وهذا مجهود يقتضى التفضيل على المجهود من جانب واحد .

وقد جاء في السنة ما يشهد لذلك ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أن يأتى بـعـدم من أن العامل منهم له أجر خـسـين ، فقالوا :

خمسین منا أو منهم یا رسول الله ! قال : بل خمسین منكم ، لأنكم
تجدون أعواناً على الخير وهم لا يجدون .

وحديث « سبق درهم مائة ألف درهم » وبین صلى الله عليه
وسلم ، أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة ، لأنه ثانی اثنين فقط ، والمائة
ألف جزء من مجموع كثير .

فالنفس التي تجود بنصف ما تملك ، ولا يتبقى لها إلا درهم ، خير
بكثير من تنفق جزءاً ضئيلاً مما تملك ويتبقى لها المال الكثير ، فكانت
عوامل التصديق ودوافعه مختلفة منزلة في النفس متضادة . فالدرهم في
ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى ، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس ،
ولكن تفاوتت الدوافع والعوامل لإنفاقه ، ولعل المفاضلة المقصودة
تكون من هذا القبيل أولى . والله تعالى أء

قوله تعالى ﴿ جَزَاءُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

فيه أربع مسائل . ثلاثة مجملة جاء بيانها في القرآن . والرابعة مفصلة
ولها شواهد .

أما الثلاثة الم جملة فأولها قوله : (جزاؤهم عند ربهم) إذ

الجزاء في مقابل شيء يستوجبه ، وعند ربهم تشعر بأنه تفضل منه ،
ولإلّا لقال : جزاؤهم على ربهم .

وقد بين ذلك صريح قوله تعالى : (إِنْ الْمُنَافِقِينَ مِثْلَ حَذِيقِ الْعَذَابِ أُولَئِكَ أَجْرُكَ الَّذِي هُوَ لَمْ يُدْرِكْهُ)
وأعنايا وكواعب أترابا وكأْساً دهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً
جزاء من ربك عطاء حساباً) فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم
عطاء لهم من عنده .

الثانية والثالثة قوله : (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار)
فأجل ما في الجنات ، ونص على أنها تجري من تحتها الأنهار ، مع
إجمال تلك الأنهار ، وقد فصلت آية (عم يتساءلون) ما أعد لهم
في الجنة من حداث وأعنا وكواعب وشراب وطمانينة ، وعدم
سماع اللغو إلى آخره كما جاء تفصيل الأنهار في سورة القتال ، في
قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد اللّٰحقون فيها أنهار من ماء غير آسن
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من
عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومفكرة من ربهم) ، والخلود
في هذا النعيم هو تمام النعيم .

قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان الله تعالى على العباد في الجنة ،
من باب العام بعد الخاص .

وقد تقدم في سورة الليل في قوله تعالى : (وسيجنبها الأتقى
الذى يؤتى ماله ينزكى — إلى قوله — ولسوف يرضى) وانفة واعلى
أنها في الصديق رضى الله عنه كما تقدم ، وجاء في التي بعدها سورة
والضحى قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى للرسول
صلى الله عليه وسلم .

وهنا في عموم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم
خير البرية) فهي عامة في جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم ، ثم قال
رضى الله عنهم ، وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم
وهو سبب أعمالهم ، كما في قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين
إذ يبايعونك تحت الشجرة) فكانت المبايعة سبباً للرضوان .

وفي هذه الآية الإخبار بأن الله رضى عنهم ورضوا عنه ، ولم يبين
زمن هذا الرضوان أهو سابق في الدنيا أم حاصل في الجنة ، وقد
جاءت آية تبين أنه سابق في الدنيا ، وهى قوله تعالى : (والسابقون
الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم
ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً

ذلك الفوز العظيم) فبقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ،
ثم يأتى بعدها (وأعد لهم جنات) .

فهو فى قوة الوعد فى المستقبل ، فيكون الإخبار بالرضى مسبقاً
عليه .

وكذلك آية سورة الفتح فى البيمة تحت الشجرة إذ فيها (لقد
رضى الله عن المؤمنين) وهو إخبار بصيغة الماضى ، وقد سميت « بيمة
الرضوان » .

تفصيله

فى هذا الأسلوب الكريم سؤال ، وهو أن العبد حقاً فى حاجة
إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه ، لأنه غاية أمانيه ، كما قال تعالى :
(ذلك الفوز العظيم)

أما الإخبار عن رضى العبد عن الله ، فهل من حق العبد أن
يسأل عما إذا كان هو راضياً عن الله أم لا ؟ إنه ليس من حقه
ذلك فعلاً ، فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة ، وهى أنهم فى
غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذى

رضوا وتجاوزا رضاهم حد النعم إلى الرضى عن المنعم .

كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية والنازعات (عطاء حساباً) ،
قالوا : إنهم يعطون حتى يقولوا : حسبي حسبي ، أى كافيتي .

قوله تعالى ﴿ ذَاكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم ، وقد تقدم أنه
للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهنا يقول : إنه لمن خشى ربه ،
مما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة .

رغبة فيما عند الله ، ورهبة من الله ، ومثله قوله تعال (ولن
خاف مقام ربه جنتان) ، وقوله : (وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) .

والواقع أن صفة الخوف من الله تعالى ، هي أجمع صفات الخير
في الإنسان ، لأنها صفة للملائكة المقربين .

كما قال تعالى عنهم (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون
ما يؤمرون) .

وقد عم الحكم في ذلك بقوله تعالى : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) .

وفي هذه الآية السر الأعظم ، وهو كون الخشية في الغيبة عن الناس ، وهذا أعلى مراتب المراقبة لله ، والخشية أشد الخوف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ
أَمْثَلَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ
أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرًا أَعْمَلَهُمْ ۝ ﴾

الزَّلْزَلَةُ : الحركة الشديدة بسرعة ، وبدل لذلك فقه اللغة من
وجهين :

الأول : تكرار الحروف ، أو ما يقال تكرار المقطع الواحد ،
مثل صلصل وقلقل وزقزق ، فهذا التكرار يدل على الحركة .

والثاني : وزن فَعَلَ بالتضعيف كغلق وكسر وفتح ، فقد اجتمع في
هذه الكلمة تكرار المقطع وتضعيف الوزن .

ولذا ، فإن الزلزال أشد ما شهد العالم من حركة ، وقد شوهدت
حركات زلزال في أقل من ربع الثانية ، فدمر مدناً وحطم
قصوراً .

ولذا فقد جاء وصف هذا الزلزال بكونه شيئاً عظيماً في قوله تعالى :
(إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وبدل على هذه الشدة تكرار

الكلمة في زلزلت وفي زلزالها ، كما تشعر به هذه الإضافة .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إيراد النصوص المبينة لذلك في أول سورة الحج كقوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله : (وإذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً) ، وقوله : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وساق قوله : (وأخرجت الأرض أثقالها) .

واختلف في الأتقال ما هي على ثلاثة أقوال :

ف قيل : موتاها . وقيل : كنوزها ، وقيل : التحدث بما عمل عليها الإنسان . ولعل الأول أرجح هذه الثلاثة ، لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة ، والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته ، فليس هو الأتقال . ورجحوا القول الأول لقوله تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) .

وقالوا : الإنس والجن ثقلان على ظهرها ، فهما ثقل عليها ، وفي بطنها فهم ثقل فيها ، ولذا سميا بالثقلين . قاله الفخر الرازي وابن جرير .

وروى عن ابن عباس : أنه موتاها .

وشبهه بذلك قوله : (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتمثلت)

ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أنقلها ، ولم يقل نقلها وإرادة الجميع مروية أيضاً عن ابن عباس . ذكره الألويسي ، وابن جرير عنه وعن مجاهد .

وحكى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القولين في إملائه : أى موتاها ، وقيل : كنوزها وقوله تعالى : (وقال الإنسان ما لها) لفظ الإنسان هنا عام . وظاهره أن كل إنسان يتول ذلك ، ولكن جاء ما يدل على أن الذى يقول ذلك هو الكافر . أما المؤمن فيقول : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلين) ، وذلك في قوله : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فالكافر يدعو بالويل والمؤمن يطمئن للوعد ، وما يدل على أن الجواب من المؤمنين ، لا من الملائكة ، كما يقول بعض الناس ، ما جاء في آخر السياق قوله : (فإذا هم جميع - أى كلا الفريقين - لدينا محضرون) .

وقوله ، (ما لها) سؤال استيضاح ، وذهول من هول ما يشاهد . وقوله : (يومئذ تحدث أخبارها) التحديث هنا سريخ في الحديث وهو على حقيقته ، لأن في ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شيء وتظهر

حقائق كل شيء ، وكما أنطق الله الجلود ينطق الأرض ، فحدث
 بإخبارها ، (وقالوا للجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا : أنطقنا الله الذي
 أنطق كل شيء) ، وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر ، لأن
 الله أودع في المجدات القدرة على الإدراك والنطق . والمراد بإخبارها
 أنها تخبر عن أعمال كل إنسان عليها في حال حياته .

ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن « لا يسمع صوته حجر ولا مدر
 إلا وشهد له يوم القيامة » ، وذكر ابن جرير وجهاً آخر ، وهو أن
 إخبارها هو ما أخرجته من أثقالها بوحى الله لها والأول أظهر ،
 لأنه يثبت معنى جديداً . ويشهد له الحديث الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

في هاتين الآيتين بحثان أحدهما في معنى من لعمومه ، والآخر
 في صيغة يعمل .

أما الأول فهو مطروق في جميع كتب التفسير على حد قولهم :
 من لعموم المسلم والكافر ، مع أن الكافر لا يرى من عمل الخير
 شيئاً ، لقوله تعالى : (وقد منّا إلى ما غلوا من عمل جعلناه حباءً متثوراً)

وفي حق المسلم ، قد لا يرى كل ما عمل من شر ، لقوله تعالى : (إن الله لا يقفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)

وقد بحث الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بتوسع في دفع إيهام الاضطراب بما يغنى عن إبراده .

أما البحث الثاني فلم أر من تناوله بالبحث ، وهو في صيغة يعمل ، لأنها صيغة مضارع ، وهي للحال والاستقبال .

والمقام في هذا السياق (يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً) وهو يوم البعث ، وليس هناك مجال للعمل ، وكان مقتضى السياق أن يقال : فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره . ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع ، والمقام ليس مقام عمل ، واسكن في السياق ما يدل على أن المراد يعمل مثقال ذرة أى من الصنفين ما كان من قبل ذلك ، لقوله تعالى (يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) فهم إنما يروا في ذلك اليوم أعمالهم التي عملوها من قبل ، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات ، حيث كان السياق أولاً من أول السورة في معرض الإخبار عن المستقبل : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وإذا أخرجت الأرض أثقالها ، وإذا قال الإنسان ما لها . في ذلك اليوم الآتي تحدث أخبارها ، وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم التي (٢٨ - أضواء البيان ج ٩)

عملوها من قبل كما فى قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ،
وقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضراً) .

ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير ، فمن
يعمل الآن فى الدنيا مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل الآن فى الدنيا
مثقال ذرة شراً يره فى الآخرة ، ومثقال الذرة ، قيل : هى النملة
الصغيرة ، لقول الشاعر :

من القاصرات الطرف لو دب حول من الدر فوق الإتب منها لأترا

والإتب : قال فى القاموس : الإتب بالكسر ، والمثقة ككنسة برد
يشق ، فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ، وقيل : هى الهباء التى
ترى فى أشعة الشمس ، وكلاهما مروي عن ابن عباس رضى الله عنه .
وسمى بزيادة إيضاح لكيفية الوزن فى سورة القارة إن شاء الله .

ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفتهم لصغرها ، لأنه
تعالى عم العمل فى قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أيا كان
هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير ، وقد جاء النص صريحاً بذلك
فى قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى
السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

وهنا تنبيهان : الأول من ناحية الأصول ، وهو أن النص على

مَثَقَالِ الذَّرَّةِ مِنْ بَابِ التَّنْذِيرِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، فَلَا يَمْنَعُ رُؤْيَا
مَثَاقِيلِ الْجِبَالِ ، بَلْ هِيَ أُولَى وَأَحْرَى .

وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفى الفارق ، وقد يكون
المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به ، وقد يكون مساوياً له .
فمن الأول هذه الآية وقوله : (فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما) ،
ومن المساوى قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً
إنما يأكلون في بطونهم ناراً) فإن إحراق ماله وإغراقه ملحق بأكله ،
بنفى الفارق وهو مساوٍ لأكله في عموم الإلتلاف عليه ، وهو عند
الشافعى ما يسمى القياس فى معنى الأصل ، أى النص .

التنبيه الثانى فى قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى
الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك) .

رد على بعض المتكلمين فى العصر الحاضر ، والمسمى بعصر الذرة ،
إذ قالوا : لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شيء ، وأنها لا تقبل
التقسيم ، كما يقول المناطقة : إنها الجوهر الفرد ، الذى لا يقبل الانقسام .

وجاء العلم الحديث ، ففقت الذرة وجعلها أجزاء . ووجه الرد
على تلك المقالة الجديدة ، على آيات من كتاب الله هو النص

الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب .
فعلوم ذلك عند الله ومثبت في كتاب ما هو أصغر من الذرة ،
ولا حد لهذا الأصغر بأي نسبة كانت ، فهو شامل لتفجير الذرة
ولأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء .
سبحانك ما أعظم شأنك ، وأعظم كتابك ، وصدق الله إذ يقول :
(ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَالْمَدْيَتِ ضَبْحًا . فَأَلْمُورِيَاتِ قَدْحًا
فَالْمُفِيرَاتِ ضُبْحًا فَأَرْزَنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في إملائه :

العاديات : جمع عادية ، والعاديات : المسرعات في سيرها

فمعنى العاديات : أقسم بالمسرعات في سيرها .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن المراد به الخليل ، تعدو في الغزو ،
والقصد تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله

وقال بعض العلماء : المراد بالعاديات : الإبل تعدو بالحجيج من
عرفات إلى مزدلفة ومِنَى .

ومعنى قوله : ضُبْحًا : أنها تضبِح ضبْحًا ، فهو مفعول مطلق ،
والضبِح : صوت أجواف الخليل عند جريها .

وهذا يؤيد القول الأول الذي يقول هو الإبل ، ولا يختص الضبِح

بالخليل

فالموريات قدحاً : أى الخليل تورى النار بمحواقرها من الحجارة ،
إذا سارت ايلاً .

وكذلك الذى قال : الماديّات : الإبل . قال : برفعها الحجارة فيضرب
بعضها بعضاً .

ويدل لهذا المعنى قول الشاعر

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة نفى الدرهم تنقاد الصياريف
فالمغيرات صبيحاً ، الخليل تغير على العدو وقت الصبح .

وعلى القول الأول : فالإبل تغير بالحجاج صبيحاً من مزدلفة إلى
منى يوم النحر .

فأترن به نقماً : أى غباراً . قال به . أى : بالصبح أو به .
أى بالعدو .

والمفهوم من الماديّات : توسطن به جمعاً ، أى دخلن فى وسط جمع
أى خلق كثير من الكفار .

ونظير هذا المعنى قول بشر بن أبى حازم :

فوسن جمعهم وأقلت حاجب تحت المياجة فى الغبار الأقم
وعلى القول الثانى الذى يقول : للماديّات الإبل تحمل ، الحجيج .

فمضى قوله : (فوسطن به جما) أى صرن بسبب ذلك العدو ، وسط جمع . وهى المزدلفة ، وجمع اسم من أسماء المزدلفة

وبدل لهذا المعنى قول صفية بنت عبد المطلب ، عمة النبي صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام رضى الله عنهما :

فلا والماديات مغبرات جمع بأيدھا إذا سطع الغبار

وهذا الذى ساقه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد جمع أقوال جميع المفسرين فى هذه الآيات ، وقد سقته بحروفه لبيانہ للمعنى كاملا .

ولكن مما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان فى الأضواء : أنه إذا اختلف علماء التفسير فى معنى وفى الآية قرينة . ترد أحد القولين أو تؤيد أحدهما فإنه يشير إليه .

وقد وجد اختلاف المفسرين فى هذه الآيات فى نقطة أساسية من هذه الآيات مع اتفاقهم فى الألفاظ ، ومعانيها . والأسلوب وتراكيبه .

ونقطة الخلاف هى معنى الجمع الذى توسطن به ، أهو المزدلفة لأن

من أسمائها جمًّا كما في الحديث : « وقفت ها هنا وجمع كلها موقف »
وهذا مروى عن علي رضي الله عنه ، في نقاش بينه وبين ابن عباس . ساقه
ابن جرير

أم الجمع جمع الجيش في القتال على ما تقدم ، وهو قول ابن عباس
وغيره . حكاه ابن جرير وغيره .

وقد وجدنا قرائن عديدة في الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى
جمع ، وهي كالآتي : أولاً وصف الخيل أو الإبل على حد سواء بالماديات ،
حتى حد الضبح ووري النار بالحوافر وبالخصا ، لأنها أوصاف تدل
على الجري السريع .

ومعلوم أن الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا
المدو ، وليس هو فيها بمحمود ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادي
« السكينة السكينة » فلو وجد لما كان موضع تعظيم وتقدير .

ثانياً : أن للشهور أن إنارة النقع من لوازم الحرب ، كما قال
بشار :

كأن مشار النقع فوق رموسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبها
أى : لشدة السكر والفر .

ثالثاً : قوله تعالى : (فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نفعاً . فوسطن به جمعاً) جاء مرتباً بالفاء ، وهى تدل على الترتيب والتعقيب .
وقد تقدم للمغيرات صبحاً ، وبعدها فوسطن به جمعاً .

وجمع هى المزدلفة ، وإنما يؤتى إليها ليلاً . فكيف يقرن صبحاً ، ويتوطن المزدلفة ليلاً .

وعلى ما حكاه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، أنهم يغيرون صبحاً من المزدلفة إلى منى ، تسكون تلك الإغارة صبحاً بعد التوسط بجمع ، والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليها .

فتبين بذلك أن إرادة المزدلفة غير مقتضية فى هذا السياق .
ويبقى القول الآخر وهو الأصح . والله تعالى أعلم .

ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور لكان فيها ترشيداً لهذا المعنى ، وهو أنه فى السورة السابقة ، ذكرت الزلزلة وصدور الناس أشثاناً ليروا أعمالهم .

وهنا حث على أفضل الأعمال التى تورث الحياة الأبدية والسعادة الدائمة فى صورة مماثلة ، وهى عدوهم أشثاناً فى سبيل الله لتحصيل ذلك

العمل الذى يحبون رؤيته فى ذلك الوقت ، وهو نصرته دين الله أو الشهادة فى سبيل الله ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : (إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد) .

هذا الجواب قال القرطبي : الكنود : الكفور الجحود لنعم الله ، وهو قول ابن عباس .

وقال الحسن : يذكر للمصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكنود هو الذى يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده » .

وروى ابن عباس قال : « ألا أبشركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده »

خرجهما الترمذى الحكيم فى نوارى الأصول .

وروى ابن عباس أيضاً أنه قال : « الكنود بلسان كنفدة :
العاصى ، وبلسان ربيعة ، مضر : الكفور ، وبلسان كنفانة : البخيل
السيء الملكة » .

وقال مقاتل . وقال الشا

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنوداً لنعماء الرجال يبعد

أى كفور .

ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير .

وقيل : الجاحد للحق .

وقيل : سميت كنفدة كنفدة ، لأنها جحدت أباهها .

وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر :

دع البخلاء إن شتمخوا وصدوا وذكرى بخل ثمانية كنود

فى نقول كثيرة وشواهد .

ومنها : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معصية الله .

وعن ذى النون : الملعون والكنود : هو الذى إذا مسه الشر

جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

وقيل : الحسود الحقود .

ثم قال القرطبي رحمه الله في آخر البحث :

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بمخال مضمومة ، وأحوال غير محمودة ، فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال . اهـ .

وهكذا كما قال : إن صح الأثر فلا قول لأحد ، ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع ، لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم .

وقد استدل ذو النون المصري بالآية الكريمة ، وهي مفسرة للكنود على المعاني المتقدمة بأنه هو الملوع (إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

ومثلها قوله : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن)

وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا .

فهناك قال تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليقيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حباً جماً) .

وهنا عقب عليه بقوله : (وإنه لحب الخير لشديد) والله تعالى أعلم .

وقوله : إن الإنسان عام في كل إنسان ، ومعلوم أن بعض الإنسان ليس كذلك ، كما قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) مما يدل على أنه من العام الخاص .

وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه النزع ، كما قال تعالى : (وأحضرت الأنفس الشح) .

وقوله : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .
ونص الشيخ في إملائه أن المراد به الكافر .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .

اختلف في مرجع الضمير في : وإنه ، فقيل : راجع للإنسان ، ورجحه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، مستدلاً بقوله تعالى بعده (وإنه لحب الخير لشديد) .

وقيل : راجع إلى رب الإنسان .

واختار هذا القرطبي وقدمه .

وجميع المفسرين يذكرون الخلاف ، وقد عرفت الراجع منها ،
وعليه ، فعلى أنه راجع لرب الإنسان فلا إشكال في الآية ، وعلى أنه
راجع للإنسان ففيه إشكال أورده الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه
في دفع إيهام الاضطراب وأجاب عليه .

وهو أنه جاءت نصوص تدل على أنه ينكر ذلك ، وأنه كان
يجب أنه يحسن صنعا ، ونحو ذلك .

ومن الجواب عليه : أن شهادته بلسان الحال .

وقد أورد بعض المفسرين شهادتهم بلسان المقال في قوله تعالى :
(ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر)
إلا أن هذه الشهادة بالكفر هي الشرك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

الخير عام ، كما تقدم في قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا
يره) .

ولكنه هنا خاص بالمال ، فهو من العام الذي أريد به الخاص .

من قصر العام على بعض أفراد ، لأن المال فرد من أفراد الخير ، كقوله تعالى : (إن ترك خيراً) أى مالا ، لأن عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه .

وفى معنى هذا وجهان : الأول وإنه لحب الخير أى بسبب حبه الخير لشديد بخيل ، شديد البخل .

كما قيل :

أرى الموت يمتام الكرام ويصطفى

عقيلة مال الفاحش المتشدد

أى شديد البخل على هذه الرواية من هذا البيت .

والوجه الثانى : وإنه لشديد حب المال . قالهما ابن كثير .

وقال : كلاهما صحيح ، والواقع أن الثانى يتضمن الأول .

ويشهد للوجه الثانى ، قوله تعالى : (وناكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حباً جاً) .

وقلنا : إن الثانى يتضمن الأول ، لأن من أحب المال حباً جاً سيحمله حبه على البخل .

وفى هذا النص مذمة حب المال وهو جبلة فى الإنسان ، إلا من (٢٩ - أضواء البيان ج ٩)

هذه الإسلام ، إلا أن الدم ينصب على شدة الحب لمتى تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدى الحدود .

وهذه الآية وما قبلها نازلة في الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في إملائه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ .

البعثرة : الانتثار .

وقال الزمخشري : إن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين :

البعث والنثر .

فالبعث : خروجهم أحياء .

والنثر : الانتشار كثر الحب . فهي تدل على بعضهم منتشرين .

وقد نص تعالى على هذا المعنى في قوله : (وإذا القبور بعثرت)

أي بعث من فيها .

وقوله (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) .

وقوله : (كأهم جراد منتشر)

وقوله : (يوم يكون الناس كالفرش المبثوث) .

قوله تعالى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾

قيل : حصل أى أبرز . قاله ابن عباس .

وقيل ميز الخير من الشر .

والحاصل من كل شيء ما بقى .

قال ليبيد :

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمراد بما فى الصدور الأعمال ، وهذا كقوله : (يوم تبلى السرائر) .

ونص على الصدور هنا ، مع أن المراد القلوب ، لأنها هى مناط العمل ومعدن النية .

والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية ، كما فى حديث « إنما الأعمال بالنيات » وحديث « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله » الحديث

وقال الفخر الرازى : خصص القلب بالذكر ، لأنه محل لأصول الأعمال .

ولذا ذكره في معرض الذم ، فإنه (آثم قلبه) ، وفي معرض المدح (وجلت قلوبهم) .

ويشهد لما قاله قوله : إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقوله : (ثم قست قلوبكم) .

وقال : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم) .

وقوله : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ونحو ذلك .

ومما يدل على أن المراد بالصدر ما فيها هو القلب .

قوله : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

وقال الفخر الرازي : نص على الصدر ليشمل الخير والشر ،

لأن القلب محل الإيمان .

والصدر محل الوسوسة لقوله تعالى : (الذي يوسوس في

صدور الناس) .

وهذا وإن كان وجيهاً ، إلا أن محل الوسوسة أيضاً هو القلب ،

فيرجع إلى المعنى الأول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

ذكر الظرف هنا يشعر بقصر الوصف عليه مع أنه سبحانه خبير
 بهم في كل ، وقت في ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، ولكنه في
 ذلك اليوم يظهر ما كان خفياً ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه
 لا يخفى عليه خافية .

ولكن ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخبير ، أخص من
 علم ، كما في قوله : (قال نبأني العالم الخبير) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة الواقعة ،
وقال : كالطامة والصاخة ، والآزفة ، والقارعة . ا هـ . أى وكذلك
الصاخة والساعة

ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماءه .

أو كما روى عن الإمام على : كثرة الأسماء تدل على عظم
المسمى .

ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات ، فإن لكل اسم دلالة على
معنى خاص به .

فالواقعة لصدق وقوعها ، والحاقة لتحقق وقوعها ، والطامة لأنها
تطم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها أزفة الآزفة مثل اقتربت
الساعة ، وهكذا هنا .

قالوا : القارعة : من قرع الصوت الشديد لشدة أهوالها .

وقيل : القرمة اسم للشدة .

قال القرطبي : تقول العرب : قرعتم القارعة وفقرتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عندك حيناً
وقال تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنعوا قارعة)
وهي الشديدة من شدائد الدهر .

وقوله (وما أدراك ما القارعة) تقدم قولهم : إن كل ما جاء وما
أدراك أنه يدريه وما جاء وما يدريك لا يدريه .

وقد أدراه هنا بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ،
وتكون الجبال كالمنفوش) ، وهذا حال من أحوالها .

وقد بين بعض الأحوال الأخرى في الواقعة بأنها خافضة رافعة ،
وفي الطامة والصاخة : ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقوله : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) .

وأيضاً فإن كل حالة يذكر معها الحال الذي يناسبها ، فالقارعة
من القرع وهو الضرب ، مناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى .

الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث ، ويفسكك ترابط الجبال إلى هباء
للعمن المنفوش .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ .

الفراش : جمع فراشة .

وقيل : هي التي تطير وتهافت في النار .

وقيل : طير رقيق يقصد النار ولا زال يتقحم على الصباح ونحوه
حتى يحترق .

و ذكر الشيخ في إملائه قول جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي

وقال الفراء : هو غوغاء الجراد الذي ينتشر في الأرض ويركب
بعضه بعضاً من الهول .

ونقل القرطبي عن الفراء : أنه المهبج الطائر من بعوض وغيره

ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة قال :

طويش من نفر أطياش أطيش من طائرة الفراش

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « منلى ومنلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش

يقمن فيها ، وهو يزيدهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم
تفلتون من بدى » .

والمبثوث : المنتشر .

ومثله قوله : (يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم جراد
منتشر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيانه في « سورة اقتربت
الساعة » ، سورة قى والقرآن ، وسورة يس والقرآن الحكيم . بما ينفى
عن إعادته هنا .

وقد قيل : إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب
والخيرة .

ووصفهم كالجرود في الكثرة ووجدة الاتجاه (مهطمين إلى الداع) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الواقعة بيان
أحوال الجبال يوم القيامة من بدئها بكثيب مهيل ، ثم كالعهن المنفوش ،
ثم تسير كالسراب .

وأحال فيها على غيرها ، كقوله : (تحسبها جامدة وهي تمر مر
السحاب) .

وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة سأل سائل .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .

في قوله : (ثقلت موازينه) دلالة على وقوع الوزن لكل إنسان .

والموازين : يراد بها الموزون ، ويراد بها آلة الوزن ، كالمعايير ، وملازمان .

وتقدم أن المعايير بالذرة وأقل منها .

وقد جاء نصوص على وضع الموازين وإقامتها بالعدل والقسط .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

وقوله : (فهو في عيشة راضية) قالوا : بمعنى مرضية ، وراضية أصلها مرضية ، كما في قوله : (وجوه يومئذ ناعمة لسميها راضية) ، إسناد الرضى للعيشة ، على أنها هي فاعلة الرضى ، لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم ، راضية طائفة لينة لأصحاب الجنة ، فتفجر لهم الأنهار طواعية ، وتدنو النار طواعية ، كما في قوله : (قطوفها دانية) .

فالقول الأول : هو المعروف في البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال ، كقوله تعالى (فليدع ناديه) .

والنادى : مكان منتدى القوم ، أى ينادى بعضهم بعضاً للاجتماع فيه .

والمراد : من يحل في هذا النادى ، ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة ، وأراد الحال فيها .

وعلى الثانى : فهو إسناد حقيقى من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به ؛ ومما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البياني ليس متجهاً كآلية الأخرى ، لأن العيشة ليست محلاً لغيرها بل هى حالة ، والمحل الحقيقى هو الجنة والعيشة حالة فيها ، وهى اسم لمعانى النعيم كما تقدم ، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح .

وقد جاءت الأحاديث : أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير ، كما أنها تنزين وتبهج في رمضان ، وأنها تناظرت مع النار وكل يدلى بأهله وفرحه بهم ، حتى وعد الله كيلاً بملئها .

وبصورى تلقى الحور والودان والملائكة في الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة .

وقوله : (لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون) أى لا يتأخر عنهم شئ .

وقوله : (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

وقوله : (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقاصرات الطرف عن رضى بأهلن . ومثله (حور مقصورات في الخيام) أى على أزواجهن .

وقوله : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) ونحو ذلك ، مما يشعر بأن نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

وقع الخلاف في المراد من قوله (فأمة هاوية) هل المراد بأمة مأواه وهى النار ، وأن هاوية من أسمائها ، أم المراد بأمة رأسه وأن هاوية من الهوى ، فيلقى فى النار منكساً رأسه يهوى فى النار .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك فى دفع إيهام الاضطراب ، ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين .

فتكون أمه هاوية ، وهي النار ويلقى فيها منكساً تهوى رأسه
والعياد بالله .

وحكى القرطبي على أن الأم بمعنى قول لبيد :
فالأرض معقلنا وكانت أمانا فيها مقابرنا وفيها نولده
وعلى ومعنى الهاوية البعيدة والداهية ، قول الشاعر :
يا عمرو لو فالتك رماحنا كنت كمن تهوى به الهاوية
والهاوية : مكان الهوى .
كما قيل :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة
بعيدة مهوى القرط مياصة القد
أو طيبة النشر .

وفي الحديث : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة لا يلتقى لها بالاً
يهوى بها في النار أربعين خريفاً » .
نسأل الله السلامة .

وقد فسر الهاوية بما بعدها : (وما أدراك ماهيه نار حاميه) .
وقد فسر الهاوية بأنها أسفل دركات النار . عياداً بالله .

وقد جاء قوله تعالى : (كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة) .

والنبذ : الطرح ، مما يرجع ما قلناه من إمكان إرادة الممنيين كون أمه هي الهاوية أى النار ، يهوى فيها على أم رأسه ، وذلك بالنبذ في الهاوية بعيدة المهوى ، وعادة الجسم إذا ألقى من شاهق بعيداً يسقطه إلى أسفل أثقله ، وأثقل جسم الإنسان رأسه . والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشَّكَاثِينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ .

ألهاكم : أى شغلكم ، ولهاه : تلهيه ، أى ملله .

ومنه قول امرئ القيس :

فذلك حبلى قد طرقت ومرضع فألميتها عن ذى تمام محول
أى شغلتها .

والتكاثر : المكاثرة . ولم يذكر هنا فى أى شيء كانت
المكاثرة ، التى ألهتهم .

قال ابن القيم : ترك ذكره ، إما لأن المدموم هو نفس التكاثر
بالشيء لا المتكاثر به ، وإما لإرادة الإطلاق . اهـ .

ويعنى رحمه الله بالأول : ذم الملح ، والنهم .

وبالثانى : ليعم كل ما هو صالح للتكاثر به ، مال وولد وجاه ،
وبناء وغراس .

ولم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية .

ولكنهم انفقوا على ذكر سبب نزولها في الجملة ، من أن حينئذ تفاخروا بالآباء وأجداد الأجداد ، فعددوا الأحياء ، ثم ذهبوا إلى المقابر ، وعدّد كل منهما ما لهم من الموتى يفخرون بهم ، ويتكاثرون بعدادهم .

وقيل : في قریش بین بنی عبد مناف وبنی سهم .

وقيل : في الأنصار .

وقيل : في اليهود وغيرهم ، مما يشعر بأن التكاثر كان في مفاخر الآباء .

وقال القرطبي : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره .

وسياق حديث الصحيح : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

قال ثابت : عن أنس عن أبي : كنا نرى هذا من القرآن .
حقى نزلت (ألها كم التكاثر) .

وكان القرطبي يشير بذلك ، إلى أن التكاثر بالمال أيضاً .

وقد جاءت نصوص من كتاب الله تدل على أن التكاثر الذي
 الهام ، والذي ذمهم الله بسببه أو حذرهم منه ، إنما هو في الجميع ،
 كما في قوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
 وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب
 الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً - إلى
 قوله - وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

ففيه التصريح : بأن التفاخر والتكاثر بينهم في الأموال
 والأولاد .

ثم جاءت نصوص أخرى في هذا المعنى كقوله : (وما الحياة
 الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون) .

وقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة
 لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) .

ولسكون الحياة الدنيا بهذه المثابة ، جاء التحذير منها والنهي
 عن أن تلهيهم ، في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم
 أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم
 الخاسرون) .

وبين تعالى أن ما عند الله للمؤمنين خير من هذا كله في قوله

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) .

ومما يرجح أن التكاثر في الأموال والأولاد في نفس السورة ، ما جاء في آخرها من قوله : (ثم لنألن يومئذ عن النعيم) لمناسبتها لأول السورة .

هو ظاهر بشمول النعيم للمال شمولاً أولياً .

وقوله (حتى زرتم المقابر) .

أخذ منه من قال : إن تفاخرهم ، حلمهم على الذهاب إلى المقابر ليتكاثروا بأموالهم ، كما جاء في أخبار أسباب النزول المتقدمة .

والصحيح في : زرتم المقابر : يعنى متم ، لأن الميت يأتي إلى القبر كالزائر لأن وجوده فيه مؤقتاً .

وقد روى : أن أعرابياً سمع هذه الآية ، فقال : بعثوا ورب السكمة ، فقليل له في ذلك ، فقال : لأن الزائر لا بد أن يرتحل .

تنبيه

قد بحث بعض العلماء مسألة زيارة القبور هنا لحديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة » .

وقالوا : إن المنع كان عاماً من أجل ذكر مآثر الآباء والوفى ، ثم بعد ذلك رخص في الزيارة ، واختلفوا فيمن رخص له . ف قيل : للرجال دون النساء لعدم دخولهن في وار الجماعة في قوله : « فزوروها » .

وقيل : هو عام للرجال وللنساء ، واستدل كل فريق بأدلة يطول إيرادها .

ولكن على سبيل الإجمال لبيان الأرجح ، نورد نبذة من البحث .

فقال المانعون للنساء : لانهن على أصل المنع ، ولم تشملهن الرخصة ، ومجىء اللعن بالزيارة فيهن .

وقال المجيزون : لانهن يدخلن ضمناً في خطاب الرجال ،

كدخولهن في مثل قوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فإنهن يدخلن قطعاً .

وقالوا : إن اللعن المذكور عنه جاء في الحديث بروایتين رواية : « لعن الله زائرات القبور » .

وجاء « لعن الله زائرات القبور والمتخذات عليهن السرج » إلى آخره .

فعلى صيغة المبالغة : زائرات لا تشمل مطلق الزيارة ، وإنما تختص المكثرات ، لأنهن بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية من تعداد مآثر الموتى المحظور في أصل الآية .

أما مجرد زيارة بدون إكثار ولا مكث ، فلا .

واستدلوا لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها لما ذكر لها صلى الله عليه وسلم ، السلام على أهل البقيع ، فقالت « وماذا أقول يا رسول الله ، إن أنا زرت القبور ؟ قال : قولي : السلام عليكم آل دار قوم مؤمنين » الحديث .

فأقرها صلى الله عليه وسلم ، على أنها تزور القبور وعلمها ماذا تقول إن هي زارت .

وكذلك بقصة مروره على المرأة التي تبكى عند القبر فكلمها ،
 فقالت : إليك عنى ، وهى لا تعلم من هو ، فلما ذهب عنها قيل
 لها : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءت تعتذر فقال لها :
 « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

ولم يذكر لها المنع من زيارة القبور ، مع أنه رآها تبكى .
 وهذه أدلة صريحة فى السماح بالزيارة . ومن ناحية المعنى ، فإن
 النتيجة من الزيارة للرجال من فى حاجة إليها كذلك ، وهى كون
 زيارة القبور تزهّد فى الدنيا وترغب فى الآخرة .

وليست هذه بخاصة فى الرجال دون النساء ، بل قد يكن أحوج
 إليه من الرجال .

وعلى كل ، فإن الراجع من هذه النصوص والله تعالى أعلم ، هو
 الجواز لمن لم يكثرن ولا يتكلمن بما لا يليق ، مما كان سبباً للمنع
 الأول ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

من لطائف القول فى التفسير ، ما ذكره أبو حيان عن التكاثر فى
 قوله : (حتى زرتم للقاير) ما نصه :

وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة ، تكثيراً بمن سلف وإشادة بذكره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم قال : « فزوروها » أمر بإباحة للاتعاطي بها ، لا لمنى المباحاة والتفاخر .

ثم قال : قال ابن عطية : كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيئها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليها ، أى الفوانيس ، وهى السرج .

ثم قال أبو حيان ، وابن عطية : لم ير إلا قبور أهل الأندلس ، فكيف لو رأى ما يتباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة للصغرى ، وباب النصر وغير ذلك . وما يضيع فيها من الأموال ، لتعجب من ذلك ولرأى ما لم يخطر ببال .

وأما التباهى بالزيارة : ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوفية أقوام ليس لهم شغل لا زيار قبور : زرت قبر سيدى فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلان بكذا ، والشيخ فلانا بكذا ، فيذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد .

وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفار . وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه .

وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحمين الظر بهم وبذل المال لهم ، وأما من شذ منهم لأنه يتكلم للعامة فيأتى بمجائب ، يقولون : هذا فتح من العلم الدنى على الخضر .

حق إن من ينتمى إلى العلم ، لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ، ونقل كثيرا من حكاياتهم ، ومزج ذلك يسير من العلم طلبا للمال والجاه وتقبيل اليد .

ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته . ا هـ . بحروفه .

وهذا الذى قاله رحمه الله من أعظم ما افتن به المسلمون في دينهم ودنياهم مما

أما في دينهم : فهو الغلو الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم ، صيانة للتوحيد ، من سؤال غير الله .

وأما في الدنيا فإن الكثير من هؤلاء يتركون مصالح دنياهم من زراعة أو تجارة أو صناعة ، ويطوف بتلك الأماكن تاركا ومضيا من يكون السعى عليه أفضل من نوافل العبادات .

مما يلزم على طلبة العلم في كل مكان وزمان ، أن يرشدوا الجبهة منهم ، وأن يبينوا للناس عامة خطأ وجهل أولئك ، وأن الرحيل لتلك

القبور ليس من سنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا كان من عمل الخلفاء الراشدين ، ولا من عامة الصحابة ولا التابعين ، ولا من عمل أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله .

وإنما كان عمل الجميع زيارة ما جاورهم من المقابر للسلام عليهم والدعاء لهم ، والانعاز بحالهم ، والاستعداد لما صاروا إليه .

نسأل الله الهداية والتوفيق ، لاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والافتقاء بآثار سلف الأمة . آمين .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

كلا : زجر عن التلهي والتكاثر المذكور ، وسوف تعلمون : أى حقيقة الأمر ، ومغبة هذا التلهي ، ثم كلا سوف تعلمون ، تكرار للتأكيد .

وقيل : لأنه لا تكرار ، لما روى عن علي رضي الله عنه : أن الأولى في القبر ، والثانية يوم القيامة . وهو معقول .

واستدل به البعض على عذاب القبر .

ومعلوم صحة حديث القبر « إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار »

والسؤال فيه معلوم ، ولكن أرادوا مأخذه من القرآن .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في الكلام على سورة غافر ، عند (وحق بآل فرعون سوء العذب) لإنهاء عذاب القبر من القرآن

وكذلك بيان معناه في آخر سورة الزخرف عند الكلام على قوله تعالى (فاصبح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) .

وهذا الزجر هنا والتحذير لهم رداً على ما كانوا عليه في النكاث .

كما قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصي وإلما العزة للكاث

وأصرح دليل لإثبات عذاب القبر من القرآن ، هو قوله تعالى :
(النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) لأن الأول في الدنيا ، والثاني في الآخرة .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .

لو : هنا شرطية ، جوابها محذوف باتفاق قدره ابن كثير .

أى لو علمتم حق العلم : لما ألهاكم النكاث عن طلب الآخرة ،

حتى صرتم إلى المقابر ، و علم اليقين : أجاز أبو حيان إضافة الشيء لنفسه ، أى لتفايرة الوصف ، إذ العلم هو اليقين ، ولكنه أكد منه .

وعن حسان قوله :

سرفنا وساروا إلى بدر لحقهم لو يعلمون يقين العلم ماساروا

ولتروا الجحيم : جواب لقسم محذوف .

وقال : المراد برؤيتها عند أول البعث ، أو عند الورد ، أو عند ما يتكشف الحال فى القبر .

ثم لترونها عين اليقين :

قيل : هذا للكافر عند دخولها ، هذا حاصل كلام المفسرين .

ومعلوم أن هذا ليس لمجرد الإخبار برؤيتها ، ولكنه وعيد شديد وتخويف بها ، لأن مجرد الرؤية معلوم .

وإن منكم إلا واردها ، ولكنه هذه الرؤية أخص ، كما فى قوله :
(ورأى الجرمون للنار فظنوا أنهم مواقعوها) أى أيقنوا بدليل قوله :
(ولم يجدوا عنها مصرفا) .

وقد يبدو وجه فى هذا المقام ، وهو أن الرؤية هنا للنار

نوعان :

الرؤية الأولى : رؤية علم وتيقن ، في قوله : (لوتعلمون علم اليقين) علماء تستيقنون به حقيقة يوم القيامة لأصهتتم بثبابة من يشاهد أهواله ويشهد بأحواله ، كما في حديث الإحسان : « تعبد الله كأنك تراه » .

وقد وقع مثله في قصة الصديق لما أخبر نبأ الإسراء ، فقال : « صدق محمد ، فقالوا : تصدقه وأنت لم تسمع منه ؟ قال : إني لأصدقه على أكثر من ذلك » .

فلعلمه علم اليقين بصدقه صلى الله عليه وسلم فيما ينجر ، صدق بالإسراء كأنه يراه .

وتكون الرؤية الثانية ، رؤية عين ومشاهدة ، فهو عين يقين .
وقد قدمنا مراتب العلم الثلاث : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

فالعالم : ما كان عن دلائل .

وعين اليقين : ما كان عن مشاهدة .

وحق اليقين : ما كان عن ملاسة ومخالطة ، كما يحصل العلم بالسكينة ، ووجهتها فهو علم اليقين ، فإذا رآها فهو عين اليقين بوجودها . فإذا دخلها وكان في جوفها فهو حق اليقين بوجودها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ تَسْتَأْنِ يَوْمَ ذِ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

أصل النعيم كل حال فاعمة من النعمة والأيونة ، ضد الخشونة واليبوسة ، والشدائد ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

ثم قال : (إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) فتأبل للنعمة بالضر . ومثله قوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء ، بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني) .

وعلى هذا فإن نعم الله عديدة ، كما قال . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

وبهذا تعلم أن كل ما قاله المفسرون ، فهو من قبيل التمثيل لا الحصر ، كما قال تعالى (لا تحصوها) .

وأصول هذه النعم أولها الإسلام (اليوم أكلت لكم دينكم وأنمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

ويدخل فيها نعم التشريع والتخفيف ، عما كان على الأمم الماضية .

كما يدخل فيها نعمة الإخاء في الله (واذكروا نعمة الله عليكم

إذ كنتم إخوانا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) ، وغير ذلك كثيرا .

وثانيها : الصحة ، وكمال الخلقة والعافية ، فمن كمال الخلقة الحواس (ألم نجعل له عيينين ولسانا وشفقتين) .

ثم قال : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) .

وثالثها : المال في كسبه وإنفاقه سواء ، ففى كسبه من حله نعمة ، وفى إنفاقه فى أوجهه نعمة .

هذه أصول النعم ، فإذا يسأل عنه ، منها جاءت السنة بأنه يسأل عن كل ذلك جملة وتفصيلا .

أما عن الدين والمال والصحة ، ففى مجمل الحديث « إذا كان يوم القيامة ، لا تزال قدم عبد حتى يسأل عن خمس : عن عمره فبم أبلاه ، وعن علمه فبم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وعن شبابه فبم أفناه » .

ولعظم هذه الآية وشمولها ، فإنها أصبحت من قبيل النصوص مضرب المثل ، فقد فصلت السنة جزئيات ما كانت تخطر ببال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى القرطبي ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالوا : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا ، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ، قوما فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ قالت : يستمذب لنساء من الماء — أي يطلب ماء عذبا — إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم ضيفاً مني . قال : فانطلق فجاءهم بمذق فيه بسر ونمر ورطب ، فقال : كلوا من هذه ، وأخذ المدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك المذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » وخرجه الترمذي .

وقال فيه : « هذا والذي نفسي بيده ، من النعيم الذي تسألن عنه يوم القيامة ، ظل بارد ورطب طيب ، وماء بارد » وكفى الرجل الذي من الأنصار .

فقال : أبو الهيثم بن التيهان .

قال القرطبي : قلت : اسم هذا الرجل مالك بن التيهان ، ويكنى
أبا الهيثم .

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة من عدة طرق .

ومنها : عند أحمد أن عمر رضى الله عنه أخذ بالفرق وضرب به
الأرض ، وقال « إنا لمسؤولون عن هذا يا رسول الله ؟ قال : نعم ،
إلا من ثلاثة : خرقه لف الرجل بها عورته ، أو كسرة سد بها
جوعته ، أو جحر يدخل فيه من الحر والقر » .

وقال سفيان بن عيينة : إن ماسد الجوع ، وستر العورة من
خشن الطعام ، لا يسأل عنه المراء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن
النعيم ، والدليل عليه أن الله أسكن آدم الجنة فقال له : (إن لك
الأتجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظأ فيها ولا تضعى) .

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يسد به الجوع ، وما يدفع
به العطش ، وما يسكن فيه من الحر ويستر به عورته ، لآدم عليه
السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها لأنه لا بد له منها .

وذكر عن أحمد أيضاً بسنده « أنهم كانوا جلوساً فطلع عليهم
النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا :

يا رسول الله ، نراك طيب النفس ؟

قال : أجل ، قال : خاض الناس في ذكر الغنى ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن
اتقى الله ، خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

قال : ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة .

وبهذا ، فقد ثبت من الكتاب والسنة ، أن النعيم الذي هو
محل السؤال يوم القيامة عام في كل ما يتنعم به الإنسان في الدنيا ،
حساً كان أو معنى .

حتى قالوا : النوم مع العافية ، وقالوا : إن السؤال عام للكافر
والمسلم ، فهو للكافر توبيخ وتقريع وحساب ، وللمؤمن تقرير بحسب شكر
النعمة وجحودها وكيفية تصرفها . والعلم عند الله تعالى .

وكل ذلك يراد منه الحث على شكر النعمة ، والإقرار بالنعيم

والقيام بحقه سبحانه فيها ، كما قال تعالى عن نبي الله : (رب أوزعني
أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً
ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين) .

اللهم أوزعنا شكر نعمتك ، واجعل ما أنعمت علينا عوناً لنا
على طاعتك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .

العصر : اسم للزمن كله أو جزء منه .

ولذا اختلف في المراد منه ، حيث لم يبين هنا .

فتيل : هو الدهر كله ، أقسم الله به لما فيه من العجائب ، أمة تذهب وأمة تأتي ، وقد ينفذ ، وآية تظهر ، وهو هو لا يتغير ، ليل يعقبه نهار ، ونهار يطرده ليل ، فهو في نفسه عجب .

كما قيل :

موجود شبيه المعلوم ، ومتحرك بضاهي الساكن .

كما قيل :

وأرى الزمان سفينة تجرى بنا نحو المنون ولا نرى حركانه

فهو في نفسه آية ، سواء في ماضيه لا يعلم متى كان ، أو في حاضره لا يعلم كيف ينقضي ، أو في مستقبله .

واستدل لهذا القول بما جاء موقوفا على علي رضي الله عنه ، ومرفوعاً من قراءة شاذة : والعصر ونوائب الدهر . وحل على النفس-ير إن

لم يصح قرآنا ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس .

وعليه قول الشاعر :

سبيل الهوى وعر ، وبحر الهوى غمر

ويوم الهوى شهر ، وشهر الهوى دهر

وقيل العصر : الليل والنهار .

قال حميد بن ثور :

ولم بلبث العصران يوم ليلة إذا طلبا أن يدركا ما يتهما

والعصران : أيضاً الغداة والعشي .

كما قيل :

وأمطله العصرين حتى يلمنى ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

والمطل : التسويف وتأخير الدين .

كما قيل :

قضى كل ذى دين فوقى غريمه وعزة مطول معنى غريمها

وقيل : إن للمشى ما بعد زوال الشمس إلى غروبها ، وهو قول

الحسن وقتادة .

ومنه قول الشاعر :

تروح بنا يا عمرو قد قصر العصر

وفي الروحة الأولى الغنيمة والاجر

وعن قتادة أيضاً : هو آخر ساعة من ساعات النهار ، لتعظيم
اليمين فيه ، وللقسم بالفجر والضحى .

وقيل : هو صلاة العصر لكونها الوسطى .

وقيل : عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو زمن أمته ، لأنه يشبه
عصر عمر الدنيا .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أقرب هذه الأقوال كلها
قولان : إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة ، إذ أقل درجاتها
التفسير ، ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال .

وإما عصر الإنسان أى عمره ومدة حياته الذى هو محل الكسب
والخسران لإشعار السياق ، ولأنه يخص العبد فى نفسه موعظة
واقتناعاً .

ويشرح لهذا المعنى ما يكتنف هذه السورة من سور التكاثر قبلها ،
والهمزة بعدها ، إذ الأولى تدم هذا التلهى والتكاثر بالمال والولد ، حتى
زيارة المقابر بالموت ، ومحل ذلك هو حياة الإنسان .

وسورة الممزة في نفس المعنى تقريباً ، في الذي جمع مالا وعدده ،
يحسب أن ماله أخلده .

فجمع المال وتمداده في حياة الإنسان وحياته محدودة ، وليس
مخلداً في الدنيا ، كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بـ **حياة**
الإنسان .

وعليه ، فإما أن يكون المراد بالعصر في هذه السورة العموم
لشموله الجميع وللقراءة الشاذة ، وهذا أقواها .

وإما حياة الإنسان ، لأنه ألزم له في عمله ، وتكون كل
الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل ، وإرادة البعض ، والله تعالى
أعلم .

وقوله : (إن الإنسان لفي خسر)

لفظ الإنسان وإن كان مقرداً ، فإن أل فيه جعلته للجنس .

وقد بينه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ،
وتقدم التنبيه عليه مراراً ، فهو شامل للمسلم والكافر ، إلا من استنق
الله تعالى .

وقيل : خاص بالكافر . والأول أرجح للعموم .

وإن الإنسان لفي خسر ، جواب القسم ، والخسر : قيل : هو

الغب ، وقيل : النقص ، وقيل : العقوبة ، وقيل : الهلكة ، والكل مقارب .

وأصل الخسر والخسران كالكفر والكفران ، النقص من رأس المال ، ولم يبين هنا نوع الخسران في أى شيء ، بل أطلق ليعم ، وجاء بحرف الظرفية ، ليشعر أن الإنسان مستغرق في الخسران ، وهو محيط به من كل جهة .

ولو نظرنا إلى أمرين وهما المستثنى والسورة التي قبلها ، لاتضح هذا العموم ، لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور : عدم الإيمان وهو الكفر ، وعدم العمل الصالح وهو العمل الفاسد ، وعدم التواصي بالحق وهو انعدام التواصي كلية أو التواصي بالباطل ، وعدم التواصي بالصبر ، وهو إما انعدام التواصي كلية أو الملح والجزع .

والسورة التي قبلها تلمح الإنسان بالتكاثر في المال والولد ، بغية الغنى والتكثّر فيه ، وضده ضياع المال والولد وهو الخسران .

فعملية يكون الخسران في الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر ، وفي الإسلام وهو ترك العمل ، وإن كان يشمل الإيمان في الاصطلاح والتلمح في الباطل وترك الحق ، وفي الملح والجزع .

ومن ثم ترك الأمر والنهي بما فيه مصلحة العبد وفلاحه وصلاحي

دينه ودينياه ، وكل ذلك جاء في القرآن مايدل عليه نجمه كالآتى :
 أما الخسران بالكفر . فكما في قوله تعالى . (لئن أشركت ليحبطن
 عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وقوله : (قد خسر الدين كذبوا بلىءاء الله) ، أى لأنهم لم
 يعملوا لهذا الاقاء ، وقصروا أمرهم فى الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم ،
 وحظهم من الآخرة .

وأما الخسران بترك العمل ، فكما فى قوله تعالى : (ومن خفت
 موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) لأن الموازين هى معايير الأعمال
 كما تقدم (فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

ومثله : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر
 خسراً مبيناً) ، لأنه سيكون من حزب الشيطان (ألا إن حزب
 الشيطان هم الخاسرون) أى بطاعتهم إياه فى معصية الله .

وأما الخسران بترك التواصى بالحق فليس بعد الحق إلا الضلال ،
 والحق هو الإسلام بكامله ، وقد قال تعالى : (ومن يتق غير الإسلام
 ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأما الخسران بترك التواصى بالصبر والوقوع فى الملع والفرع ،

فكما قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

تحقيق المناط في حقيقة خسران الإنسان

اتفقوا على أن رأس مال الإنسان في حياته هو عمره . كلف بإعماله في فترة وجوده في الدنيا ، فهي له كالسوق . فإن أعمله في خير ربح ، وإن أعمله في شر خسر .

وبدل لهذا المعنى قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية .

وقوله : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله) الآية .

وفي الحديث عند مسلم : « الطهور شرط الإيمان » .

وفي آخره « كل الناس يفتدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »
 مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره .

ولأهمية هذا العمر جاء قسم الرسالة والنذارة في قوله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) .

وعلى هذا قالوا : إن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى .

وهدى كل إنسان النجدين ، وجعل لكل إنسان منزلة في الجنة ومنزلة في النار .

فمن آمن وعمل صالحا كان مآله إلى منزلة الجنة ، وسلم من منزلة النار . ومن كفر كان مآله إلى منزلة النار ، وترك منزلته في الجنة .

كما جاء في حديث القبر « أول ما يدخل في قبره إن كان مؤمناً يفتح له باب إلى النار ، ويقال له : ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقفل عنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له : هذا منزلتك يوم تقوم الساعة ، فيقول : رب ، أقم الساعة » .

وإن كان كافراً كان على العكس تماماً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيأخذ كل منزلته فيها ، وتبقى منازل أهل النار في الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة ، وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية ، فتوزع على أهل النار ، وهنا يظهر الخسران المبين ، لأن من ترك منزلة في الجنة وذهب إلى منزلة في النار ، فهو بلا شك خاسر ، وإذا ترك منزلته في الجنة لغيره وأخذ هو بدلا منها منزلة غيره في النار ، كان هو الخسران المبين ، مماذا بالله .

أما في غير الكافر وفي عموم المسلمين ، فإن الخسران في التفريط بحيث لو دخل الجنة ولم يفل أعلى الدرجات يُحسّ بالخسران في الوقت الذي فرط فيه ، ولم يتنافر في فعل الخير ، لينال أعلى الدرجات .

فهذه السورة فعلا دافع لكل فرد إلى الجهد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والصلاح .

وقد قالوا : لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزيقاً ، فإن كان مسيئاً فعلى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره . وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

فالخوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضي خلفهم ، والله تعالى أعلم .

وبين خطر هذه المسألة : أن الانسان إذا كان في آخر عمره ، وشعر بأيامه المحدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاتته ، لم يستطع لذلك سبيلاً ، فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن

تكون مربحة له ، وفي الحديث الصحيح : « نعمتان مغبون فيهما : الإنسان : الصجة والفراغ » .

أى أنهما يعضيان لا يستغلها في أوجه الكسب المكتملة ، فيفوتان عليه بدون عوض يذكر ثم يندم ، ولات حين مندم .

كما قيل في ذلك :

بدلت حبة برأس أزعرا وبالثفايا البيض الدر دررا
* كما اشترى المسلم إذ تنصرا *

تنبيه

في سورة التكاثر تقبيح التلوى بالتكاثر بالمال والولد ونحوه ، ثم الإشعار بأن سببه الجهل ، لأنهم لو كانوا يعلمون علم اليقين لما ألهم ذلك حتى باغتهم الموت .

وهنا إشعار أيضاً بأن سبب هذا الخسران الذى يقع فيه الإنسان ، هو الجهل الذى يجر إلى الكفر والتمادى فى الباطل ، ويساعد على هذا قسوة القلب ، وطول الأمل . كما قال تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

تنبيه آخر

قوله تعالى (إن الإنسان لفي خسر) نص على الإنسان على ما تقدم
وقد جاءت آية أخرى تدل على أن الجن كالإنس في قوله تعالى :
(أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن
والإنس منهم كانوا خاسرين) .

وتقدم بيان تكليف الجن بالدعوة واستجابتهم لها . والدعوة إليها .
قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا
بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدم ، مما دل على العموم كما
قدمنا ، والإيمان لغة التصديق وشرعا الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان
الست ، في حديث جبريل عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما
سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان .

وعملوا الصالحات : العطف يقتضى المغايرة .

ولذا قال بعض الناس : إن الأعمال ليست داخلية في تعريف
الإيمان ومقالاتهم معروفة .

والجمهور : أن الإيمان اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح .

فالعمل داخل فيه ويزيد ويفقص ، وقد قدمنا : أن العمل شرط

أقرب من أن يكون جزءاً ، أى أن الإيمان يصدق بالاعتقاد ، ولا يتوقف وجوده على العمل ، ولكن العمل شرط فى الانتفاع بالإيمان ، إذا تمكن العبد من العمل ، وما يدل لكون الإيمان يصدق عليه حد الاعتقاد والنطق ، ولو لم يتمكن العبد من العمل ، قصة الصحابى الذى أسلم عند بدء المعركة ، وقايل ، واستشهد ولم يصلّ الله ركعة ، فدخل الجنة .

والجمهور : على أن مجرد الاعتقاد لا ينفع صاحبه ، كما كان يعتقد عم النبي صلى الله عليه وسلم صحة رسالته ، ولكنه لم يقل كلمة يحاج له صلى الله عليه وسلم بها ، وكذلك لو اعتقد ونطق بالشهادتين ، ولم يعمل كان مناقضاً لقوله .

وقد قدمنا هذه المسألة مفصلة .

والصالحات : جمع صالحة . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تعريفه وشروط كون العمل صالحاً بأدلتها من كونه موافقاً لكتاب الله وعمله صاحبه خالصاً لوجه الله ، وكونه صادراً من مؤمن بالله . إلخ .

وقوله : (وتواصوا بالحق) .

تواصوا بكثرة : وتواصوا بالحق .

يعتبر التواصى بالحق ، من الخاص بعد العام ، لأنه داخل في عمل الصالحات .

وقيل : إن التواصى ، أن يوصى بعضهم بعضاً بالحق .

وقيل : الحق كل ما كان ضد الباطل ، فيشمل عمل الطاعات ، وترك المعاصي .

واعتبر هذا أساساً من أسس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بقريئة التواصى بالصبر ، أى على الأمر والنهي . على ما سيأتى إن شاء الله

وقيل : الحق ، هو القرآن . لشموله كل أمر وكل نهى ، وكل خير ، وبشهد لذلك قوله تعالى في حق القرآن (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)

وقوله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

وقد جاءت آيات في القرآن تدل على أن الوصية بالحق تشمل الشريعة كلها ، أصولها وفروعها ، ماضياً وحاضراً ، من ذلك ما وصى الله به الأنبياء وعموماً ، من نوح وإبراهيم ومن بعدهم في قوله تعالى

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وإقامة الدين للقيام بكتليته ، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأنهم ومن بعدهم ، ففرضا إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

ومن بعد إبراهيم يعقوب كما قال تعالى :

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

فهذا تواصى الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة ، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة ، كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبرا بوالدتي) .

وكذلك الحالة الاجتماعية ماثلة في الوصية بالوالدين والأولاد ، لترايط الأسرة ، ففي الوالدين قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) .

وفي الأبناء قال : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ
الأنثيين) .

وفي الحقوق العامة أواخر ونواهي ، عبادات ومعاملات ، جاءت
آيات الوصايا العشر التي قال عنها ابن مسعود رضى الله عنه « من
أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها
خاتمه فليقرأ : (قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به
شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم
وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا
مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان
بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا
قربى وبمهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا
صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم
وصاكم به لعلكم تتقون) » .

تلك الوصايا الجامعة أبواب الخير الموصدة أبواب الشر والمذبلة
بهذا التبئين والتعريف ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا
السبل

ولو أردنا أن نربط بين هذا وبين التواصى بالحق وبينهما وبين فاتحة الكتاب ، لكانت النتيجة كالآتي في قوله : (وتواصوا بالحق) إحالة على تلك الوصايا ، وهي شاملة جامعة ومعنون لها بأنها صراط الله المستقيم .

فكأن قوله : (وتواصوا بالحق) مساوياً لقوله : وتواصوا بالصراط المستقيم . واستقيموا عليه .

ثم في سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) وهذا صراط الله المستقيم فاتبعوه .

فكانت سورة العصر مشتملة على التواصى بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه ، وبآتي عقبها قوله (وتواصوا بالصبر) بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم ، إذ الصبر لازم على عمل الطاعات ، كما هو لازم لترك المنكرات .

وتلك الوصايا العشر جمعت أمراً ونهياً فعلاً وتركاً ، وكذلك فيه الإشارة إلى ما يقوله دعاة الإسلام من أن العمل الصالح والدعوة إلى الحق والتواصى به ، فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغالباً من يقوم به يتعرض لأذى الناس ، فلزمهم التواصى بالصبر ، كما قال

لابنه بوصيه وجامعاً في وصيته وصية سورة العصر إذ قال : (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا عليه بيان قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتفصيل عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) في سورة المائدة .

فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة .

كما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : لو تأمل الناس هذه السورة لكفهم .

قوله : (وتواصوا بالصبر) جاء الحث على التواصي بالرحمة أيضاً مع الصبر ، في قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) .

وبهذه الوصايا الثلاث : بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر والتواصي بالرحمة ، تكتمل مقومات الجميع المتكامل قوامه الفضائل المثلى ، والقيم للفضلى .

لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق ، والاستقامة على الطريق للمستقيم .

وبالتواصي بالصبر ، يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط ،
ويخطون كل عقبات تواجههم .

وبالتواصي بالمرحمة : يكونون مرتبطين كالجسد الواحد ، وتلك
أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطائها في هذه السورة الموجزة .
وبالله التوفيق .

تنبيه

قال الفخر الرازي : إن الله تعالى لما أخبر عن هؤلاء بالنجاة من
الخسران ، وفوزهم بالعمل الصالح والإيمان ، أخبر عنهم أنهم لم
يكتفوا بما يتعلق بهم أنفسهم بل تعدوا إلى غيرهم ، فدعاهم إلى
ما فازوا به على حد قوله صلى الله عليه وسلم « حب لأخيك ما تحب
لنفسك » ا هـ . ماخصاً

ويشهد لهذا قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
تنزل عليهم الملائكة — إلى قوله ومن أحسن قولاً من دعا إلى
الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة
ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

فقد بين تعالى أن الناس أقسام ثلاثة ، إزاء دعوة الرسل .
 قوم آمنوا وقالوا : ربنا الله ، واستقاموا على ذلك بالعمل الصالح .
 وقوم : ارتفعت همهم إلى دعوة غيرهم وهم أحسن قولاً بلا شك .
 وقوم : عادوا الدعاة وأسأؤوا إليهم .

ثم بين موقف الدعاة من أولئك المسيئين في غضون قوله تعالى :
 (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع) أى إساءة المسيئين (بالتي هي
 أحسن) فيصبحوا أولياء لك وبين أن هذه المنزلة (لا يلقاها إلا الذين
 صبروا) ثم بين أن من ارتفع إليها وسلك مسلكها (أنه ذو حظ عظيم) .

تنبيه

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قوله
 للدعاة عدوان : أحدهما : من الإنس . والآخر من الشياطين .
 وقد أرشدنا الله لكيفية التغلب عليهما واكتفاء شرهما .
 أما عداوة الإنس فبمقابلة الإساءة بالإحسان ، فيصبح ولياً حميماً .
 وأما عدو الجن فبالاستمادة منه (وإما يفرغوك من الشيطان نزع
 فاستمذ بالله إنه هو السميع العليم) .
 نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

وقد أشرنا إلى أن الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه قدم مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم) .

وذكر سورة العصر عندها، وعقد مسائل ممتدة في منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بما لا غنى عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْهَمَزَةِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ .

اختلف في معنى كلمة ويل .

فقيل : هو واد في جهنم .

وقيل : هي كلمة عذاب وهلاك .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، ذكر هذين المعنيين في سورة الجاثية عند قوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم) ، وبين أنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن السويع للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقد استظهر رحمه الله تعالى هذا المعنى .

ومما يشهد لما استظهره رحمه الله ، ما جاء في حق أصحاب الجنة التي أصبحت كالصريم ، أنهم قالوا عند رؤيتهم إياها (قالوا يا ويلتنا إنا كنا ظالمين) فهي كلمة تقال عند نزول المصائب ، وعند التنبيح .

وقال الفخر الرازي : أصل الويل لفظة السخط والدم ، وأصلها

حوى لفلان ، ثم كثرت في كلامهم فوصلت باللام ، ويقال : ويح
جالهء للترحم اهـ .

ومما يدل لقول الرازي أيضاً قول قارون (ويكأن الأيسط
الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) .

ومثله للتمجب في قوله : (قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا
بعلى شيخاً) .

وقوله : (قال ياويلتنا أعجزت أن أكون مثل هذا العراب
خاواى سواة أخى) .

فالظاهر : أنها كلمة تقال عند الشدة والهلكة ، أو شدة التمعجب
حما يشبه المستبعد .

والذى يشهد له القرآن : هو هذا المعنى ، وسبب الخلاف قد
يرجع لجيئها تارة مطلقة كقوله : (ويل يومئذ للكاذبين) ، وهنا
(ويل لكل همزة لمزة) .

ويجىء مع ذكر ما يتوعد به كقوله : (فويل للذين كفروا من
النار) ، وقوله : (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ، فذكر
النار والعذاب الأليم .

وكذلك قوله : (فويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم) ،
فهى فى هذا كله للوعيد الشديد ، مما ذكر معها من النار والعذاب
الآليم ومشهد يوم عظيم ، وليست مقصودة بذاتها دون ما ذكر معها ،
وللعلم عند الله تعالى .

وقوله : (همزة لمزة) قيل : ها بمعنى واحد ، وهو الغيبة .

وأشدد ابن جرير قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا وإن أغيب فانت الهامز الهمزة
وعزا هذا لابن عباس ، وهو الذى يصيب الناس وبطعن فيهم .
وقد جاء فى القرآن استعمال كل من الكلمتين مفردة عن الأخرى ،
بما يدل على المغايرة .

ففى الهمزة قوله : (ولا تطع كل حلاف مهين هاز مشاء بنميم)
بما يدل على الكذب والنميمة .

وفى الهمزة قوله تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنفأوا
بالألقاب) .

وقوله : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) مما يدل على أنها أقرب
للتقص والعيب فى الحضور لا فى الغيبة ، فتغاير الهمز فى المعنى ، وفى

للصفة ، والجمع بينهما جمع بين القبيحين ، فكان مستحقاً لهذا الوعيد الشديد بكلمة ويل .

وقد قيل : الهمز باليد : وقيل : باللسان في الحضرة ، والهمز في الغيبة .

وقيل : الهمز باليد ، واللمز باللسان ، والغمز بالعين ، وكلها معانٍ مقاربة تشترك في تنقص الآخرين .

قوله تعالى ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ .

هذا الوصف يشعر بأنه علة فيما قبله ، إذ الوصول هنا يدل من كل المقدمة ، وليس العيب في جمع مالا بل في عدده . يحسب أن ماله أخلاه . وفي عدده عدة معان :

قيل : عدده كل وقت وآخر ، تحفظاً عليه .

وقيل : عدده كنزه

وقيل : عدده أعدده للحاجة .

وقرىء : جمع وعدد بالتشديد وبالتخفيف . والمراد به من لم يؤد حق الله فيه شحاً وبخلًا ، كما تقدم في سورة (أهل الكهف) .

قوله تعالى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ .

هذا الحسابان هو المذموم عليه ، والمنصب عليه الوعيد ، لأنه كفر بالبعث . كما قال صاحب الجنة في الكهف (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . ، قال : ما أظن أن تبديد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة) .

قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ .

كلا : ردع وزجر له على حسابانه الباطل ، ولينبذن في جواب قسم محذوف دل عليه قوله : كلا .

وهذا يفسره ما تقدم في قوله : (فأمه هاوية) أى ينبذ نبذاً ، فيهبى على أم رأسه . عياداً بالله .

والحطمة : فعلة من الحطم ، وهو الكسر ، ثم الأكل الكثير .

وقد فسرت بما بعدها (نار الله الموقدة) ، وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما ألقى فيها ، وتقول : هل من مزيد .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ .

قيل : مؤصدة في عمد . بأن العمدة صارت وصداً للباب كالقفل ، والغلق له .

وقيل : في عمد : أنهم يدخلون في عمد كالقصبة ، بجوفة الداخل .

وقيل : في عمد : أى توضع أرجلهم في العمدة على صورة القيد في الخشبة المعلقة ، يشد فيها عدد من الأشخاص في أرجلهم

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في ذلك : أن العمدة بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم ، كما في قوله : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا) .

فيكون أرجح في هذا المعنى .

وقد نص عليه في إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥١٩
سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

اختلف في معنى السجيل هنا .

فقال قوم : هو السجين ، أبدات الفون لاما ، والسجين النار .

وقيل : إن السجيل من السجل ، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيننا لديوان أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهي حجارة مرسله لقوله (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) .

وقوله : إن سجيننا ، ع ديوان أعمالهم ، يعني قوله تعالى : (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) .

وقيل : معنى سجيل ستك وطين ، يعني بعض حجر وبعض طين .

وقيل : معناه الشديد .

وقيل : السجيل اسم لسماء الدنيا .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ترجيح أنها من طين شديد القوة .

وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات (قالوا إنا أرسلنا
إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك
للمسرفين) فنص على أنها من طين .

والحجارة من الطين : هي الآجر . وهو الطين المطبوخ حتى
يتحجر .

وجاء النص الآخر أنها من سجل من منصوص في قوله : (فلما جاء
أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجل
منصوص) .

وقيل فيها : كالحصاة والعدسة ، والضمير في عليهم راجع لأصحاب
الفيل ، وقصتهم طويلة مشهورة .

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجل ، وترجيح الشيخ رحمه الله تعالى
علينا وعليه : أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيهاً على ما قيل
من استبعاد ذلك ، ورداً على من صرف معناها إلى غير الحجارة
المحسوسة .

أما من استبعداها ، فقد حكاه الفخر الرازي بقوله : واعلم أن من
الناس من أنكر ذلك .

وقالوا : لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما بقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل ، وأن يكون في وزن القبة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات .

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شمس وأقار ، ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك في عين الضرب ، حتى يكون هو بالشرق ، ويرى قطعة من الأرض بالأنداس ، وكل ذلك محال .

ثم قال : واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا ، إلا أن المادة جارية بأنها لا تقع .

وهذا القول بحكيه الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ستمائة وست ، فترى استبعادهم لإياها مبنى على تحكيم العقل ، وهذا باطل لأن خوارق العادات دائماً فوق قانون العقل ، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده .

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم ، لو حدثت به العقول سابقا من نقل الحديث ، والصورة على الأثير ، وتوجيه الطائرات وأمثالها ، لما قوى على تصورها لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته .

وحتى نحن لو لم يسأبرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائي ، وما له من دور فعال في ذلك لما أمكننا تصوره ، ثم من يمنع شيئاً من ذلك على قدرته تعالى .

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالهن المنفوش أخف من التبن ، التي مثلوا بها ، بل ستكون أقل من ذلك ، كما قال تعالى : (وسيرت الجبال فكانت سراباً) ، فظهر بطلان هذا القول الذي استبعدنا لعدم إدراك العقل لها .

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر ، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ ، إلا أنه أثبت الأصل وفسره بما يتناسب والعقل .

وهو محكي عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، إذ فسرا الحجارة من سجل ، بأنه وباء الجدرى .

وبالتالي : فالطير الأبايل : هي البعوض وما أشبهه .

وقد اعتذر له السيد قطب : بأن الدافع لذلك هو ما كان شائعاً في عصره من موجات متضاربة ، موج انحراف في التفكير نحو الإسلام واستغلال الإسرائيليات ، كثال على ما يشبه الأباطيل في تشويه حقائق الإسلام عند غير المسلمين .

ومن ناحية أخرى طوفان علمي حديث ، من إنتاج العقل البشري
فبدلاً من أن تثبت حادثة كهذه صرفت إلى ما يألوه العقل من إيقاع
ميكروب الجدري بجيش أبرهة حتى أهلكه ، لكي لا يتصادم في إثبات
الحادثة على مانص عليه القرآن بواقع للعقلية العلمانية الحديثة .

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول .

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية ، فقد تقدم : أن
الحجارة التي من سجيل ، جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم ،
بل أقيمت على قوم لوط ، بعد أن جعل عاليها سافلها ، فما موقع
الجدري منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور ؟

ثم جاء أيضاً : أنها من طين ، فأين الطين من الجرائم
الجدرية ؟

ومن الناحية العلمية : من أين جاء بميكروب الجدري ؟ وأين
كان قبل أن تأتي به الطير الأبايل ؟

ومتى كان ميكروب الجدري أو غيره ، يميز بين قرشي وحبشي ؟

ومتى كان أي ميكروب يفتك بقوم وبسرعة ، يجعلهم كعصف
ما كول ، مع أن : فجعلهم ، أشعر بالسرعة في إهلاكهم ، والعصف
اليابس الذي تعصف به الريح خلفه .

ومتى كان وجود الجدرى طفرة وفجاءة ، إنه يظهر في حالات فردية ، ثم ينتشر هذا من الناحية العلمية ، وإدراك العقل ، لما عرف من ميكروب الجدرى .

ولكن ملاسبات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلا لعدم انتشاره في جميع أفراد المنطقة ، ولعدم تأثيره فعلا بهذه الصورة ، ولعدم أيضاً تصور مجيئه فجاءة ، فدل العقل نفسه على عدم صحة هذا القول .

ثم من ناحية أخرى إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها ، فكيف تثبت مثل : حنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه ؟

وقد شاهد العقل الصورة القصوى ، وهي خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح ، بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد ما لا ندرك كنهه في وسائل الإعلام ، ونسمع الصوت من الجهاد مسجلاً على شريط بسيط جداً .

فهل ينفي الباقي ؟ بل كيف أثبت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام إبراء الأكه والأبرص . وإحياء الموتى ، وعمل الطير من الطين ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر ؟ وأين العقل
من ذلك كله ؟

الواقع أننا فى كل زمان ومع كل قضية ، يجب أن نلتزم جانب
الاعتدال ، لا هو جرى وراء كل خبر ، ولو كان إسرائيلياً ولا هو
رد لكل نص ولو كان صريحاً قرآنياً ، بل كما قال السيد قطب
فى ذلك :

يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن ، وأن ما يقرره نعتقه
ونقول به .

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التى استبعدت ذلك كلية ،
والحديثة التى أولتها .

ونضيف شيئاً آخر فى جانب الفكرة الثانية ، وهى لعل مما حدا
بأصحابها إلى ذلك ماجاء عن قتادة قوله : إنه لم ير الجدرى بأرض
العرب مثل تلك السنة .

وقيل أيضاً : لم ير شجر الخنظل ، إلا فى ذلك التاريخ .

فيقال أيضاً : إن العقل لا يستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش
الكبير بملك الحجارة فى مكان معسكره فى بطن الوادى ، ووقوع

البحث مصابة بها ، لا يمنع أن تتعفن ثم يتولد منها مكروب الجدرى ، ولا مانع من ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

قالوا : إن أصحاب هذا الجيش نصارى وهم أهل دين وكتاب ، وأهل مكة وثنيون لادين لهم ، والسكينة ممتلئة بالأصنام ، فكيف أهلك الله النصارى أصحاب الدين ولم يسلطهم على الوثنيين ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة .

منها : أن الجيش ظالم باغ ، والبغى مرتبه وخيم ، ولو كان المظلوم أقل من الظالم ، ويشهد لذلك الحديث « في نصرة المظلوم ، واستجابة دعوته ولو كان كافرا » .

ومنها : أن الوثنية اعتداء على حق الله في العبادة ، وغزو هذا للجيش اعتداء على حقوق العباد .

ومنها : أنه إرهاب من مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ ولد في هذا العام نفسه .

وكلها وإن كانت لها وجه من النظر ، إلا أنه يبدو لي وجه .

وهو أن الأصل في نشأة البيت وإقامته ، إنما هو الله رفع قواعده وأقام الصلاة في رحابه ، وكان طاهراً مطهراً للعاكفين فيه والركع السجود ، وإنما الوثنية طارئة عليه وإلى أمد قصير مداه ودنا منتهاه ، هدين جديد .

والمسيحية بنفسها تعلم ذلك وتنص عليه وتبشر به ، فكانت معتدية على الحقين معاً ، حق الله في بيته ، والذي تعلم حرمة وماله ، وحق العباد الذين حوله .

وكانت لو ساطت عليه بمثابة المنتصرة على مبدأ صحيح ، مع فسادها مبدأ صحة وسلامة بناء البيت ، ووضع البيت الذي من خصائصه أن يكون مثابة للناس وأمناً .

فكيف لا يأمن هو نفسه من غزو الغزاة وطفغيان اللطافة ، فصانه الله تعالى صيانة لمبدأ وجوده ، وحفاظاً على أصل وضعه في الأرض ، ويكفي نسبته لله بيت الله .

وقد أدرك أبوطالب هذا المعنى بعينه إذ قال لأبرهة :

أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه . وآتى باب الكعبة فتعلق بها وقال :

لام إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ——— ومجاهد عددا يوالك
 إن يدخلوا البلد الحرا م فأمر مابدا لك

وقيل : إنه قال :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
 إن عدو البيت من عاداكا لهم إن يقهروا قواكا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ قُلُوبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ . إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ .

اختلف في اللام في لإيلاف قريش ، هل هي متعلقة بما قبلها ،
موصلة أى معنى . أم متعلقة بما بعدها ، وعلى أى معنى .

فن قال : متعلقة بما قبلها ، قال متعلقة يجعل في قوله : (فجعلهم
كمصف مأكول)

ونكون بمعنى لأجل إيلاف قريش بدوم لهم . ويبقى تعظيم العرب
ليامهم ، لأنهم أهل حرم الله ، أو بمعنى إلى أى جعلنا العدو كمصف
مأكول ، هزيمة له ونصرة لقريش نعمة عليهم ، إلى نعمة إيلافهم رحلة
الشتاء والصيف .

ومن قال : متعلقة بما بعدها ، قال لإيلاف قريش إيلافهم الذى

ألقوه أى بمثابة التقرير له ، ورتب عليه ، فليعبدوا رب هذا البيت . أى أثبتته إليهم وحفظه لهم .

وهذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير ، ورواه ابن عباس ، ورد جواز القول الأول ، لأنه يلزمه فصل السورتين عن بعض .

وقيل : إنها للتعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قریش ، حكاة للقرطبي عن الكسائي والأخفش ، والقول الأول غيره .

وروى أيضاً عن ابن عباس وغيره ، واستدلوا بقراءة السورتين معاً في الصلاة في ركعة قرأ بهما عمر بن الخطاب ، وبأن السورتين في أبي بن كعب متصلتان ، ولا فصل بينهما .

وحكى القرطبي التولين ، ولم يرجح أحدهما ، ولا يبعد اعتبار الوجهين لأنه لا يعارض بعضها بعضاً .

وما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس يلزم ، لأنه إن أراد اتصالهما في المعنى ، فالقرآن كله متصلة سورة معنى .

ألا ترى إلى فاتحة الكتاب وفيها (اهدنا الصراط المستقيم) فجاءت سورة البقرة : (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وبعدها ذكر

أوصافهم وقال (أولئك على هدى من ربهم) فأى ارتباط أقوى من هذا ، كأنه يقول : المهدى الذى تطلبونه فى هذا الكتاب فهو هدى للمعتقين ، وإن إراد اتصالاً حساً بعدم البسملة ، فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ، ولكن لا حاجة إلى ذلك ، لأن إجماع القراء على إثبات البسملة بينهما ، اللهم إلا مصحف أبى بن كعب ، وليس فى هذين الوجهين وجه أرجح من وجه .

ولذا لم يرجح بينهما أحد من المفسرين ، سوى ابن جرير رحمه الله :

وصحة الوجهين أقوى وأعم فى الامتنان وتعداد النعم .

والإيلاف : قيل من التأليف ، إذ كانوا فى رحلتهم يألفون للملك فى الشام واليمن ، أو كانوا هم فى أنفسهم مؤلفين ومجمعين ، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف ، ولو سلط عليهم لفرقهم وشقتهم ، وأنشدوا :

أبونا قصى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وقيل : من الألف والتعود ، أى ألفوا الرحلتين .

فللابقاء لهم على ما ألفوه وقريش . قال أبو حبان : علم على

القبيلة .

وقيل : أصلها من القرش ، وهو الاجتماع أو التكسب والجم .

وقيل : من دابة البحر المسماة بالقرش وهي أخطر حيواناته ، وهو مروي عن ابن عباس في جوابه للمعاوية .

وأشد قول نب :

وقريش هي التي تسكن البحر — بها سميت قريش قريشاً
تأكل الرث والسمين ولا تترك فيها لدى جناحين ريشاً
هكذا في البلاد حتى قريش يأكلون البلاد أكلاً كميثاً
ولهم آخر الزمان نهي يكثر القتل فيهم والمحوشا

وقوله تعالى : (رحلة الشتاء والصيف) هو تفسير لإيلاف سواء على ما كانوا يؤلفون بين الملوك في تلك الرحلات ، أو ما كانوا يلقونه فيهما .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .

المراد بالبيت : البيت الحرام ، كما جاء في دعوة إبراهيم عليه وعلى عبينا الصلاة والسلام (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) .

وقوله تعالى : (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) .

بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة ، لأنه سبحانه الذي هيا لهم هاتين الرحلتين اللتين كانتا سبباً في تلك النعم عليهم ، فكان من واجبه أن يشكروه على نعمه ويعبدوه وحده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى ، عند قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) وساق النصوص بهذا المعنى بما أغنى عن إعادته .

تنبيه

في قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ربط بين النعمة وموجبها ، كالربط بين السبب والمسبب .

ففيه بيان لموجب عبادة الله تعالى وحده ، وحقه في ذلك على عباده جميعاً ، وليس خاصاً بقريش .

وهذا الحق قرره أول لفظ في القرآن ، وأول نداء في المصحف ،

فالأول قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) كأنه يقول هو سبحانه مستحق للحمد ، لأنه رب العالمين ، أى خالقهم ورازقهم ، وراحمهم إلى آخره .

والثانى : (يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب بقوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

ثم عدد عليهم نعمه بقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

فهذه النعم تعادل الإطعام من جوع ، والأمن من خوف ، فى حق قريش ، ومن ذلك قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) .

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها ، إلا ما كان استدراجا ، فقال فى شكر النعمة : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وقال فى الكفران وعواقبه : (وضرب الله مثلا قرية كانت

آمنة مطمئة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفراداً وجماعات ، أن يقابلوا
نعم الله بالشكر ، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله ، وأن يحذروا
كفران النعم .

تنبيه آخر

في الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف ، نعمة عظمى . لأن
الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معاً ،
إذ لا عيش مع الجوع ، ولا أمن مع الخوف . وتكمل النعمة
باجتماعهما .

ولذا جاء الحديث « من أصبح معافى بدنه آمناً في سربه
عنده قوت يومه ، فقد اجتمعت عنده الدنيا بحذاقها » .

تنبيه آخر

إن في هذه السورة دليلاً على أن دعوة الأنبياء مستجابة ، لأن
الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لأهل الحرام بقوله :

(فاجمل أفسدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) .

وقال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك)
فأطمعهم الله من جوع وآمنهم من خوف ، وبعث فيهم رسولا منهم
يتلوا عليهم آياته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْمَاءِ عُنْفًا

•

•

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ . فَذَلِكَ الَّذِي
يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ .

الذي يكذب بالإيمان ، فيه اسم الموصول مبهم بينه ما بعده ، وهو
الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين .

وقد بين تعالى في آية أخرى ، أن الإيمان بيوم الدين يحمل
صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين ، في قوله تعالى : (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ
عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيتِيمًا وأسيرا) .

ثم قال مبيناً الدافع على إطعامهم إياهم : (إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ
لَا زَيْدٌ مِنْكُمْ جَزَاءٌ وَلَا شُكْرًا ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا
قَطَرِيرًا) .

وهنا سؤال : وهو لم خص المكذبين بيوم الدين عن يرتكب
هذين الأمرين دع اليتيم ، وهو دفعه وزجره ، وعدم الحض على إطعام
المسكين ، وبالتالي هدم إطعامه هو من عنده ؟

والجواب : أنهما نموذجان ، ومثالان فقط .

والأول منهما : مثال للفعل القبيح .

والثانى : مثال للترك المذموم .

ولأنهما حملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان ، قبل كل
شئ .

وفى الآية الأخرى توجيه للجواب ، وهو أن المؤمن يخاف من
الله يوماً عبوساً ، وعبر بالعبوس فى حق يوم القيامة ، لثلا يمسس هو
فى وجه اليتيم والمسكين لضعفهما .

ومن جانب آخر فإن كان التكذيب بيوم الدين ، يحمل على كل
الموكلات ، إلا أنها قد تجد ما يمنع منها ، كالقتل والزنى والخمر لتعلق
حق الآخرين ، وكذلك السرقة والنهب .

أما إيذاء اليتيم وضياع المسكين ، فليس هناك من يدفع عنه ،
ولا يمنع إيذاء هؤلاء عنهما ، وليس ليهما الجزاء الذى ينتظره أولئك
منهم على الإحسان إليهم

وجبلت النفوس على ألا تبدل إلا بعوض ، ولا تكف إلا عن
خوف ، فالخوف مأمون من جانبي اليتيم والمسكين ، والجزاء غير
مأمول منهما ، فلم يبق دافع للإحسان إليهما ، ولا رادع عن الإساءة

لهما إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء ، فيحاسب الإنسان على منقال
الذرة من الخير .

وقيل : إن دع اليتيم : هو طرده عن حقه ، وعدم الخس على
طعام المسكين : عدم إخراج الزكاة .

ولكن في الآية ما يمنع ذلك ، لأن الزكاة إنما يطالب بها المؤمن
والسياق فيمكن يكذب بيوم الدين فلا زكاة .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .

اختلف في المصلين الذين توجه إليهم الوعيد بالويل هنا .

والجمهور : على أنهم الذين يسهون عن أدائها ، ويتساهلون في أمر
الحفاظة عليها .

وقيل : عن الخشوع فيها وتدبر معانيها .

ولكن الصحيح أنه الأول .

وقد جاء عن عطاء وعن ابن عباس أنهما قالوا : الحمد لله الذي
قال عن صلاتهم ، ولم يقل في صلاتهم ، كما أن السهو في الصلاة لم
يسلم منه أحد ، حتى أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم لما سلم من
ركعتين في الظاهر كما هو معلوم من حديث ذى الديدن ، وقال : « إني
(٣٥ - أضواء البيان ج ٩)

لَا أُنْسِي ، وَلَكِنِّي أُنْسِي لِأُنْسٍ » فكيف ينسيه الله ليسنَّ للناس أحكام السهو ، ويقع الناس في السهو بدون عمد منهم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكروها عليه » .

وقد عقد الفقهاء باب سجود السهو تصحيحاً لذلك .

لذلك بقي من المراد بالذين هم عن صلاتهم ساهون .

قيل : نزلت في أشخاص بأعيانهم .

وقيل : في كل من أخر الصلاة عن أول وقتها ، أو عن وقتها كله ، إلى غير ذلك ، أو عن أدائها في المساجد وفي الجماعة .
وقيل : في المنافقين .

وفي السورة تفسير صريح لهؤلاء ، وهو قوله تعالى : (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

والمرأى في صلاته قد يكون منافقاً ، وقد يكون غير منافق .

فالرياء أعم من جهة ، والنفاق أعم من جهة أخرى ، أي قد يرأى في عمل ما ، ويكون مؤمناً بالبعث والجزاء وبشكل أركان الإيمان ، ولا يرأى في عمل آخر ، بل يكون مخلصاً فيه كل الإخلاص .

والموافق دائماً ظاهره مغالف لباطنه فى كل شىء ، لافى الصلاة فقط .

ولكن جاء النص : بأن المراءة فى الصلاة ، من أعمال المنافقين .

وجاء النص أيضاً . بأن منع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين ، كما فى قوله تعالى : (إن الإنسان خالق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان السهو عنها وإضاعته عند قوله تعالى : (تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً ، إلا من تاب) الآية .

وبين فى آخر المبحث تحت عنوان : مسألة فى حكم تاركى الصلاة جحداً أو كسلا . وزاده بياناً ، عند قوله تعالى : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فى دفع إيهام الاضطراب للجمع بين هذه الآية وآية (ما سلككم فى سقر) .

وذكر قول الشاعر :

• دع الساجد للعباد تسكنها •

على ما سنده بعد ، ثم نبه قائلا : إذا كان الوعيد عن
يسهو عنها فكيف من يتركها ١٩ هـ .

وقد تساءل بعض المفسرين عن موجب اقتران هذه الآية بالتي
قبلها .

وأجابوا : بأن السكل من دوافع عدم الإيمان بالبعث ، ومن
موجبات التكذيب بيوم الدين ، فهي مع ما قبلها في قوة ، فذلك الذي
يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وعن صلاتهم ساهون ،
قويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .

فجمعهم مع الأول ، ونص على وعيده الشديد ، وبين وصفاً ولهم ،
وهو أنهم يتمتعون الماعون .

تنبيه

في هذه السورة ، وفي آية (والذين هم على صلاتهم يحافظون)
التي هي من صفات المؤمنين معادلة كبيرة .

إحداها : في المنافقين تاركى الصلاة أو مضيمها .

ولأخرى في المؤمنين المحافظين عليها ، أى أن الصلاة هي المقياس
والحد الفاصل .

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن ترك الصلاة فقد كفر » .

أما أثر الصلاة فى الاسلام ، وعلى الفرد والجماعة ، فهى أعظم من أن تذكر .

وقد وجدنا بعض آثارها وهو المראה فى العمل ، أى ازدواج الشخصية والانعزال فى منع الماعون ، أى لا يمد يد العون ولو باليسير لمجتمعه الذى يعيش فيه ، وقد جاءت نصوص صريحة فى مهمة الصلاة عاجله وآجلة .

ففى العاجل قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، ومن الفحشاء : دع اليتيم وعدم إطعام المسكين ، فى الدرجة الأولى .

ومنها : كل رذيلة منكورة ، فهى إذن سياج للإنسان يصونه عن كل رذيلة . وهى عون على كل شديدة ، كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) فجعلها قرينة الصبر فى التغلب على الصعاب ، وهى فى الآخرة نور ، كما قال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الآية . مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء » .

وقوله (يئمنون الماعون) قيل : فى الماعون الزكاة لقلتها ،

والماعون : القليل ، والماعون : المال في لغة قريش .

وقيل : هو ما يعين على أى عمل ، ومنه اللو والفأس والإبرة والقدر . ومحو ذلك .

وإذا كان السهو عن الصلاة يحمل على منع الماعون ، فإن من يمنع الماعون وهو الآلة أو الإناء يقضى به الحاجة ثم يرد ، كما هو بدون نقصان ، فلأن يمنع الصدقة أو الزكاة من باب أولى .

ومن هنا : لم يكن المنافق ليزكى ماله ولا يتصدق على محتاج ، بل ولا يقرض آخر قرضاً حسناً . ولذا نجد تفشى الربا في المنافقين أشد وأكثر .

وهنا يأتى مبحثان :

الأول منهما : حكم الرياء وما حده ؟

والثانى : حكم العارية .

أما الرياء : فقيل هو مشتق من الرؤية ، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد عليها ، وقد جاء في الحديث تسميته الشرك الخفى : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفى ،

قالوا : وما الشرك الخفى يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، فإنه أخفى في نفوسكم من ديب ال .

وجاء قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وبيان الشرك فيه أنه يعمل العمل مما هو أصلاً لله ، كالصلاة أو الصدقة أو الحج ، ولكنه يظهره لتقصد أن يحمده الناس عليه .

فكان هذا الجزء منه مشاركة مع الله ، حيث أصبح من عمله جزء لطلب الثناء من الناس عليه .

وقد جاء حديث أبي هريرة عند مسلم : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك معي غيره تركته وشركه » .

أما حكم الرياء في العمل ، ففي هذا النص دلالة على رد العمل على صاحبه ، وتركه له .

ف قيل : إنه يكون لا له فيه ، ولا عليه منه .

ل : لا يخلو من ذم ، كما حذر الله تعالى منه بقوله :

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس) .

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى راء الله به ، ومن سمع سمع الله به » رواه مسلم .

والسمع : هو العمل لسمع الناس به كما في حديث الولية « في اليوم الأول والثاني والثالث سمعة . ومن سمع سمع به » .

فالرياء مرجعه إلى الريبة ، والسمع مرجعه إلى السماع .

ومعلوم أنها نزلت في قريش يوم بدر ، وقد أحبط الله عملهم ، وردهم على أعقابهم .

وفي حديث أبي هريرة . وقيل : إنه محبط للأعمال لمسمى الشرك لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وأجيب : بأنه يحبط العمل الذي هو فيه فقط ، فإن رأى في الصلاة أحبطها ولا يتعدى إلى الصوم ، وإن رأى في صلاة نافلة لا يتعدى إحباطها إلى صلاة فريضة ، وهكذا ، قد يبدأ عملاً خالصاً لله ، ثم بطراً عليه شبح الرياء ، فهل يسلم له عمله أو يحبطه ما طراً عليه من الرياء ؟

فقالوا : إن كان خاطراً ودفعه عنه فلا يضره ، وإن استرسل معه . فقد رجح أحد وابن جرير ، عدم بطلان العمل نظراً لسلامة القصد ابتداء .

ودليلهم في ذلك : ما روى أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن بنى سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله تعالى قال : « كلهم إذا كان أصل أمره ، أن تكون كلمة الله هي العليا »

وذكر عن ابن جرير : أن هذا في العمل الذي يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام .

أما ما كان مثل القراءة والعلم ، فإنه يلزمه تجديد النية الخالصة لله ، أى لأن كل جزء من القراءة ، وكل جزء من طلب العلم مستقل بنفسه ، فلا يرتبط بما قبله .

وهناك مسألة : وهي أن العبد يعمل العمل لله خالصاً ، ثم يطلع عليه بعض الناس ، فيحسنون الثناء عليه فيعجبه ذلك . فلا خلاف أنه ليس من الرباء في شيء لما جاء في حديث أبي ذر رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل من الخير يحمده الناس

عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم « عاجل بشرى المسلم » رواه مسلم .
وقد ذكر بعض العلماء : أن من كان يعمل عملاً خفياً ، ثم حضر
بعض الناس فتركه من أجلهم خشية الرياء ، أنه يدخل في الرياء ، لأنه
يضعف في نفسه أن يخلص النية لله ، وفي هذا بُعد ومشتة .

أما منع الماعون وإعطاؤه ، وهو العارية كما تقدم .

فإن مبحث العارية في ناحيتين : ما هي العارية ، والثاني : حكمها
أرأى أم مباح ، وحكم مانها مضمونة أم لا ؟

أما تعريفها عند الفقهاء : هي إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال ،
مع بقاء عينه .

وقولهم مع بقاء عينه : كالقدر والفأس والإبرة والمنخل ، ونحو
ذلك ، بخلاف ما يكون إلتلافه في استعماله ، كالشمع للاضاءة ، والزيت
للدهن ، والكحل للاكتحال ، ونحو ذلك ، مما تنفذ عينه باستعماله ،
فلا يكون عارية ، ولكن يكون قرضاً ، وفقرض يكون معاوضته
بمثله .

أما حكم العارية . فقيل : جائز .

وقيل : بل واجب .

وقيل : مستحب .

وحكى ابن قدامة الإجماع على استحبابها ، ودليل من قال بالوجوب .
 بقص الآية : (ويمنعون الماعون) والحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى
 حق الإبل لما ذكر الزكاة « وأن حقها إعارة دلوها ، وإطراق فحلها ،
 ومنحه لبنها ، يوم ورودها » .

والواقع أن هذا الحديث ذكر فيه ما ليس بعارية قطعاً ، مثل طرق
 الفحل ومنع اللبن ، مما يضعف الاستدلال به .

وقد ساق المجد فى المنتقى برواية أحمد ولهم .

أما الوعيد فى الآية فقالوا : هو منصب على الصفات الثلاث :
 السهو عن الصلاة ، والرياء فى العمل ، ومنع الماعون جميعاً ، ومن
 انصف بوا . فله قدره من الوعيد بحسبه .

وأقل ما يقال فيها ما جاء فى قوله تعالى : (وتعاونوا على البر
 والتقوى) والحديث الصحيح فى حق الزكاة ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم
 الذهب والنفضة والإبل والبقر والخليل ، وقال : « ولا ينسى حق الله
 فى ظهرها » .

ثم سئل عن الحر ، فقال : « لم أجد إلا الآية الشاذة الفاذة :
 (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) » .

وإعارة المتاع لإباحة المنفعة وهى خير كثير .

والحديث الآخر : « لا يمل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس »
ونقل الشوكاني عن الكشاف قولاً : أنها تكون واجبة عند
الاضطرار ، وقبيح في غير الضرورة مروءة . ١٥ .

والضرورة : مثل الدلو إذا وردت الماء ولا دلو معك ، وفي اضطرار
إلى الماء .

وقياس الفقهاء : أنه لو تلف شيء بسبب ذلك لضمن المانع .

كما قالوا في الامتناع في بعض الصور : هل هو فعل أم ترك ؟
مثل من كان عنده خيط ، واحتيج إليه في خياطة جرح إنسان ،
أو قطنه فأت ، فهل يعد ترك إعطاء الخيط مجرد ترك لا يؤاخذ عليه ،
أو يعتبر فعلاً لأنه تسبب عنه موت إنسان . ومثله منع الدلو ليروى
أو يستقى إبله أو يشرب هو ؟

والصحيح عندهم : أن الترك في مثل هذه الحالة يؤاخذ عليه مؤاخذه
الفعل ، كما قال صاحب مراقي السعود .

* والترك فعل في صحيح المذهب *

وهنا ما يشهد له الاستعمال العرب الصحيح : كما قيل في بناء المسجد :

لئن قمداً والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

فسمى القمود عن العمل عملا مضللا ، فتحصل من هذا أن العارية مستحبة شرعا ومروءة وعرفا في حالة الاختيار ، وواجبة في حالة الاضطرار ، مع ملاحظة أن حالات الاستعارة أغلبها اضطرار ، إلا أن حالات الاضطرار تختلف ظروفها .

وقد امتدح الله الأنصار بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فالعارية من باب أولى ، لأنه ينفع بها وترد لصاحبها .

وقد امتدح الشاعر القوم بعدم منعمهم الماعون ، بقوله :

قوم على الإسلام ولما عنعوا ماعونهم ويضيع التهليلة

وإن كان بعض الناس حل الماعون هنا على الزكاة ، ولكن قول الشاعر : قوم على الإسلام ، يتضمن إخراجهم الزكاة ضمن إسلامهم ، فيكون الباقي امتداد حالهم في خصوص الماعون .

بني مبحث ضمانها : تختلف الأقوال في ضمان العارية ، فبعضهم يعتبرها أمانة ، وعليه فلا تكون مضمونة وهذا مذهب الحنفية والمالكية ، إذا لم يحصل منه تعد .

وعند الشافعي وأحمد : أنها مضمونة ، إلا إذا كانت على الوجه المأذون فيه .

كما قالوا في السيف : يستعيره فينكسر في القتال فلا ضمان فيه .

واستدل من قال بضمانها بالحديث العام « على اليد ما أخذت ، حتى تؤديه » رواه المجد في اللقتى ، وقال : رواه الخمسة إلا النسائي .

ويحدث صفوان بن أمية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين أذرعاً قيل ثلاثين ، وقيل ثمانين ، وقيل مائة . فقال : أغضباً يا محمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة » فقال : فضاع بعضها ، فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يضمها له ، فقال : أنا اليوم في الإسلام أرغب » رواه أحمد وأبوداود .

ونص الفقهاء : أن ضمانها بقيمتها يوم تلفت أو بمثلها ، إن كانت مثلية ، ويستدل له بما جاء في قصة حفصة لما ضربتها عائشة فسقطت على الأرض فانكسرت ، وانتثر الطعام . فأخذ صلى الله عليه وسلم قصة عائشة وردها إلى حفصة ، وقال : « قصة بقصة ، وطعام بطعام » أي أن الضمان إما بالمثل إن كان مثلياً ، أو بالقيمة إن كان مقوماً .

وإذا كانت العارية مضمونة وحكمها الجواز ، فلمستعير طلب ردها متى شاء ، إلا إذا تلفت بها مصلحة المستعير ، ولا يمكن ردها إلا بمضرة عليه .

قالوا : كن أعار سفينتي وتوسط بها المستعير عرض البحر :

فلا يملك المير ردها لتعذر ذلك وسط البحر .

وقيل : له طلبها ، وتكون بالأجرة على المستعير ، والأول أرجح .

وكالذي أعار أرضا للزراع ، وقبل أن يستحصد الزرع يطلبها صاحبها ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

حكم من جحد العارية

إن حديث المرأة الخزومية مشهور ، وهو أنها كانت تستعير المتاع وتجده ، فاشتهرت بذلك ، ثم أنها سرقت فقطعت في السرقة ، لا في جحد المتاع المستعار ، وهذا هو الأصح . لأن السرقة لا تكون إلا على وجه التخفي ومن حرز .

والاستعارة خلاف ذلك ، وإنما تدخل في قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » وحديث « أد الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك » رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن .

وهذا مجمل مباحث العارية ، وتفصيل فروعها في كتب الفقه

أوجزنا منه ما يتعلق بمنع الماعون وعدم جواز مسه ، وما يتعلق ببذله ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

في هذه السورة بيان منهج علمي يلزم كل باحث ، وهو جمع أطراف النصوص وعدم الاختصار على جزء منه ، وذلك في قوله تعالى : (فويل للمصلين) وهي آية مستقلة ، ولو أخذت وحدها لكانت بعيداً للمصلين .

كما قال الشاعر الماخن في قوله :

دع المساجد للعباد تسكنها وسر إلى خانة الخمار يسقينا
ما قال ربك ويل للألى سكروا وإنما قال ويل للمصلينا

ولذا لا بد من ضمنية ما بعدها للتفسير والبيان ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، ثم فسر هذا للتفسير أيضاً بقوله : (الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون) .

ومثل هذه الآية من الحديث ، ما جاء عند ابن ماجه مانعه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن مسيرة المسجد تمطلت : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من عمر مسيرة المسجد كتب له كفلان من الأجر » .

هذا الحديث وإن كان في الزوائد ، قال عنه : في إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف ، إلا أنه نص فيما تمثل له لأن من اقتصر على جوابه صلى الله عليه وسلم اعتبر مسيرة المسجد أفضل ، ومن جمع طرفي الحديث عرف المقصود منه .

ويتفرع على هذا ما أخذه مالك رحمه الله في باب الشهادة : أن الشخص لا يحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه ، إلا إذا استشهدوه عليه ، وقالوا : أشهد عليه ، أو إلا إذا سمع الحديث من أوله مخافة أن يكون في أوله ما هو مرتبط بآخره ، كما لو قال المتكلم للآخر : لي عندك فرس ، ولك عندي مائة درهم ، فيسمع قوله : لك عندي مائة درهم ، ولم يسمع ما قبلها . فإذا شهد على ما سمع كان إضراره بالمشهود عليه ، وهذه السورة تدل لهذا المأخذ ، والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .

الكوثر فوعل من الكثرة ، وأعطيناك قرىء : أنطيناك ، بإبدال
لِعين نونا ، وليست النون مبدلة عن العين ، كإبدال الألف من الواو
أو العين في الأجوف ونحوه ، ولكن كلا منهما أصل بذاته ، وقراءة
مستقلة . قاله أبو حيان .

واختلف في الكوثر .

فقليل : علم .

وقليل : وصف .

وعلى العلمية قالوا : إنه علم على نهر في الجنة ، وعلى الوصف
قالوا : الخير الكثير .

ومما استدل به على العلمية ، ما جاء في السنة من الأحاديث الصحيحة .
فذكرها ابن كثير وغيره .

وفي صحيح البخارى عن أنس قال : لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال « أتيت نهر حافتاه قباب الأولاد بجوف . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » .

وبسنده أيضاً عن عائشة رضى الله عنها « سئلت عن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، شاطئاه عليهما در مجوف ، أنيقه كعدد للنجوم » .

وبسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله لإياه .

قال أبو بشر : قلت لسميد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير ، الذى أعطاه الله لإياه .

وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد رحمه الله : ومنها بسند أحمد إلى أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإغفاءة ، فرفع رأسه متبسماً إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه نزلت على آنفك سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها ،

فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال =
نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي
يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يخرج العبد منهم ، فأقول : يارب
إني من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . »

وذكر ابن كثير ما جاء في صفة الخوض ، وهذه النصوص على
أن الكوثر نهر في الجنة ، أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث الأخير عن الإمام أحمد قوله : « عليه خير كثير »
يشعر بأن معنى الوصفية موجود .

ولذا قال بعض المفسرين : إنه الخير الكثير .

ومن قال ذلك ابن عباس ، كما تقدم في حديث البخاري عنه

واستدلوا على المعنى ، بقول الشاعر الكمي :

وأنت كثير يا بن مروان طيب وكان أبوك ابن الفصائل

والذي تظمن إليه النفس أن الكوثر ، هو الخير الكثير ، وأن
الخوض أو النهر من جملة ذلك .

وقد أتت آيات تدل على إعطاء الله لرسوله الخير الكثير ، كما جاء

في قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)
الآية .

وفي القريب سورة الضحى وفيها : (ولسوف يعطيك ربك فترضى)
أعقبها بنعم جليلة من شرح الصدور ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، واليسر
بعد العسر .

وبعدها في سورة التين جعل بلده الأمين ، وأعطى المؤمنين الذين
يعملون الصالحات أجراً غير ممنون .

وبعدها سورة اقرأ . امتن عليه بالقرآن ، وعلمه ما لم
يكن يعلم .

وبعدها سورة القدر : أعطاه ليلة خيراً من ألف شهر .

وبعدها سورة البينة : جعل أمته خير البرية ، ومنحهم رضاهم
هنهم ، وأرضاهم عنه .

وبعدها سورة الزلزلة : حفظ لهم أعمالهم ، فلم يضيع عليهم مثقال
الذرة من الخير .

وفي سورة العاديات : أكبر عمل الجهاد ، فأقسم بالعاديات في سبيل
الله ، والنصر على الأعداء .

وفي سورة التكاثر : تربيتهم على نعمه ليشكروها ، فيزيدهم من فضله .

وفي سورة العصر : جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، تؤمن بالله وتعمل الصالحات ، وتتواصى بالحق وتدعو إليه ، وتتواصى بالصبر ، وتصبر عليه .

وبمدها في سورة قريش : أكرم الله قومه ، فأمنهم وأعطاهم رحلتهم .

وفي السورة التي قبلها مباشرة ، وهي سورة الماعون : يمكن عمل مقارنة تامة أولا

وفي الجملة ، لئن كان المنافقون يمدحون الماعون ، فقد أعطيناك الخير الكثير ، ثانياً .

وعلى التفصيل ففي الأولى : وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم ، وفي الضحى قد بين له حق اليتيم (فأما اليتيم فلا تقهر) فكان هو خير موكل ، وخير كافل ، ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين .

وقد أوضح له في الضحى ، (وأما السائل فلا تنهر) فكان يؤثر السائل على نفسه ، وهؤلاء ساهون عن صلاتهم يراعون بأعمالهم .

وفي هذه السورة (فصل لربك) أداء الصلاة وخالصة لربه ، وإطعام المسكين بنحر المدي والضحية والصدقة ، وكل ذلك خير كثير ، يضاف إليه ما جاءت به السنة ، كما في حديث : « أعطيت خمسا لم يمظمن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وحلت لي العنائم ، ولم تكن تحمل لأحد قبلي . وكان النبي يبعث لقومه خاصة ، فبعثت للناس كافة ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأياما رجل أدركته الصلاة فليصل » .

وقوله : « رفع لي عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكبروا عليه » .

وفي قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

قال، صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : قد فعلت » .
قد فعلت » .

وقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك

ربك مقاماً محموداً) ، وهو المقام الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون .

إلى غير ذلك من النصوص ، بما يؤكد قول ابن عباس ، عند البخارى : إن الكوثر : الخير الكثير .

وأن النهر فى الجنة من هذا الكوثر الذى أعطيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ .

فى هذا مع ما قبله ربط بين النعم وشكرها ، وبين العبادات وموجبها ، فكما أعطاه الكوثر فليصل لربه سبحانه ولينحمله ، كما تقدم فى سورة لإيلاف قریش ، فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

وهناك (إنا أعطيناك الكوثر) وهو أكثر من رحلتهم وأمنهم ، (فصل لربك) مقابل (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وقيل : لأنه لما كان فى السورة قبلها بيان حال المنافقين فى السهو من الصلاة والرياء فى العمل ، جاء هنا بالقدوة الحسنة (فصل لربك) مخلصاً له فى عبادتك ، كما تقدم فى السورة قبلها (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وقوله تعالى فى تعليم الأمة ، فى خطاب شخصه صلى الله عليه وسلم

(لئن أشركت ليحبطن عملك) مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أقل من ذلك ، والصلاة عامة والفریضة أحصاها .

وقيل : صلاة العيد ، والنحر : قيل فيه أقوال عديدة :
أولها : في نحر الهدى أو نحر الضحية : وهي مرتبطة بقول من حل الصلاة على صلاة العيد ، وأن النحر بعد الصلاة كما في حديث البراء بن عازب « لما ضحى قبل أن يصلى ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة ، فقال : إني علمت اليوم يوم لحم فمجلت بضحيتي ، فقال له : شاتك شاة لحم ؟ فقال : إن عندنا لعناقا أحب إلينا من شاة ، أفنجزىء عنى ؟ قال : اذبحها ، ولن تجزىء عن أحد غيرك » .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وأما عند قوله تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) وقد ذكروا في معاني : وانحر : أى ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك في الصلاة ، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه .

وأقوال أخرى ليس عليها نص .

والنحر : هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة ، بالصدر .

وأصح الأقوال في الصلاة .

وفي النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبيح لما جاء في قوله تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) .

واتفق الفقهاء أن النحر للإبل ، والذبيح للغنم ، والبقر متردد فيه بين النحر والذبيح ، وأجمعوا على ذلك هو الأفضل ، ولو عمم النحر في الجميع ، أو عمم الذبيح في الجميع لكان جائزاً ، ولكنه خلاف السنة .

وقالوا : إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر ، هو طول العنق ، إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبيح بعيداً فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر ، بخلاف النحر في المنحر ، فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله ، أما الغنم فالذبيح مناسب لها ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ إِنْ شِئْتَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْآبِتَرِ ﴾ .

قال البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : شئتوك : عدوك اهـ

والآبتر : هو الأتطمع الذي لا عقب له .

وأنشد أبو حيان ، قول الشاعر :

لثم بدت في ألقه خبزوانة على قطع ذى القربى أجذ أبتر

وقال : شاتك : مبغضك .

وفي هذه الآية يخبر سبحانه تعالى : أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقطع .

ف قيل : نزلت في العاصي بن وائل .

قال القرشي : دعوه ، فإنه أبتر لا عقب له ، إذا مات استرحم ، فأنزلها الله تعالى ردأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جاء مصداقها بالفعل في قوله تعالى : في غزوة بدر في قوله تعالى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) .

فقتل صدائد قريش ، وصدق الوعيد فيهم

ومثله عموم قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين) .

وجاء : (تبت يدا أبي لهب وتب) .

فهي في معناها أيضاً .

وبقي ذكر رسول صلى الله عليه وسلم في عقبه من آل بيته ،
خوفى أمته كلها .

كما تقدم في قوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

نداء للمشركين بمكة ، لما عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته ويمأكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه ونحوه فرفض ، فقالوا : تقبل منا ما نعرضه عليك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فسكت عنهم فترت ، وقالوا له : إن يسكن الخير معنا أصبته ، وإن يكن معك أصبناه .

وفى مجيء : قل ، مع أن مقول القول كان قد يكفى في البلاغ ، ولكن مجيئها لغاية فما هى ؟

قال الفخر الرازى : إما لأنهم عابوه صلى الله عليه وسلم في السورة التى قبلها بقولهم : (إنه أتر) فجاء قوله : (قل) إشعاراً بأن الله يرد عن رسوله بهذا الخطاب ، الذى ينادى عليهم فى ناديتهم بأثقل الأوصاف عليهم ، فقال له : (قل يا أيها الكافرون) .

أو أنه لما كان هذا الخطاب فيه مغايرة المؤلف من مخاطبة معهم من أسلوب الحكمة والوعظة الحسنة ، وكان فيه من التقريع لهم ومجاهتتهم ، قل له : قل : إشعاراً بأنه مبلغ عن الله ما أمر به ،

وجاءت يا ، وهى لنداء البعيد ، لبعدهم فى الكفر والعناد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾

قيل : تكرار فى العبارات للتوكيد ، كتكرار (ويل يومئذ للمكذبين) وتكرار : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ونظيره فى الشعر أكثر من أن يحصر ، من ذلك ما أورده القرطبي رحمه الله :

هل لا سألت جموع كنفدة يوم ولو ابن أيننا
وقول الآخر :

يا علقمة يا علقمة يا علقمة خير تميم كلها وأكرمها
وقول الآخر :

يا أقرع بن حابس يا أقرع لماك إن يعصر أخوك تصرع
وقول الآخر :

ألا يا سلمى ثم سلمى ثم سلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم
وقد جاءت فى أبيات لبعض تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ، ضمن مساجلة له معه قال فيها :

تالله إنك قد ملأت مسامعي درًا عليه قد انطوت أحشائي
 زدي وزدي ثم زدي ولتكن منك الزيادة شافياً للداء
 فكرر قوله : زدي ثلاث مرات .

وقيل : ليس فيه تكرار ، على أن الجملة الأولى عن الماضي والثانية
 عن المستقبل .

وقيل : الأولى عن العبادة ، والثانية عن المعبود .

وقيل غير ذلك ، على ما سيأتي إن شاء الله .

والسورة في الجملة نص على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعبد معبودهم ،
 ولا هم عابدون لمعبوده ، وقد فسر قوله تعالى : (فقل لي عملى ولكم
 عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذا المعنى ،
 عند آية يونس تلك ، وذكر هذه السورة هناك .

وقد ذكر أيضاً في دفع إيهام الاضطراب جواباً على إشكال في
 السورة وهو قوله تعالى : (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون
 ما أعبد) نفي لعبادة كل منهما معبود الآخر مطلقاً ، مع أنا قد آمن
 بعضهم فيما بعد وعبد ما يعبده صلى الله عليه وسلم ، وأجاب عن ذلك
 بأحد أمرين : موجزهما أنها في جنس الكفار ، وإن أسلموا فيما بعد

فهو خطاب لهم ماداموا كفاراً إلى آخره ، أو أنها من العام المخصوص ، فتكون في خصوص من حقت عليهم كلمات ربك . اهـ . ملخصاً .

وقد ذكر أبو حيان وجهاً عن الزمخشري : أن ما يتعلق بالكفار خاص بالحاضر ، لأن ما إذا دخلت على اسم الفاعل تعيينه للحاضر . وناقشه أبو حيان ، بأن ذلك في مغالب لا على سبيل القطع

والذى يظهر من سياق السورة ، قد يشهد لما ذهب إليه الزمخشري ، وهو أن السورة تتكلم عن الجانبين على سبيل المقابلة جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهة الكفار في عدم عبادة كل منهما معبود الآخر .

ولكنها لم يساو في اللفظ بين الطرفين ، فمن جهة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في الجملة الأولى (لا أعبد ما تعبدون) عبر عن كل منهما بالفعل المضارع الدال على الحال : أى لا أعبد الآن ما تعبدون الآن بالفعل . ثم قال : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فعبر عنهم بالإسمية وعنه هو بالفعلية ، أى ولا أنتم متصفون بعبادة ما أعبد الآن .

وفي الجملة الثانية قال : ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . فعبر عنه بأنه ليس متصفاً بعبادة ما يعبدون ولا هم عابدون ما يعبد . فكان وصفه هو صلى الله عليه وسلم في الجملةتين بوصفين مختلفين

بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الإسمية تارة أخرى ، فكانت إحداها لنفي الوصف الثابت ، والأخرى لنفي حدوثه فيما بعد .

أما هم فلم يوصفوا في الجملتين إلا بالجملة الإسمية الدالة على الوصف الثابت ، أى في الماضى إلى الحاضر ، ولم يكن فيما وصفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث ، فلم يكن فيها ما يتعرض للمستقبل فلم يكن إشكال ، والله تعالى أعلم .

فإن قيل : إن الوصف باسم الفاعل يحتمل الحال والاستقبال ، فيبقى الإشكال محتملا .

قيل : ما ذكره الزمخشري من أن دخول ما عليه تعينه للحال ، يكفي في نفي هذا الاحتمال ، فإن قيل : قد ناقشه أبو حيان .

وقال : إنها أغلبية وليست قطعية .

قلنا : يكفي في ذلك حكم الأغلب ، وهو ما يصدقه الواقع ، إذ آمن بعضهم وعبد معبوده صلى الله عليه وسلم ، وما في قوله (ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) واقعة في الأولى على غير ذى علم ، وهى أصنامهم وهو استعمالها الأساسى .

وفى الثانية : فى حق الله تعالى وهو استعمالها فى غير استعمالها الأساسى ، فقيل : من أجل المقابلة ، وقد استعملت فيمن يعلم ، كقوله تعالى

(فَأَنكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) لأنهن في معرض الاستمتاع بهن ،
فلا قرينة جاز ذلك .

وقيل : إنها مع ما قبلها مصدرية ، أى ما مصدرية بمعنى عبادتكم
الباطلة ، ولا تمبدون عباداتى الصحيحة .

وهذا المعنى قوى ، وإن تعارض مع ما ذكر من سبب النزول ، إلا
أن له شاهداً من نفس السورة ويتضمن للمعنى الأول ، ودليله من السورة
قوله تعالى فى آخر السورة : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) فأحاطهم على عبادتهم ،
ولم يحلهم على معبودهم .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ .

هو نظير ما تقدم فى سورة بونس (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء
مما تعملون) .

وكقوله : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) .

وليس فى هذا تقريرهم على دينهم الذى هم عليه ، ولكن من
قبيل التهديد والوعيد كقوله :

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا
أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم مرادها) .

وفي هذه السورة قوله (قل يا أيها الكافرون) وصف يكنى بأن عبادتهم وديانتهم كفر .

وقد قال لهم الحق (لا أعبد ما تعبدون) لأنها عبادة باطلة ، عبادة الكفار ، وبعد ذلك إن أبيتُم إلا هي ، فلكم دينكم ولي دين .

تنبيه

في هذه السورة مسجع لإصلاحى ، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول ، لأن ما عرضوه عليه صلى الله عليه وسلم من المشاركة في العبادة ، يعتبر في مقياس المنطق حلاً وسطاً لاحتمال إصابة الحق في أحد الجانبين ، فجاء الرد حاسماً وزاجراً وبشدة ، لأن فيه أى فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق ، وفيه تعليق المشكلة ، وفيه تقرير الباطل ، إن هو واقعهم ولو لحظة .

وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين ، ونهاية للمهادنة ، وبداية المجابهة .

وقد قالوا : إن ذلك بناء على ما أمره الله به في السورة قبلها (إنا أعطيناك الكون) أى وإن كنت وصحبك قلة ، فإن معك الخير الكثير ، ولجئ قل لما فيها من إشعار بأنك مبلغ عن الله ، وهو الذى ينصرك ، ولذا جاء بعدها حالا سورة النصر وبعد النصر : تب العُدو .

وهذا في غاية الوضوح ، والله الحمد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

فيه ذكر النصر والفتح ، مع أن كلا منهما مرتبط بالآخر ،
فتح كل نصر فتح ، ومع كل فتح نصر .

فهل هما متلازمان أم لا ؟

كما جاء النصر مضافاً إلى الله تعالى ، والفتح مطلقاً .

أولا اتفقوا على نزول هذه السورة بعد فتح مكة .

ومعلوم : أنه سبق فتح مكة عدة فتوحات .

منها فتح خيبر ، ومنها صالح الحديبية ، ساء الله تعالى فتحاً في
قوله : (فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

والنصر يكون في معارك القتال ويكون بالحجة والسلطان ،
ويكون بكف العدو ، كما في الأحزاب . (ورد الله الذين كفروا
بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً
عزيزاً) .

وكا في اليهود قوله : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً) .

فالنصر حق من الله ، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

وقد علم المسلمون ذلك ، كما جاء في قوله تعالى : (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فهم يتطلعون إلى النصر .

ويأتيهم الجواب (ألا إن نصر الله قريب) .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : « نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ »

وقد قال تعالى لموسى وأخيه (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) فهو نصر معية وتأيد ، فالنصر هنا عام .

وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام ، وأعظم الفتح فتحان : فتح الحديبية ، وفتح مكة .

إذ الأول تمهيد للثاني ، والثاني قضاء على دولة الشرك في

الجزيرة ، وبديل لإرادة العموم في النصر والفتح .

قوله تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾

فكان الناس يأتون من كل جهة حتى من اليمن ، وهذا يدل على كمال الدعوة ونجاح الرسالة .

وبدل لهذا مجيء آية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) ، وكان نزولها في حج تلك السنة .

ويلاحظ أن النصر هنا جاء بلفظ نصر الله ، وفي غير هذا جاء نصر الله ، وما النصر إلا من عند الله .

ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكال ، كما في بيت الله . مع أن المساجد كلها بيوت لله ، فهو مشعر بالنصر كل النصر ، أو تمام للنصر كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفتح ، هنا قيل : هو فتح مكة ، وقيل فتح المدائن وغيرها .

وتقدمت الإشارة إلى فتوحات عديدة ، قبل مكة .

وهناك فتوحات موعود بها بمد فتح مكة نص صلى الله عليه وسلم

عليها منها في غزوة الأحزاب وهم ، يحفرون الخندق ، لما اعترضتهم كدبة وأعجزتهم ، ودعى إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذ ماء وتمضمض ودعا ما شاء الله أن يدعو ثم ضرب ، فكانت كالكتيب .

وقد جاء فيها ابن كثير بعدة روايات وطرق مختلفة ، وكلها تذكر أنه صلى الله عليه وسلم ضرب ثلاث ضربات ، فأرقت تحت كل ضربة برقة ، وكبر صلى الله عليه وسلم عند كل واحدة منها ، فسألوه فقال « في الأولى : أعطيت مفاتيح فارس » وذكر ابن القيم والشام ، وكلها روايات لا تخلو من نقاش ، ولكن لكثرتها يقوى بعضها بعضاً .

وأقواها رواية النسائي بسنده قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ المول ووضع رداءه ناحية الخندق ، وقال : تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ، فنذر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ثم ضرب الثانية ، وقرأ ما قرأ أولاً ، وبرقت أيضاً . ثم الثالثة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تمكسرت ، فأخذ رداءه صلى الله عليه وسلم

وجلس ، فسأله سلمان لما رأى من البرقات الثلاث : فقال له : أرايت ذلك ؟ قال : أى والذى بمنك بالحق يا رسول الله ، فأخبرهم أنه رفعت له فى الأولى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رآها بيمينه ، فقالوا : ادعوا الله لنا أن يفتح علينا .

فدعا لهم ، وفى الثانية : رفعت له مدائن قيصر وما حولها ، وفى الثالثة مدائن الحبشة ، وكلها يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم فتفتح عليهم ، فدعا لهم إلا فى الحبشة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعوا الحبشة ما ودعوكم . واتركوا الترك ما تركوكم » انتهى ملخصاً .

وقد رواه كل من ابن كثير والنسائى مطولاً ، فهذه الروايات وإن كانت تحتل مقالا .

فقد جاء فى الموطأ ما لا يحتل مقالا ، ولا شك فى صحته ، ولا فى دلالة ، وهو ما رواه مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبى زهير أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يفتح اليمى فىأتى قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح الشام ، فىأتى قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة (٣٨ - أضواء البيان ج ٩)

خير لهم لو كانوا يملكون ، ويفتح العراق فيأتى قوم يبسون فيتحملون
بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يملكون » .

فهذا نص صحيح صريح منه صلى الله عليه وسلم فى حياته بفتح اليمن
والشام والعراق ، وما فتحت كلها إلا من بعده صلى الله عليه وسلم
إلا اليمن .

ويؤيد هذا القول ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال « بيننا
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، إذ قال : الله أكبر ، الله
أكبر ، جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ، قيل : يارسول الله ،
وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينّة طباعهم ، الإيمان يمان ،
والفقه يمان ، والحكمة يمانية » رواه ابن كثير عنه .

وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة ، وجاءت الوفود فى دين
الله أفواجا عام تسع منها ، وجاء وفد اليمن وأرسل صلى الله عليه وسلم
حماله إلى اليمن بعد فتح مكة ، وقدم عليه على رضى الله عنه من اليمن
فى العام العاشر فى موسم الحج ، ففتحت اليمن بعد فتح مكة فى حياته
صلى الله عليه وسلم .

وعليه : تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة ، يمكن أن
يشملها هنا قوله تعالى : (والفتح) ، وليس مقصوراً على فتح مكة كما قالوا .

وقد يؤخذ بدلالة لإيماء : الوعد بفتوحات شاملة ، لمناطق شاسعة من قوله تعالى : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) لأن الإتيان من كل فج عميق ، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد ، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام ، وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد . وهو محل الاستدلال والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

تقدم الكلام على التسبيح ومتعلقه وتصريفه .

وهنا قرن التسبيح بحمد الله ، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها ، إذ هي في الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه . ومجيء الافتتاح العام على المسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم ، وهي نعمة تستوجب الشكر ويستحق مولها الحمد .

فكان التسبيح مقترناً بالحمد في مقابل ذلك وقوله : (بحمد ربك) يشعر أنه سبحانه المولى للنعم ، كما جاء في سورة الضحى في قوله تعالى (ماودعك ربك وما قلى) .

وقوله في سورة اقرأ : (اقرأ باسم ربك) وتكرارها (اقرأ

وربك الأكرم) لأن صفة الربوبية مشعرة بالإلها .

وقوله : (واستغفره) قال البعض : إن الاستغفار عن ذنب فما هو .
وتقدم الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند قوله
تعالى : (ووضمنا عنك وزرك) .

وما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل ، ولو بدأنا من آدم
عليه السلام مع قصته ففيها (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) ،
ومعلوم موجب تلك التوبة .

ثم نوح عليه السلام يقول : (رب اغفر لي ولمن دخل بيتي
مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) الآية .

وإبراهيم عليه السلام يقول : (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك
أنت التواب الرحيم) .

وبناء عليه قال بعض العلماء : إن الاستغفار نفسه عبادة كالتسبيح ،
فلا يلزم منه وجود ذنب .

وقيل : هو تعليم لأمتة .

وقيل : رفع لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء في السنة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « توبوا إلى الله ،

فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة » ، فتكون أيضاً من باب الاستكثار من الخير ، والإنابة إلى الله .

تنبيه

جاء في التفسير عند الجميع أنه صلى الله عليه وسلم منذ أن نزلت هذه السورة وهو لم يكن يدع قوله : « سبحانك اللهم وبحمدك » تقول عائشة رضي الله عنها : « يتأول القرآن » أى يفسره ، ويعمل به .

ونقل أبو حيان عن الزمخشري أنه قال : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين ، من الجمع بين الطاعة والاحتراز من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة في نفسه .

وفي هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر الله تعالى ، حيث هذا كان من أكثر ما يداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع ماورد عنه صلى الله عليه وسلم في أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء الله تعالى وحده ، منفرداً مما لم يرد به نص صحيح ولا مرجح .

ولاشك أن الخير كل الخير في الاتباع لا في الابتداع ، وأى خير

أعظم مما اختاره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ، وبأمر به ، ويلازم هو عليه .

وقلنا في آخر حياته : لأنه صلى الله عليه وسلم توفي بعدها بمدة يسيرة .

وفي هذه الآية دلالة الإيمان ، كما قالوا : ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر رضى الله عنه مع كبار المهاجرين والأنصار ، حينما كان يسمح له بالجلوس معهم ، ويرى في وجوههم ، وسألوه وقالوا :

إن لنا أولادا في سنه ، فقال : إنه من حيث علمتم .

وفي يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر ، قال ابن عباس : فعلمت أنه مادعاني إلا لأمر ، فسألهم عن قوله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) السورة .

فقالوا : إنها بشرى بافتح وبالنصر ، فقال : ما تقول أنت يا ابن عباس ؟

قال : قتلت ، لا والله ، إنها نعت لإلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا .

فقال عمر : وأنا لا أعرف فيها إلا كما قلت ، أى أنه

صلى الله عليه وسلم جاء لمهمة ، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول
في الدين أفواجا .

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة . فعليه أن يتأهب
للملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله ، وهو مأخذ في غاية الدقة ، وبيان لقول
على رضى الله عنه : أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

التب : القطع .

ومن المادة : بت بتقديم الباء ، فهي تدور على معنى القطع ، كما يفيد
فقه اللغة في دوران للادة على معنى واحد .

وقال : التَّب ، والتَّبِب ، والتَّبَاب ، والتَّبْيِب ، والتَّبْيَب :
النقص والخسار ، إلى أن قال : وتبت يداه : ضلعا وخسرنا .

وقال الفخر الرازي : التبات : الهلاك ، ونظيره قوله تعالى : (وما كيد
فرعون إلا في تباب) أى في هلاك .

وذلك لأن أبالهب أهلك نفسه بفساد اعتقاده وسوء فعله ، كما جاء
في السنة قول الأعرابي : هلك وأهلك : أى بوقاعه أهله في
رمضان ، وجاء قوله تعالى : (فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون
من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيؤ) .

فقالوا : غير خسران ، والخسران يؤدي إلى الهلاك ،
والقطع .

كما جاء في معناه في قصة صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .
وله تعالى : (فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير
تخسير) فظهر من هذا كله أن معنى : تبت يدا أبي لهب ، دائر بين
معنى القطع والهلاك والخسران .

أما قطعها فلم يقدر عليه قطع يديه قبل موته .

وأما الهلاك والخسران : فقد هلك بالفتنة .

وأما الخسران : فما أشد خسارته بعد هذا الحكم عليه من الله
تعالى .

وإذا كان المعنى قد تعين بنص القرآن في الهلاك والخسران ، فما
معنى إسناد القب لليدين ؟

الجواب : أن ذلك من باب إطلاق البعض وإرادة للكل كما تقدم
في قوله تعالى : (ناصية كاذبة) مع أن الكاذب هو صاحبها .

وقد قدمنا هناك أن مثل هذا الأسلوب لا بد فيه من زيادة اختصاص
للجزء المنطوق في المعنى المراد .

لما كان الكذب يسود الوجه ويذل الناصية ، وعكسه الصدق يبيض الوجه ويعز الناصية ، أسند هناك الكذب إلى الناصية لزيادة اختصاصها بالكذب عن اليد مثلاً .

ولما كان الهلاك والخسران غالباً بما تكسبه الجوارح واليد أشد اختصاصاً في ذلك أسند إليها البت .

ومما يدل على أن المراد صاحب اليدين ، ما جاء بعدها ، قوله تعالى : (وتب) أى أبو لهب نفسه .

وسواء كان قوله تعالى : (تبت يدا أبي لهب) على سبيل الإخبار أو الإنشاء ، فإنه محتمل من حيث اللفظ .

ولكن قوله تعالى بعده : (وتب) فهو إخبار ، فيكون الأول للإنشاء كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) .

ثم جاء الثانى تصديقاً له ، وجاءت قراءة ابن مسعود (وقد تب)

قوله تعالى ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾

سواء كانت ما استفهامية فهو استفهام إنكار ، أو كانت نافية

فإنه نص ، على أن ماله لم يغن عنه شيئاً .

وقوله : (وما كسب)

فقيل : أى من المال الأول ما ورثه أو ما كسب من عمل
جرّ عليه هذا الهلاك ، وهو عداؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذه الآية المتقدمة (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) .

وتقدم الكلام عليه هناك .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان معنى (ما أغنى عنه
ماله وما كسب) عند قوله تعالى : (من وراءهم جهنم ولا يغنى عنهم
ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) .
وساق كل النصوص في هذه المعنى بتمامها .

تنبيه

في هذه الآية سؤالان هما :

أولاً : لقد كان صلى الله عليه وسلم مع قومه في مكة ملاطفاً حلماً ،
فكيف جاء به عمه بهذا الدعاء : (تبت يدا أبي لهب) ؟ والجواب :

أنه كان يلاطفهم ما دام يطمع في إسلامهم ، فلما ينس من ذلك ، كان هذا الدعاء في محله ، كما وقع من إبراهيم عليه السلام ، كان يلاطف أياه (يا أبت لا تعبد الشيطان) . (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فانبغي أهدك صراطاً سوياً) فلما ينس منه تبرأ منه كما قال تعالى : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) .

والسؤال الثاني : وهو مجيء قوله تعالى (وتب) بعد قوله (تب) يتب بداً (لب) مع أنها كافية سواء كانت إنشاء للدعاء عليه أو إخباراً بوقوع ذلك منه .

والجواب ، والله تعالى أعلم : أن الأول لما كان محتملاً الخبر ، وقد يحو الله ما يشاء ويثبت ، أو إنشاء وقد لا ينفذ كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) ، أو يحمل على الزم فقط ، والتقبيح فجاء « وتب » لبيان أنه واقع به لا محالة ، وأنه ممن حقت عليهم كلمات ربك لييأس صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون من إسلامه ؛ وتنقطع الللاطفة معه ، والله تعالى أعلم .

وقد وقع ما أخبر الله به ، فهو من إعجاز القرآن أن وقع ما أخبر به ، كما أخبر ولم يتخلف .

(و تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) . وقوله : (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) .

نسأل الله العافية ، إنه سميع مجيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الْاٰخِلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

الأحد :

قال القرطبي : أى الواحد الوتر ، الذى لا شبيه له ولا نظير ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا شريك . ١ هـ .

ومعلوم أن كل هذه المعانى صحيحة ، فى حقه تعالى .

وأصل أحد : وحد ، قلبت الواو همزة .

ومنه قول النابغة :

كأن رحلى وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد

وقال الفخر الرازى فى أحد وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى واحد .

قال الخليل : يجوز أن يقال : أحد اثنان ثلاثة ، ثم ذكر أصلها

وحد ، وقلبوا الواو همزة للتخفيف .

والثانى : أن الواحد والأحد لبسا اسمين مترادفين .

قال الأزهري : لا يوصف شيء بالأحادية غير الله تعالى ، لا يقال : رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد أى فرد به ، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء .

ثم قال : ذكروا فى الفرق بين الواحد والأحد وجوها :

أحدها : أن الواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لا يدخل فيه .

وثانيها : أنك لو قلت : فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

فإنك لو قلت : فلان لا يقاومه أحد ، لا يجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان .

وثالثها : أن الواحد ، يستعمل فى الإثبات ، والأحد يستعمل فى النفي .

تقول فى الإثبات : رأيت رجلا واحدا .

وتقول فى النفي : مارأيت أحدا ، فيفيد العموم .

أما ما نقله عن الخليل ، وقد حكاه صاحب القاموس فقال : ورجل واحد وأحد ، أى خلافا لما قاله الأزهري .

وأما قوله : إن أحدا تستعمل فى النفي فقد جاء استعمالها فى الإثبات أيضا .

كقوله : (أو جاء أحد منكم من الفائط) .

فتكون أغلبية في استعمالها ودلالاتها في العموم واضحة .

وقال في معجم مقاييس اللغة في باب الهمزة والحاء وما بعدها :
أحد ، إنها فرع والأصل الواو وحد .

وقد ذكر في الواو وفي مادة وحد . قال : الواو والحاء والذال
أصل واحد يدل على الانفراد ، من ذلك الوحدة بفتح الواو وهو
واحد قبيلته ، إذا لم يكن فيهم مثله .

قال :

با واحد العرب الذي ما في الأنام له نظير

وقيل : إن هذا البيت لبشار يمدح عقبة بن مسلم ، أو إلى ابن
المولى يزيد بن حاتم ، نفلا عن الأعاني .

فيكون بهذا ثبت أن الأصل بالواو والهمزة فرع عنه .

وتقدم أن دلالتها على العموم أوضح أي أحد .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الله سبحانه وتعالى أحد ، أي في
ذاته وصفاته لاشبيه ولا شريك ، ولا نظير ولاند له ، سبحانه وتعالى .

وقد فسره ضمنا قوله : (ولم يكن له كفوا أحد) .

وقوله : (ليس كمثله شيء) أما المعنى العام فإن القرآن كله ،
والرسالة الحممدية كلها ، بل وجميع الرسالات ، إنما جاءت لتقرير
هذا المعنى ، بأن الله سبحانه واحد أحد . بل كل ما فى الوجود شاهد
على ذلك .

كما قيل:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهى أكثر من أن تحصى ، لأنها
بمعنى لا إله إلا الله .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إشارة إلى ذلك فى
أول الصافات وفى غيرها ، وفى البقرة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا
هو الرحمن الرحيم) .

وفى التوبة : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو)
فجاء مقروناً بلا إله إلا الله .

وفى ص قوله : (قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد
القهار) .

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هذا المعنى ، كما فى
قوله : (هذا بلاغ للناس لينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد)

سبحانه جل جلاله وتقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ، فهو واحد أحد
في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلا كما قرره نقلا ، وذلك في
قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذأ لا يبتغوا إلى ذى العرش
سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) .

وقوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

فدل على عدم فسادها بعدم تعددها ، وجمع العقل والنقل في قوله :
(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ،
ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ .

قال بعض المفسرين : يفسره ما بعده (لم يلد ولم يولد) .

وقال ابن كثير ، وهذا معنى حسن .

وقال بعض العلماء : هو المتناهى في السؤدد ، وفي الكمال من كل

شئ .

وقيل : من يصمد الخلائق إليه في حاجاتهم ، ولا يحتاج هو
إلى أحد .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، معنى الصمد في سورة الأنعام عند قوله تعالى : (وهو يطمع ولا يطمع) ، فذكر شواهد هذه الأقوال كلها .

وبإمعان النظر في مبدأ يفسره ما بعده ، يتضح أن السورة كلها تفسير لأولها (قل هو الله أحد) لأن الأحدية ، هي تفرد سبجانه بصفات الجلال والكمال كلها ، ولأن المولود ليس بأحد ، لأنه جزء من والده .

والوالد ليس بأحد ، لأن جزءاً منه في ولده .

وكذلك من يكون له كفء ، فليس بأحد لوجود الكفء ، وهكذا السورة كلها لتقرير (قل هو الله أحد) .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان شواهد عند قوله تعالى : (الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) الآية من سورة الإسراء .

تنبيهه

نفى اتخاذ الولد لا يستلزم نفى الولادة ، لأن اتخاذ الولد قد يكون

بدون ولادة كالتبني أو غيره ، كما في قصة يوسف في قوله تعالى عن عزيز مصر : (أكرهى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) .

ففي هذه السورة نفى أخص ، فلزم القنبييه عليه في هذه السورة الكريمة وهي سورة الإخلاص . والتي تعدل ثلث القرآن لاختصاصها بحق الله تعالى في ذاته وصفاته من الوجدانية والصمدية ، ونفى الولادة والولد ، ونفى الكفاء ، وكلها صفات انفراد لله سبحانه .

وقد جاء فيها النص الصريح بعدم الولادة ، وأنه سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد ، فهي أخص من تلك ، وهذا من المسلمات عند المسلمين جميعا بدون شك ولا نزاع . ولم يؤثر فيها أى خلاف .

ولكن غير المسلمين لم يسلموا بذلك ، فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله .

فاتفقوا على ادعاء الولد لله ، ولم يدع أحد أنه سبحانه مولود .

وقد جاءت النصوص للصريحة في نفى الولد عن الله سبحانه وتعالى ، إلا أن مجرد النص الذي لم يؤمن به الخصم لا يكفي لإقناعه ، وفي هذه السورة وهي المختصة بصفات الله ، أم يأت التنوع فيها عن المانع من اتخاذ الله للولد ، ومن كونه سبحانه لم يولد .

ولما كان بيان المانع أو الموجب من منهج هذا الكتاب، إذا كان يوجد للحكم موجب أو مانع ولم تتقدم الإشارة إلى ذلك ، فيما تقدم من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مع أنه رحمه الله ، قد تكلم على آيات الأسماء والصفات جملة وتفصيلا ، بما يكفى ويشفى .

ولكن جاء في القرآن الكريم ذكر ادعاء الولد لله ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وجاء إرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلاً مع الإشعار بالدليل العقلي . ولذا لزم القنويه عليه ، وذلك في قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل مافى السماوات والأرض كل له قانتون ، بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

فهذا نص صريح فيما قالوه : (اتخذ الله ولداً) .

ونص صريح في تنزيه الله سبحانه وتسيبجه عما قالوا .

ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم : (بل له مافى السماوات والأرض كل له قانتون) ، ففيه بيان المانع عقلاً من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم ، وذلك أن غاية اتخاذ الولد أن يكون باراً بوالده ، وأن ينفع الوالد بولده ، كما في قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أو يكون الولد وارثاً لأبيه كما في قوله تعالى عن نبي الله تعالى ذكره عليه السلام :

(وهب لى من لدنك ولياً يرثى ويرث من آل يعقوب) الآية .

والله سبحانه وتعالى حتى باقى يرث ولا يورث كما قال تعالى :
(كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك) الآية

وقوله : (والله ميراث السماوات والأرض) .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى كل مافى السماوات والأرض فى
قنوت وامتنال طوعاً أو كرهاً ، كما قال تعالى : (وما ينبغى للرحمن أن
يتخذ ولداً ، إن كل مافى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً)

فهو سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى الولد لفناء عنه .

ثم بين سبحانه قدرته على الإيجاد والإبداع فى قوله تعالى :
(بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)

وهذا واضح فى نفى الولد عنه سبحانه وتعالى .

وقد تمدح سبحانه فى قوله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً
ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل وكبره
تكبيراً) .

أما أنه لم يولد . فلم يدع أحد عليه ذلك ، لأنه ممتنع عقلاً ،
بدليل الممانعة المعروف وهو كالأبى :

لوتوقف وجوده سبحانه على أن يولد لكان في وجوده محتاجا إلى من يوجد ، ثم يكون من يلد في حاجة إلى والد ، وهكذا يأتي الدور والتسلسل وهذا باطل .

وكذلك فإن الحاجة إلى الولد ينفيها معنى الصمدية المتقدم ذكره ، ولو كان له والد لكان للوالد أسبق وأحق ، تعالى الله عن ذلك .

وقد يقال : من جانب الممانعة العقلية لو افترض على حد قوله : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) .

فنقول على هذا الافتراض : لو كان له ولد فما مبدأ وجود هذا الولد وما مصيره ؟ فإن كان حادثا فمتى حدوثه ؟ وإن كان قديما تعدد القدم . وهذا ممنوع .

ثم إن كان باقيا تعدد البقاء ، وإن كان منتهيا فمتى انتهاءه ؟

وإذا كان مآله إلى الانتهاء فما الحاجة إلى إيجاد مع عدم الحاجة إليه ، فانتفى اتخاذ الولد عقلا ونفلا ، كما انتفت الولادة كذلك عقلا ونفلا .

وقد أورد بعض المفسرين سؤالا في هذه الآية ، وهو لماذا قدم نفى الولد على نفى الولادة ؟ مع أن الأصل في المشاهد أن يولد ثم يلد ؟

وأجاب بأنه من تقديم الأهم لأنه رد على النصارى فى قولهم :
 عيسى ابن الله ، وعلى اليهود فى قولهم : عزيز ابن الله ، وعلى قول
 المشركين : الملائكة بنات الله ، ولأنه لم يدع أحد أنه سبحانه مولود
 لأحد ، فكانت دعواهم الولد لله فرية عظيمة . ١٠ هـ .

كما قال تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون
 إلا كذبا) .

وقوله : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذا تكاد
 السماوات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا
 للرحمن ولداً) .

فلشناعة هذه الفرية قدم ذكرها ، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله :
 (وما ينبئ للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من فى السماوات والأرض
 الا آتى الرحمن عبداً) .

وقد قدمنا دلائل المنع عقلاً ونقلاً .

وهنا سؤال أيضاً ، وهو إذا كان ادعاء الولد قد وقع ، وجاء
 الرد عليه : فإن ادعاء الولادة لم يقع ، فلماذا ذكر نفيه مع عدم
 ادعائه ؟

والجواب والله تعالى أعلم : أن من جَوَّز الولادة له وأن يكون له

وله ، فقد يحوز الولادة عليه ، وأن يكون مولوداً نجاء ففيها تفتحة
للنفى والتنزيه ، كما في حديث البحر ، كان السؤال عن الوضوء من
مائة فقط ، نجاء الجواب عن مائه وميته ، لأن ما احتمل السؤال
في مائه يحتمل الاشتباه في ميته . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

قالوا : كفؤا وكفوا وكفاء ، بمعنى واحد ، وهو المثل .

وقد تمددت أقوال المفسرين في معنى الآية ، وكلها تدور على
معنى نفى المائلة .

فعن كعب وعطاء : لم يكن له مثل ولا عديل .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أنه بمعنى ليس كمثل شيء .

وعن مجاهد : أى لا صاحبة له .

وقد جاء نفى الكفء والمثل والند والعدل ، فالكفء في هذه
السورة والمثل في قوله : (ليس كمثل شيء) ، وقوله : (فلا تضربوا
للّه الأمثال) .

والند في قوله : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

والعدل في قوله : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آية الأنعام بيان
لذلك ، أى يساوونه بمعيره من العدل بكسر أوله ، وهو أحد شقى
حمل البعير على أحد التفسيرين ، والآخر من العدول عنه إلى غيره .

وفي هذه السورة مبحثان يوردهما المفسرون . أحدهما : أسباب
نزولها ، والآخر : ما جاء في فضلها ، ولم يكن من موضوع هذا
الكتاب تتبع ذلك ، إلا ما كان له دوافع تتعلق بالمعنى

أما ما جاء في فضلها ، فقد قل أبو حيان في تفسيره : لقد
أكثر المفسرون إيراد الآثار في ذلك ، وليس هذا محلها ، وهو كما
قال ، فقد أوردها ابن كثير والفخر الرازى والقرطبي وابن حجر في
الإصابة في ترجمة معاذ بن جبل وغيرهم ، وليس هذا محل إيرادها ،
اللهم إلا ما جاء في الصحيح : أن تلاوتها تعدل ثلث القرآن . لعل
موضوعها بالتوحيد

أما المبحث الآخر وهو سبب نزولها ، فقليل فيه : إن المشركين
طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه ، فنزلت .

وقوله فيها (لم يلد ولم يولد) رد على إثبات النسب له سبحانه
وتعالى .

وقد جاء مثل هذا المعنى حينما سأل فرعون موسى عن ربه ، فقال
له : (وما رب العالمين ؟) .

لجاء جوابه (قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) قال لمن حوله : ألا تستمعون ، قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) .

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أن موجب قول فرعون عن موسى لمجنون ، لأنه سأله بما في قوله : (قال فرعون وما رب العالمين) ؟ وما يسأل بها عن شرح الماهية فكان مقتضى السؤال بها أن يبين ماهية الرب سبحانه وتعالى ، من أى شيء هو ، كما يقال في جواب : ما الإنسان إنه حيوان ناطق .

ولكن موسى عليه السلام أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى أو لتجاهله ، كما في قوله تعالى : (وجحدوا بها واستيقفتها أنفسهم) وأجابه عما يخصه ويلزمه الاعتراف به من أنه سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما ، لا ربوبيـة فرعون الكاذبة .

ومثل ذلك في القرآن ، لما سألوا عن الأهلـة ، ما بالها تبدو صغيرة ، ثم تكبر ؟ فهو سؤال عن حقيقة تغيرها ، فترك القرآن جوابهم على سؤالهم وأجابهم بما يلزمهم وينفعهم .

وكذلك جواب الخليل عليه السلام للمرود حينما حاجه في ربه
(إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت) .

فذكره سبحانه بصفاته ، وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله
ونسبه جاء الجواب بصفاته ، لأن ما يسألون عنه إنما يكون في المخلوقات
لا في الخالق سبحانه ، وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته ،
سبحان ما لا يدرك كنهه غيره ، وصدق الله العظيم في قوله : (ليس
كمثله شيء وهو السميع البصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون به علماً) .

المعوذتان

سورة الفلق وسورة الناس

يذكر المفسرون عن ابن مسعود، أنه كان يراها معوذتين من غير القرآن، ولكن أبي بن كعب قال : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : (قل أعوذ برب الفلق) فقلتها وقال : (قل أعوذ برب الناس) فقلتها ، فنحن نقول ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد .

وذكر نحوه عن البخاري ثم قال : ثم قد رجع عن قوله إلى قول الجماعة ، فإن الصحابة رضی الله عنهم أثبتوها في المصاحف الأئمة ، ونفذوها إلى سائر الآفاق .

وروى عن الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في الصلاة وساق عدة طرق في إثبات أنهما قرآن ، مما ينفي أى خلاف بعد ذلك في إثباتهما .

وقد اعتذر القرطبي عن ابن مسعود ، بأنه لم يسمعهما من النبي

صلى الله عليه وسلم ، على أنهما قرآن وسمعهما فظنهما أنهما دعاء من الأدعية ، كقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » .

ولما بلغه إثباتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى قول الجمهور .

ومن الجدير بالذكر التنويه عن ارتباطهما بسورة الإخلاص قبلهما .

وهو أنه سبحانه ، لما ذكر أنه سبحانه وتعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، والصمد من معانيه الذي تصمد الخلائق إليه في حاجتهم ، جاء في هاتين السورتين توجيه العباد إلى من يستعيذون ويلوذون به ، وهو الله الصمد سبحانه ، فهو وحده الذي يميزهم ويحفظهم وهو الذي ياجتئون إليه سبحانه .

وقل أعوذ برب الفلق : تعادل الاستعاذة بالخالق بما خلق ، لأن كل موجود منفلق عن غيره ، إلا الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد .

وجاءت السورة الثانية بعدها قل أعوذ برب الناس إله الناس صفات العظيمة كلها لله تعالى .

وسيانى إن شاء الله تعالى تنبيهه على ما يعطيه السياق من ختم
المصحف الشريف بهاتين السورتين الكريمتين ، وللقارنة بينهما لبيان
عظم منزلتهما .

كما أن الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، قد أحال على سورة الناس
لإتمام مبحث أفراد الله تعالى بالعبادة ، كما سنوضحه كله إن شاء الله في
محلّه . وبالله تعالى التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

سورة الفلق

قيل : إنه لما صرح تعالى بخالص التوحيد في سورة الإخلاص ، وهي معركة الإيمان والشرك ، ومثار الخلاف والخصومة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه ، أمر صلى الله عليه وسلم أن يتموذ من شرور الخلق فلا يضره . إلخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .

قال أبو حيان وغيره : الفلق فعل بمعنى مفعول أى مفلوق ، واختلف في المراد بذلك .

فقيل : إنه الصبح يتفلق عنه الليل .

وقيل : الحب والنوى .

وقيل : هو جب في جهنم .

وقال بعض المفسرين : كل ما فلقه الله عن غيره ، كالليل عن الصبح ، والحب والنوى عن النبات ، والأرض عن النبات ، والجبال

عن العون ، والأرحام عن الأولاد ، والسحاب عن المطر .

وقال ابن جرير : إن الله أطلق ولم يقيد ، فتطلق كذلك كما أطلق .

والذى يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب في جهنم من قبيل اختلاف القنوع ، وأنها كلها محتملة ، قال ابن جرير على الإطلاق .

أما القول بأنه جب في جهنم ، فلم يثبت فيه نص ، وليست فيه أية مشاهدة يحال عليها للدلالة على قدرة الله تعالى ، كما في الأشياء الأخرى المشاهدة .

والذى يشهد له القرآن هو الأول ، كما جاء النص الصريح في الصبح والحب والنوى ، كقوله تعالى (إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فائق الإصباح وجمل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) .

وكلها آيات دالة على قدرة الله ، وجاء في حديث عائشة رضى الله عنها في بدء الوحي ، وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا ، إلا جاءت كفلق الصبح .

والفلق : بمعنى الصبح . معروف في كلام العرب .

وعليه قول الشاعر :

باليلة لم أنمها بت مرتقبا أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقول الآخر مثله وفيه : إلى أن نور الفلق بدل قدر ، والواقع أنه في قوة الإقسام رب السكون كله يتفلق بمضه عن بعض .

قوله تعالى ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .

وهذا عام وهو على عمومه ، حتى قال الحسن : إن إبليس وجهم مما خلق .

والمعزلة في هذه الآية كلام حول خلق أفعال العباد ، وأن الله لا يخلق للشر ، وقالوا : كيف يخلقه ويقدره ، ثم يأمر بالاستعاذة به سبحانه مما خلقه وقدره ؟

وأجيب من أهل السنة : بأنه لا مانع من ذلك ، كافي قوله صلى الله عليه وسلم : « وأعوذ بك منك » .

وقد قال تعالى : (الله خالق كل شيء) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مناقشة هذه المسألة .

في مناظرة الأسفرائينى مع الجبائى فى القدر .

ومعلوم أن المخلوق لا يتأتى منه شيء قط إلا بمشيئة الخالق ،
وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .

الغاسق : قيل الليل ، لقوله تعالى : (أقم الصلاة لذوك الشمس إلى غسق الليل) .

ووقب : أى دخل .

وعليه قول الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكت المم والأرقا

وقول الآخر :

يا طيف هند قد أبيت لى أرقا إذ جئنا طارقا والليل قد غسقا

قال القرطبي : وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم .

وقيل : الغاسق : القمر إذا كان فى آخر الشهر ، لحديث عائشة عند

الترمذى « أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : تموزى من هذا فإنه الفاسق إذا وقب » . أى القمر .

وقائل هذا القول يقول : إنه أنسب لما يجيء بعده من السحر ، لأنه أكثر ما يكون عندهم فى آخر الشهر .

ونقل القرطبي عن ثعلب ، عن ابن الاعرابى ، أن أهل الريب يتعيفون وجبة القمر ، أى سقوطه وغيوبته .

وأنشد قول الشاعر :

أراحق الله من أشياء أكرهها

منها المعجوز ومنها الكلب والقمر

هذا يبوح وهذا يستضاء به

وهذه ضممرز قوامه السحر

والضممرز : الناقة المسنة ، والمرأة الغليظة .

والصحيح الأول ، الذى هو الليل بشهادة القرآن .

والثانى : تابع له ، لأن القمر فى ظهوره واختفائه مرتبط بالليل ، فهو بعض ما يكون فى الليل ، وفى الليل تنتشر الشياطين وأهل الفساد ، من الإنسان والحيوان ويقل فيه المنيث إلا الله .

وفي الحديث « أطفئوا السرج فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم ليلاً » . أى الفأرة .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

المراد به السحرة قطعاً ، سواء كان النفث من النساء كما هو ظاهر اللفظ ، أو من الرجال على معنى الجماعات ، أو النفوس الشريرة فزشم النفوس .

وأجمع المفسرون : أنها نزلت في لبيد بن الأعصم ، لما سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه جبريل عليه السلام وأخبره .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث السحر وأقسامه وأحكامه وكل ما يتعلق به ، عند الكلام على قوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) من سورة طه ، ما عدا مسألة واحدة ، وهى حكم ما لو قتل أو أُنلف شيئاً بسحره ، فإى يكون حكمه ، ونوردها موجزة .

مسألة

ذكر ابن قدامة في المغنى رحمه الله النوع السادس من أنواع القتل : أن يقتله بسحر يقتل غالباً فيلزمه القود، وإن كان مما لا يقتل غالباً ، ففيه الدية . اهـ .

وذكر النووي في المنهاج شرح مغنى المحتاج للشافعية : التنبيه على أنه يقتل كذلك .

وذكر مثله ابن حجر في الفتح : أن الساحر يقتل إذا قتل بسحره .

تنبيهه

يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان .

قال أبو حيان : أخبرني أنه رأى في بعض الصحراء عند البعض خيطاً أحمر ، قد عقدت فيه عقد على فصلان أى جمع فصيل ، فنمت من رضاع أمهاتها بذلك ، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فوضع . اهـ .

كما يقع الحسد أيضاً على الحيوان ، بل وعلى الجاد أى عين العائن تؤثر في الحيوان والجاد والنبات ، كما تؤثر في الإنسان

على ما سيأتى إن شاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

اقتران الحسد بالسحر هنا ، يشير إلى وجود علاقة بين كل من السحر والحسد ، وأقل ما يكون هو التأثير الخفى الذى يكون من الساحر بالسحر ، ومن الحاسد بالحسد مع الاشتراك فى عموم الضرر ، فكلاهما إيقاع ضرر فى خفاء ، وكلاهما منهى عنه .

وقد أوضح فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنواع السحر وأحكامه وأورد فيه كلاماً وافياً .

وقد ظهر بما قدمنا : أن الحسد له علاقة بالسحر نوعاً ما ، فلزم إيضاحه وبيان أمره بقدر المستطاع ، إن شاء الله .

أولاً : تعريفه : قالوا : إن الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير ، أو عدم حصول النعمة للغير شحاً عليه بها .

وقد قيدت الاستعانة من شر الحاسد إذا حسد ، أى عقد إيقاعه الحسد بالفعل ، ولم يقيد بها من شر الساحر إذا سحر .

وذلك والله تعالى أعلم : أن النفث فى المقد هو عين السحر ،

فكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه في العقد .

أما الحاسد فلم يستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل ، أى عند توجهه إلى المحسود ، لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر ، فلا محل للاستعاذة منه .

أما حقيقة الحسد : فيتعذر تعريفه منطقياً .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه أنه قال في السحر : لا يمكن تعريفه خلفائه .

ومعلوم أن الحسد أشد خفاء ، لأنه عمل نفسى وأثر قلبى ، وقد قيل فيه : إنه كإشعاع غير مرئى ، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود ، عند تحرقه بقلبه على المحسود ، وقد شبه حسد الحاسد بالنار فى قولهم :

اصبر على مضر الحسود فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وقد أنكر بعض الفلاسفة وقوع الحسد ، حيث إنه غير مشاهد وهم محجوجون بكل موجود غير مشاهد ، كالنفس والروح والعقل (٤١ - أضواء البيان ج ٩)

وقد شوهدت اليوم أشعة [إكس] وهي غير مرئية ، ولكنها تنفذ إلى داخل الجسم من إنسان وحيوان ، بل وخشب ونحوه . ولا يردّها إلا مادة الرصاص لكثافته معدنه ، فتصور داخل جسم الإنسان من عظام وأعضاء وغيرها ، فلا معنى لرد شيء لعدم رؤيته .

تلييه

قد أطلق الحسد هنا ولم يبين المحسود عليه ، ما هو مع أنه كما تقدم زوال النعمة عن الغير .

وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حسد عليها المسلمون عامة ، والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتمصيل الفقاءم .

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى :
(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) .

والمشركون حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي إليه ، كما في قوله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) .

والناس هنا عام أريد به الخصوص ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) .

فالناس الأولى عام أريد به خصوص رجل واحد ، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعي .

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقفة . قوله تعالى : (سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يبذلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلككم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) .

فتبين بنص القرآن أن الحسد يكون في نعمة موجودة ، ويكون في نعمة متوقعة وجودها .

تنبيه آخر

توجد العين كما يوجد الحسد ، ولم أجد من فرق بينهما مع وجود للفرق .

وقد جاء في الصحيح « إن العين لحق » .

كما جاء في السنن : « لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته العين »

ويقال في الحسد : حاسد ، وفي العين : عائن ، ويشتركان في الأثر ،
ويختلفان في الوسيلة والمنطلق .

فالحاسد : قد يحسد ما لم يره ، ويحسد في الأمر المتوقع قبل
وقوعه ، ومصدره تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود ، وبتمنى
زوالها عنه أو عدم حصولها له وهو غاية في حطة النفس .

والعائن : لا يعين إلا ما يراه والموجود بالفعل ، ومصدره انقداح
نظرة العين ، وقد يعين ما يكره أن يصاب بأذى منه كولد وماله .

وقد يطلق عليه أيضاً الحسد ، وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة ،
وهو تمنى ما يراه عند الآخرين من غير زواله عنهم .

وعليه الحديث : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله
مالاً فسلطه على مملكته في الخير ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي
بها بين الناس » .

وقال القرطبي : روى مرفوعاً « المؤمن يغبط ، والمفانيق يحسد »

وقال : الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء ، وأول ذنب
عصى به في الأرض ، فحسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل . اهـ .

تحذير

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : إن أول معصية وقعت هي الحسد ، وجر شؤمها إلى غيرها ، وذلك لما حسد إبليس أبانا آدم على ما آتاه الله من الكرامات من خلقه بيديه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فحمله الحسد على التكبر ، ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود ، فكانت النتيجة طرده ، عياداً بالله

أسباب الحسد

وبتأمل القصة ، يظهر أن الحاسد أصله أمران :
الأول : ازدراء المحسود .

والثاني : إعجاب الحاسد بنفسه ، كما قال إبليس معللاً لامتناعه من السجود : (أنا خير منه) .

ثم فصل معنى الخيرية المزعومة بقوله : (خلقتني من نار وخلقته من طين) ويلحق بذلك جميع الأسباب .

وقد ذكروا منها التميز في نفسه ، ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه ، والتعجب بأن يعجب بنفسه ، ولا يرى أحداً أولى منه ،

والخوف من فوات المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغنى عنه ، وحب الرئاسة ممن لا يريد لأحد أن يتقدم عليه في أى فن أو مجال .

وذكرها الرازى قلا عن الغزالى .

ومن هنا لازى معجباً بنفسه قط ، إلا ويزدرى الآخرين ويحسدهم على أدنى نعمة أنعمها الله عليهم . عافانا الله من ذلك :

تنبيه

إذا كانت أول معصية وقعت هى حسد إبليس بأبينا آدم على ما أنعم الله به عليه ، وجاء حسد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي ، وحسد أهل الكتاب للمسلمين على نعمة الإسلام ، وجاءت هذه الصورة فى أواخر القرآن ، فكأنها جاءت فى أعقاب القرآن لتذكر المسلمين بعظم نعمته عليهم وشدة حسدهم عليه ، ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم فى دينهم ، من كل من الجنة والناس ، على ماسياتى فى السورة بعدها والأخيرة ، إن شاء الله

مسألة

فى حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئاً بالعين

تقدم بيان ذلك فى حق السحر ، أما فى حق العين ، فقد قال

ابن حجر في فتح الباري في كتاب الطب مانصه وقد اختلف في جريان القصاص بذلك ، يعني بالعين .

فقال القرطبي : لو أتلّف العائن شيئاً ضمنه لو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرّر ذلك منه ، بحيث يصير عادة وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً . هـ .

ولم يقرّض الشافعية للقصاص في ذلك بل منموه ، وقالوا : إنه لا يقتل غالباً ولا بعد مهلكاً .

وقال النووي في الروضة : ولا دية فيه ولا كفارة ، لأن الحكم إنما يقترب على مضطرب عام دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال ، مما لا انضباط له ، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً ، وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة .

وأيضاً ، فالذى ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص ، ولا يضمن ذلك المكروه في زوال الحياة ، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين . هـ .

ولا يعكّر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر ، فإنه في معناه ، والفرق بينهما عسير .

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم : أنه ينهى الإمام منع

العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس ، وأنه يلزمه بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به ، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر رضى الله عنه بمنعه من مخالطة الناس ، وأشد من ضرر الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

قال النووى : وهذا القول صحيح متعين ، لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه . ١٠٥١ . من فتح البارى .

وبتأمل قول القرطبي والنووى بدقة ، لا يوجد بينهما خلاف فى الأصل ، إذ القرطبي يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له .

والنووى يقول : إنه لا يقتل غالباً ، وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالباً وتكرر ذلك منه ، فإنه يتفق مع كلام القرطبي تماماً فى أن من أتلف بعينه وكان معتاداً منه ذلك فهو ضامن ، وهذا معقول المعنى ، والله تعالى أعلم .

وعند الحنابلة فى كشف القناع مانصه : والمعيان الذى يقتل بعينه .

قال ابن نصر الله فى حواشى الفروع : ينبغى أن يلحق بالساحر الذى يقتل بسحره غالباً ، فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختياره وجب به القصاص . ١٠٥١ .

مسألة

بيان ماتهالج به العين

لما كان الحسد أضر ما يكون على الإنسان ، والإصابة بالعين حق لاشك فيها وجاء فيها : « لو أن شيئاً سبق القدر لسبقته العين » .

وحديث : « إن العين لحق » فقد فصّلت السنة كيفية اتقائها قبل وقوعها ، والعلاج منها إذا وقعت .

وذلك فيما رواه مالك في الموطأ وغيره من الصحاح ، في حديث سهل بن حنيف ، وبوّّب البخارى في صحيحه باب رقية العين ، وذكر حديث عائشة أنها قالت : « أمرنى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أمر أن يسترق من العين » .

وعقد مالك في الموطأ باباً بعنوان « الموضوع من العين » وباب آخر بعده بعنوان « الرقية من العين » ، وساق حديث سهل بتمامه وفيه بيان كيفية اتقائها وعلاجها ، ولذا نكتفى بإبراده لشمله .

قال : عن محمد بن أبى أسامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباہ يقول : اغسل أبى سهل بن حنيف بالحرار فترع جبة كانت عليه ،

وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجل أبيض حسن الجلد ، قال : فقال له عامر بن ربيعة : مارأيت كالיום ولا جلد عذراء ، قال : فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلاً وعك ، وأنه غير رافع معك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره سهل بالذي كان من أمر عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت ، إن العين حق ، توضاً له فتوضاً له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس » .

وساق مرة أخرى وفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم « هل تهمون له أحداً ؟ قالوا : نهم عامر بن ربيعة ، قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامراً ففغيط عليه ، وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، اغتسل له ، ففسل عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس » .

فهذه القصة تثبت قطعاً وقوع العين ، وهذا أمر مجمع عليه من أهل السنة وسلف الأمة ، كما أنها ترشد إلى أن من برك ، أى قال : تبارك الله .

وفي بعض الروايات لغير مالك : هلا كبرت ، أى يقول :

الله أكبر ثلاثا ، فإن ذلك يرد عين العائن .

كما جاء في السنة « أن الدعاء يرد البلاء » فإذا لم تدفع عند صدورها وأصاب ، فإن العلاج منها كما جاء هنا توضاً له ، واللفظ الآخر : « اغتسل له » .

وقد فصل المراد بالغسل له : أنه غسل الوجه واليدين أى الكفين فقط ، والمرفقين والركبتين والقدمين وطرف الإزار الداخلى ، ويكون ذلك فى إناء لا يسقط الماء على الأرض ، ويفرغ هذا الماء على المصاب من الخلف ويكفؤ الإناء خلفه .

وقد ذكرها مفصلة القاضى الباجى فى شرح الموطأ فقال : وروى عن يحيى بن يحيى عن ابن نافع فى معنى الوضوء الذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يغسل الذى يهتم بالرجل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ورجليه وداخلة إزاره ، وقال : ولا يغسل ما بين اليد والمرفق ، أى لا يغسل الساعد من اليد .

وروى عن الزهرى أنه قال : الغسل الذى أدركنا علماءنا يصفونه : أن يؤتى العائن بقدر فيه ماء ، فيمسك مرتفعاً من الأرض فيدخل فيه كفه فيمضمض ، ثم يمسح فى القدر ، ثم يغسل وجهه فى

القدح صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على كفه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ظهر كفه اليسرى صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفقه الأيمن ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على قدمه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على قدمه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على ركبته اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ركبته اليسرى ، كل ذلك في قدح ثم يدخل داخلة إزاره في القدح ولا يوضع القدح في الأرض ، فيصب على رأس الممين من خلفه صبة واحدة ، وقيل : يفتقل ويصب عليه ، أى في حالة خفلاته ، ثم يكفأ القدح على ظهر الأرض وراءه .

وأما داخلة إزاره : فهو الطرف المتدلى الذى يفضى من مأزره إلى جلده مكانه ، إنما يمر بالطرف الأيمن على الأيسر ، حتى يشده بذلك الطرف المتدلى الذى يكون من داخل . ١٠ هـ .

وما يرشد إليه هذا الحديث تغيظه صلى الله عليه وسلم على عامر ابن ربيعة .

وقوله صلى الله عليه وسلم « علام يقتل أحدكم أخاه » مما يبين شناعة هذا العمل ، وأنه قد يقتل .

ومما ينبغي مراعاته من كل من الطرفين من ابتلى بالعين ،
 فليبارك عند رؤيته ما يعجبه لئلا يصيب أحداً بعينه ، ولئلا تسبقه عينه .
 وكذلك من انهم أحداً بالعين . فليكبر ثلاثاً عند تخوفه منه . فإن
 الله يدفع العين بذلك . والحمد لله .

وقد ذكروا للحسد ذواء كذلك ، أى يداوى به الحاسد نفسه
 ليستريح من غناء الحسد المتوقد في قلبه المنفص عليه عيشه الجالب عليه
 حزنه ، وهو على سبيل الإجمال في أمرين . العلم ثم العمل .

والمراد بالعلم هو أن يعلم يقيناً أن النعمة التي يراها على المحسود ،
 إنما هي عطاء من الله بقدر سابق وقضاء لازم ، وأن حسده لإياه عليها
 لا يغير من ذلك شيئاً ، ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد وحده
 في دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده ، لأنه في حسده كالمعترض
 على قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) وفي
 دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والسكابة وفرة الناس منه ومقتهم
 لإياه ، ومن وراء هذا وذاك : العقاب في الآخرة .

أما العمل فهو مجاهدة نفسه ضد نوازع الحسد ، كما تقدمت الإشارة
 إليه في الأسباب ، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه ، فليحاول أن يقدره
 ويخدمه .

وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه ، ردّها إلى التواضع وإظهار المعجز والافتقار .

وإن سوّأت له نفسه تمنى زوال النعمة عن غيره ، صرف ذلك إلى تمنى مثلها لنفسه . وفضل الله عظيم .

وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود ، سعى إلى الإحسان إليه ، وهكذا . فيسلم من شدة الحسد ، ويسلم غيره من شره .

وكما في الأثر : « المؤمن يذبط ، والمتناق يحمسد » .

نسأل الله العافية والمغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّبِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على هذه السورة عند كلامه على قوله تعالى : (ألا تعبدوا إلا إياه إنا أنى لكم منه نذير وبشير) في سورة هود ، فقال على تلك الآية : فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها ، هي أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به في عبادته شيء .

وساق الآيات الماثلة لها ثم قال : وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة ، وسنقصي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في سورة الفاس ، ليكون خاتمة هذا للكتاب المبارك حسنى . ٥١ .

وإن في هذه الإحالة منه رحمة الله تعالى علينا وعليه لتنبيهنا على المعاني التي اشتملتها هذه السورة الكريمة ، وتوجيهاً للرعاة تلك الخاتمة .

كما أن في تلك الإحالة تكميل مسئولية الاستقصاء حيث لم يكتف بما قدمه في سورة الفاتحة ، ولا فيما قدمه في سورة هود ، وجعل (٤٢ - أضواء البيان ج ٩)

الاستقصاء في هذه السورة، ومعنى الاستقصاء: الاستيعاب إلى أقصى حد .

وما أظن أحداً يستطيع استقصاء ما يريده غيره ، ولا سيما ما كان يريده الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه وما يستطيعه هو .

ولكن على ما قدمنا في البداية : أنه جهد المقل ووسع الطاقة .
فنستعين الله ونستهديه مسترشدين بما قدمه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورتي الفاتحة وهود ، ثم نورد وجهة نظر في السورتين مما للفق والناس ، ثم منهما وفي نسق المصحف الشريف ، آمل من الله تعالى وراج توفيقه ومعاونته .

أما الإحالة فالذى يظهر أن موجبها هو أنه في هذه السورة الكريمة اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وليكأنها لأول وهلة تشير إلى الرب الملك هو الإله الحق الذى يستحق أن يعبد وحده .

ولعله ما يرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها : هو الله أحد ، الله الصمد ، وهذا هو منطق العقل والقول الحق لأن مقتضى الملك يستلزم العبودية . والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد في الألوهية ، لأن العبد المملوك تجب عليه الطاعة والسمع لما لا يملكه بمجرد الملك ، وإن كان

سالكه عبداً مثله ، فكيف بالمعبود الملوك لربه وإلهه ، وكيف بالمالك
الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث : الرب الملك الإله ، في أول افتتاحية
أول المصحف : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) .
والقراءة الأخرى (ملك يوم الدين) .

وفي أول سورة البقرة أول نداء يوجه للناس بعبادة الله تعالى
وحده ، لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك في قوله تعالى : (يا أيها الناس
اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب لذلك بقوله : (الذي خلقكم والذين من قبلكم) :
وقوله : (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل
من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة ،
ثم بين موجب إفراده وحده بذلك بقوله : (فلا تجمعوا لله أندادا
وأنتم تعلمون) .

أى كما أنه لاند" له في الخلق ولا في الرزق ولا في شيء مما ذكر ،
فلا تجمعوا لله أندادا أيضاً في عبادة ، وأنتم تعلمون حقيقة ذلك .

وعبادته تعالى وحده ونفى الأنداد، هو ما قال عنه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه : معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً .

فالإثبات في قوله تعالى : (اعبدوا الله) .

والنفي في قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً) .

وكون الربوبية تستوجب العبادة ، جاء صريحاً في قوله تعالى :
(فليعبـدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

فالموصول وصلته في معنى التعليل لموجب العبادة ، وسيأتى لذلك زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى في نهاية السورة .

وقد جاء هنا لفظ (رب الناس) بإضافة الرب إلى الناس ، بما يشعر بالاختصاص ، مع أنه سبحانه رب العالمين ورب كل شيء ، كما في أول الفاتحة : (الحمد لله رب العالمين) .

وفي قوله : (قل أغبر الله أبغى رباً وهو رب كل شيء) .

فالإضافة هنا إلى بعض أفراد العام .

وقد أضيف إلى بعض أفراد أخرى كالسموات والأرض وغيرها .

من بعض كل شيء ، كقوله : (قل من رب السماوات والأرض ،
قل الله) .

وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) .
وإلى البيت (فليعبدوا رب هذا البيت) .
وإلى البلد الحرام (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) .
وإلى العرش (رب العرش الكريم) .
وإلى الرسول (اتبع ما أوحى إليك من ربك) .
وقوله : (وربك فكبر) إلى غير ذلك .

ولكن يلاحظ أنه مع كل إضافة من ذلك ما يفيد العموم ، وأنه
سمع إضافته لفرد من أفراد العموم ، فهو رب العالمين ، ورب كل شيء .
ففى إضافته إلى السماوات والأرض جاء معها (قل الله) .

وفى الإضافة إلى المشرق والمغرب جاء (لا إله إلا هو فاتخذه
وكيلاً) .

وفى الإضافة إلى البيت جاء (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم
من خوف) وهو الله سبحانه .

وفى الإضافة إلى البلدة جاء (الذى حرمها) وهو الله تعالى .

وفى الإضافة إلى العرش جاء قوله تعالى : (فتعالى الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش) .

وفى الإضافة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء قوله : (ماودعك ربك) ، وغير ذلك من الإضافة ، إلى أى فرد من أفراد العموم يأتى معها ما يفيد العموم ، وأن الله رب العالمين .

وهنا رب الناس جاء معها (ملك الناس إله الناس) ليفيد العموم أيضاً ؛ لأن إطلاق الرب قد يشارك فيه السيد للطاع ، كما فى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

وقول يوسف لصاحبه فى السجن (اذكرنى عند ربك) أى الملك على أظهر الأقوال ، وقوله : (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة) الآية .

فجاء بالملك والإله للدلالة على العموم ، فى معنى رب الناس ، فهو سبحانه رب العالمين ورب كل شئ ، ولكن إضافته هنا إلى خصوص الناس إشعار بمزيد اختصاص ، ورعاية الرب سبحانه لعبده الذى دعاه إليه ليعتمده به من عدوه ، كما أن فيه تقوية رجاء المبدى فى ربه بأنه سبحانه ربوبيته سيمضى عبده لعبوديته ويميزه عما استعاض به عنه .

ويقوى هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول صلى الله عليه وسلم
 في جميع أطواره منذ البدأين : بدأ الخلقة وبدأ الوحي ، في قوله :
 (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من عاق) ، ثم في
 نشأته (ماودعك ربك وما قل - إلى قوله - ألم يحدك يتيا فأوى ،
 ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) .

وجعل الرغبة إليه في السورة بعدها (وإلى ربك فارغب) بعد
 تعداد النعم عليه من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، ثم
 في المنتهى قوله : (إن إلى ربك الرجعى) .

قوله تعالى : (ملك الناس) في مجيء ملك الناس بعد رب
 الناس ، تدرج في التنبيه على تلك المعاني العظام ، وانتقال بالعباد من
 مبدأ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية في الخلق والرزق ،
 وجميع تلك الكائنات ، كما تقدم في أول نداء وجه إليهم (اعبدوا
 ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم
 الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
 رزقا لكم) .

كل هذه الآثار التي لمسوها وأقروا بموجها ، بأن الذي أوجدها
 هو ربهم ، ومن ثم ينقلون إلى الدرجة الثانية ، وهي أن ربه الذي

هذه أفعاله هو ملكه وهو المتصرف في تلك العوالم ، وملك لأمره
وجميع شئونه ، ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك ، أقر له ضرورة له بالالوهية
وهي المرتبة النهائية . إله الناس أى مألوههم ومعبودهم وهو ماخلفهم
إليه ، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وفى إضافة الملك إلى الناس من إشعار الاختصاص ، مع أنه
سبحانه ملك كل شيء ، فيه ما فى إضافة الرب للناس المتقدم بحته ، فهو
سبحانه مالك الملك كما فى قوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك
من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتمز من تشاء)

وقوله تعالى : (له الملك وله الحمد)

وقوله : (له ملك السماوات والأرض) وقوله (الملك القدوس)

فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالملك لا شريك له فى ملكه ، كما قال
تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى
الملك) فبدأ بالحمد أولاً .

ومثله قوله : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء) بدأ
بتسبيح نفسه وتنزيهه لمعوم الملك ومطلق التصرف ونفى الشريك لأن

ملكه ملك تصرف وتدبير مع الكمال في الحمد والعقديس .

وكقوله : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) .

وبهذه النصوص يعلم كل ملكه تعالى ، ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا ، ونعلم أن ملكهم بتعليمك الله تعالى إياهم كما فى قوله تعالى :
(والله يؤتى ملكه من يشاء) .

وقوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك
عن تشاء) .

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم ملك سياسة ورعاية ، لا ملك
ملك وتصرف ، وكما فى قوله تعالى : (وقال لهم نبيهم إن الله قد
بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق
بالمالك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال : إن الله اصطفاه
عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء
والله واسع عليم) .

والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن « بريطانيا » تحترم نظام
الملكية إلى هذا الوقت الحاضر ، بدافع من هذا المعتقد ، وأنه
لا ملك إلا بتعليمك الله إياه ، وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله .

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه ، من أن ملوك الدنيا لا يملكون

أمر الرعية لأن طالوت ملكا ، وليس مالكا لأموالهم .

بينما ملك الله تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف ، كما في قوله تعالى : (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ويعمل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير) .

وعليم قدير هنا من خصائصه سبحانه وتعالى ، فيتصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملتين سبحانه ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق ، فيتلاشى كل ملك قلّ أو كثر ، ويذل كل ملك كبر أو صغر ، ولم يبق إلا ملكه تعالى يوم هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

وفي سورة الفاتحة (ملك يوم الدين) .

والقراءة الأخرى (مالك يوم الدين)

في القراءتين معاً إشعار بالفرق بين ملك الله وملك العباد ، كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبي ، إذ الملك النسبي لا يملك . والملك المطلق

فهو الملك القدوس ، والذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجع الخلائق كلهم .

ومن كانت هذه صفاته ، فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه ، ولا يشرك معه أحد ، وهذا هو شعار العبد في الركن الخامس من أركان الإسلام ، حين يهلّ بالقلبية : إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

قوله تعالى : (إله الناس) .

هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية ، وإفراد الله تعالى بالألوهية .

وهذا هو محل الإحالة ، التي عناها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يظهر ، لأن العبد إذا أقر بأن الله تعالى ربه وخالقه ، ومنعم عليه أوجده من العدم ، ورباه بالنعم ، لا رب له سواه ، ثم تدرج بعلمه ويقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليك والمتصرف في أمره وحده ، وأنه لا يملك هو نفسه مع الله شيئاً ، ولا يملك له أحد من الله شيئاً .

وأن كل تصرفات العالم كله بأمره فلا يصل إليه خير إلا بإذنه ،

ولا يصرف عنه ضرر إلا بأمره .

وعرف في يقين : أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السموات والأرض ،
توصل بهله هذا أن من كانت هذه صفاته ، كان هو وحده المستحق
لإفراده بالعبادة وبالألوهية ، لا إله إلا هو .

فيكون في خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من المبدئ
صبحانه بطريق الإلزام ، بالمعنى الذى أرسل الله به رسله ، وأنزل من
أجله كتبه ، وهو أن يعبد الله وحده ، وهو ما صرح الشيخ به في
الإحالة السابقة .

وإذا كان الشيخ رحمه الله ، قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف ،
فإننا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطاً بديعاً ، إذ تلك
الصفات الثلاث في سورة الناس موجودة في سورة الفاتحة ، فاتفقت
الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم ، إذ في الفاتحة الحمد لله رب العالمين .
وملك يوم الدين ، فجاءت صفة الربوبية والملك والألوهية في لفظ
الجلالة .

وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء ، وأن القرآن كله

فما بين ذلك شرح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير .

وسمائي لذلك زيادة إيضاح في النهاية ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .

كلاهما صيغة مبالغة من الوسوسة والخنس ، بسكون النون ،

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان معنى الوسوسة ،
والوسواس لغة وشرعاً ، أى المراد عند كلامه على قوله تعالى : (فوسوس
إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) الآية .

وبين مشتقاتهما وأصل اشتقاقهما ، وهو يدور على أن الوسوسة :
الحديث الخفى . والخنس : التأخر ، كما تسلم على ذلك في دفع
إيهام الاضطراب ، حيث اجتمع المعنيان المتنافيان .

لأن الوسواس : كثير الوسوسة ، ليضل بها الناس . والخناس : كثير
التأخر والرجوع عن إضلال الناس .

وأجاب بأن لكل مقام مقالا ، وأنه يوسوس عند غفلة العبد عن
ذكر ربه ، خانس عند ذكر العبد ربه تعالى ، كما دل عليه قوله

تعالى : (ومن يمش عن ذكر الرحمن نقِطِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)
إلى آخره . ١٠٥ .

قوله تعالى ﴿ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

اختلف في الظرف هنا ، هل هو ظرف للوسواس حينما يوسوس ،
فيكون موجوداً في الصدور ، ويوسوس للقلب ، أو هو ظرف للوسوسة ،
ويكون المراد بالصدور القلوب ، لكونها حالة في الصدور من باب إطلاق
المحل ، وإرادة الحال على ما جار في الأساليب البلاغية .

وعلى حد قوله تعالى : (فليدع ناديه) أطلق النادى ، وأراد من
يحل فيه من القوم .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بحث تمضية الوسوسة
تارة بإلى وتارة باللام ، ففي سورة الأعراف (فوسوس لهما الشيطان) ،
وفي طه : (فوسوس إليه الشيطان) .

وحاصل ما ذكره في الجمع بينهما أحد أمرين : إما أن حروف الجر
ينوب بعضها عن بعض ، وذكر شواهد ، وإما أن يكون وسوس
له أى لأجله ووسوس إليه أى أنهى إليه الوسوسة ، ولكن هنا قال :

(في صدور الناس) ولم يقل : إلى صدور الناس ، فهل هو من باب
 غيابة حروف الجر بعضها عن بعض أيضاً ؟ أم هي ظرف محض ؟ .
 والظاهر أنها ظرف ، ولكن هل هو الظرف للوسواس ، أو ظرف
 للوسوسة نفسها ؟

وبالنظر إلى كلام المفسرين ، فإن كلام ابن جرير يحتمل اعتبار
 للمعنيين بدون تعيين .

وأما القرطبي ، والألوسي ، فصرحا بما ظهر لهما ووصلا إليه .
 فقال القرطبي ، قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير يجرى من
 مجرى الدم في العروق سألطه الله على ذلك وذكر الحديث « إن الشيطان
 ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه » .

وقال : إن أبا ثعلبة الخشني قال : سألت ربي أن يريني الشيطان ،
 ومكانه من ابن آدم ، فرأيت يده في يديه ورجلاه في رجليه ومشاعيه
 في جسده ، غير أن له خطما كخطم الكلب ؟ فإذا ذكر الله خنس ،
 وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه .

أما الألوسي فقد صرح بالتقسيم الذي أوردناه ، فقال : الذي
 يوسوس في صدور الناس .

قيل : أريد قلوبهم مجازاً .

وقال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر الذى هو بمنزلة الدهليز ، فيلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ، ولا مانع عقلا من دخوله فى جوف إنسان . وساق الحديث أيضاً « إن الشيطان يجرى » إلى آخره .

ومراده بالمجاز ما قدمنا من إطلاق الحلق وإرادة الحال .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الصدر ظرف للوسواس ، وأنه يوقع الوسوسة فى القلب . على ما قاله ابن عباس ومجاهد رحمهم الله .

وفى لفظ الناس هنا المضاف إليه الصدور ، اختلاف فى المراد منه ، فتعيل : الإنس . لظاهر الاستعمال .

وقيل : الثقلان : الإنس والجن .

وإن إطلاق الناس على الجن مسموع ، كما حكاه القرطبي قال عن بعض العرب :

إنه كان يحدث فجاء قوم من الجن فوقفوا ، فقيل : من أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن ، وهذا معنى قول الفراء .

واستدل صاحب هذا القول بطريق القياس باستعمال لفظى رجال

ونفر في قوله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) وقوله (ولما صرفنا إليك نفراً من الجن) .

وعليه يكون الوسواس المستعاذ منه يوسوس في صدور الجن والإنس .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوجه ، ولكنه رده وضعفه ، لأن لفظ الناس أظهر وأشهر في الإنس ، وهو المعروف في استعمال القرآن ، ولأنه على هذا يكون قسم الشيء قسماً منه ، لأنه يجعل الناس قسم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس هـ . ملخصاً .

وعلى كل ، فإن منهج الأضواء أن ما كان محتملاً وكان أكثر استعمالات القرآن لأحد الاحتمالين ، فإن كثرة استعماله إياه تكون مرجحاً ، وجميع استعمالات القرآن للفظ الناس إنما هو في خصوص الإنس فقط ، ولم تستعمل ولا مرة واحدة في حق الجن مع مراعاة استعمالها في هذه السورة وحدها خمس مرات ، حتى سميت سورة الناس .

أما القياس على لفظي رجل ونفر ، فقد رده شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً بأهما وردا مقيدین رجال من الجن ، نفراً من الجن .

أما على الإطلاق فلم يردا ، وهكذا لفظ الناس فلا مانع من (٤٣ - أضواء البيان ج ٩)

لستمعالمه مقيداً ناس من الجن . أما على الإطلاق فلا .

وعليه ، فحيث ورد لفظ الناس هنا مطلقاً فلا يصح حمله على الجن والإانس معاً ، بل يكون خاصاً بالإانس فقط ، ويكون في صدور الناس أى في صدور الإانس

وقد ذكر أبو السعود معنى آخر في لفظ الناس : وهو أن الناس من النسيان ، حذفت الياء تخفيفاً لأن الوسواس لا يوسوس إلا في حين النسيان والغفلة .

وعليه ، يكون حذف الياء كحذفها من الداع في قوله : (يوم يدع الداع) ونحوه .

ولكن يبقى على هذا القول بيان من المراد بالناس ، أهو من الإانس أم من الجن ، فلم يخرج عن الاحتمالين السابقين ، مع أن هذا القول من لوازم معنى الوسواس الخناس .

ويرد على هذا القول جمع الصدور وإفراد الناس ، والجمع لا يضاف إلا إلى جمع ، أى جمع الصدور ، لأن الفرد ليس له جمع من الصدور ، فيقابل الجمع بجمع ، أو يكتفى بالفرد بمفرد .

وقد جاء في إضافة الجمع إلى المثني في قوله : (فقد صفت قلوبكما) .

قال أبو حيان : وحسنه أن المثنى جمع في المعنى ، والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع .
كما قال الشاعر :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العيط التي لا ترفع
وهذا كان القياس وذلك أن المعبر عن المثنى بالمثنى ، لكن كرهوا
اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع بأن التثنية جمع في المعنى والإفراد ،
لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر .
كقوله

* حمالة بطن الوادين ترنمي *

يريد بطني ، وغلط ابن مالك في التسهيل إذ قال : ونختار
الإفراد على لفظ التثنية ، فتراه غلط ابن مالك في اختياره جواز
إضافة الجمع إلى المفرد ، كما أنه قل : ولا يجوز ذلك إلا في الشعر ، وأنه
مع المثنى لكرهية اجتماع التثنيتين ، فظهر بطلان قول أبي السعود .

أما الراجح في الوجهين في معنى الناس المتقدم ذكرهما . فهو الوجه
الأول ، وهو أنهم الإنس ، وأن قوله تعالى (من الجنة والناس)
بيان لمن يقوم بالوسوسة ، أى بيان للوسواس الخناس وأنه من كل
من وسواس الجنة ووسواس الناس .

ويظهر ذلك من أمور :

منها : أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته تبعاً له فهو

في حق الناس أظهر .

ومنها : أننا لو جعلنا الناس الأولى عامة لمن يوسوس إليه كان من الجفة ، والناس مصدر الوسوسة ، فيكون من وسواس الناس من يوسوس في صدور الجن . وهذا بعيد .

ومنها : أنه لو كان لفظ الناس يشمل الجن والانس ، لما احتيج إلى هذ التقسيم الجنة والناس ، واكتفى في الثانية بما اكتفى به في الأولى ، وكان يكون الذي يوسوس في صدور الناس من الناس ، ولكن جاء بيان محل الوسوسة صدور الناس ، ثم جاء مصدر الوسوسة الجنة والناس ، والله تعالى أعلم .

تنبيه

ذكر أبو حيان في آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتي المودتين ، فقال : ولما كانت مضرة الدين ، وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت ، جاء البقاء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب ، والملك ، والإله ، وإن اتحد المطلوب

وفي الاستعاذة من ثلاث : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، بصفة واحدة وهي الرب ، وإن تكرر الذي يستعاذ منه .

وهذه الأخرى لفظة كريمة ، طالما كدت تطلعت إليها في وجهتي

نظر ، إحداهما : بين السورتين ، والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، سيأتى إيرادها إن شاء الله .

إلا أنه على وجه نظر أبى حيان ، وهى أنه تعالى فى سورة الفلق جاء فى الاستعاذة بصفة واحدة وهى رب الفلق .

وفى سورة الناس جاء فى الاستعاذة بثلاث صفات ، مع أن المستعاذ منه فى الأولى ثلاثة أمور ، والمستعاذ منه فى الثانية أمر واحد ، فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث .

وبقال أيضاً من جهة أخرى : إن المستعاذ منه فى السورة الأولى أمور تأتى من خارج الإنسان ، وتأتية اعتداء عليه من غيره ، وقد تكون شروراً ظاهرة ، ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو انقاؤه قبل وقوعه ، وتجنبه إذا علم به . بينما الشر الواحد فى الثانية يأتية من داخلية وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه ، إذ الشيطان يراغا ولا زامه ، كما فى قوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

وقد يثر عليه خلجات نفسه ونوازع فكره ، فلا يجد له خلاصاً إلا بالاستعاذة واللجوء إلى رب الناس ملك الناس إليه الناس .

أما الوجهتان اللتان نوهما عنهما ، فالأولى بين السورتين وهى مما

أورده أبو حيان : إذ في سورة الفلق قال : (قل أعوذ برب الفلق)
ورب الفلق تعادل قوله : (رب العالمين) .

لأنه مامن موجود في هذا الكون إلا وهو مفلوق عن غيره .

وفي الزرع : (فالق الحب والنوى) .

وفي الزمن (فالق الإصباح) .

وفي الحيوانات : (الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها
زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء) .

وفي الجمادات يشير إليه قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا
أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما وجعلنا من الماء كل شيء
حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تمتد بهم) .

فرب الفلق تعادل رب العالمين ، فقابلها في الاستعاذة بعموم المستعاذ
منه ، من شر ما خلق .

ثم جاء ذكر الخالص بعد العام للاهتمام به ، وهو من شر غاسق
إذا وقب ، والنفاثات في العقد ، وحاسد إذا حسد .

فالمستعاذ به صفة واحدة ، والمستعاذ منه عموم ما خلق جملة وتفصيلا ،

بينما فى السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات ، هى صفات العظمة
 لله تعالى: الرب والملك والإله .

فقابل المستعـاذ منه وهو شىء واحد فقط ، وهو الوسواس
 الخفاس ، وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه .

وهو كذلك ، لأننا لو نظرنا فى واقع الأمر لوجدنا مبعث كل
 فتنة ومنطلق كل شر عاجلاً أو آجلاً ، لوجدناه بسبب الوسواس الخفاس .
 وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان .

وأول جفاية وقعت على الإنسان الأول ، إنما هى من هذا
 الوسواس الخفاس ، وذلك أن الله تعالى لما كرم آدم ، خلقه بيده
 وأسجد الملائكة له وأسكنه الجنة هو وزوجه لايحوج فيها ولا يعرى ،
 ولا يظلم فيها ولا يضحى ، يأكلان منها رغداً حيث ماشاءا ، إلا من
 الشجرة المنوعة ، فوسوس إليهما الشيطان حتى أكلا منها ودلاهما بفرور ،
 حتى أهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدو .

وبعد سكناها الأرض أتى ابنيهما قابيل وهابيل فلاحقهما أيضاً
 بالوسوسة ، حتى طوَّعت نفس أحدهما قتل أخيه فأصبح من القادمين .

وهكذا بسأثر الانسان فى حياته بالوسوسة حتى يربكه فى الدنيا ،
 ويهلكه فى الآخرة ، واقعد اتخذ من المرأة جسراً لكل ما يريد .

وهاهو يعيد الكرة في نزع اللباس عن أبويننا في الجنة، فيفتزعه عنهما في ظل بيت الله الحريم في طوافهم قبل البعثة ولا يزال يغويه ، وعن طريق المرأة في كل زمان ومكان ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة .

ولا يزال يحلب على الإنسان بخيـله ورجله باراً بقسمه بين يدي الله بمزته ليغوينهم أجمعين .

وإن أخطر أبواب الفساد في المجتمعات لمى عن المال أو الدم أو العرض ، كما في الحديث في حجة الوداع : « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا » إلى آخره .

وهل وجدت جنـاية على واحد منها ، إلا من تأثير الوسواس الخناس . اللهم لا .

وهكذا في الآخرة .

وقد بين ثمالى الموقف جلياً في مقالة الشيطان البليغة الصريحة :
 ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى لى كفرت بما أشركتمون من قبل) الآية .

ولقد علم عدو المسلمين ، أن أخطر سلاح على الإنسان ، هو الشك ولا طريق إليه إلا بالوسوسة ، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم ، ويشككهم في قدرتهم على الحياة السريعة مستغلين عفته ، ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقي ، بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع ، ليظلوا في فلسفة ودائرة نفوذهم ، فيبقى المسلمون يدورون في حلقة مفرغة ، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى .

والمتشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبداً ، بل ما بينه اليوم يهدمه غداً ، وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة رئيس مؤتمر المشرقين في الشرق الأوسط ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، حينما انعقد المؤتمر في [بيروت] لعرض نتائج أعمالهم ودراسة أساليب تبشيرهم .

فنشكى المؤتمر من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل ، لم يستطيعوا أن ينصروا مسلماً ، واحداً ، فقال رئيس المؤتمر : لماذا لم نستطع أن ننصر مسلماً ، ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة في الرأي ، فقد نجحنا في عملنا .

وهكذا منهج العدو ، تشكيك في قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة في عقيدة المسلمين ، فعن طريق الميراث تارة ، وعن طريق تعدد الزواجات

أخرى ، وعن دوافع القتال ، وعن استرقاق الرقيق ، وعن وعن .
حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق ،
وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو ، وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج
الوسواس الخناس .

فلا غرو إذا أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث : رب الناس ، ملك
الناس ، إله الناس .

هذه وجهة النظر الأولى بين سورتي الفلق والناس .

أما الوجهة الثانية وهي بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ،
بقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين
إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت
عليهم) .

وفي هذه البداية الكريمة بث الطمأنينة في القلب المعبر عنها بالحمد ،
عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية ، ثم الإيمان بالبعث
والإقرار لله بملك يوم الدين ، ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والالتجاء
إليه مستعينا به ، مستهديا الصراط المستقيم ، سائلا محبة الذين أنعم
عليهم .

ثم يأتى بعدها مباشرة فى أول سورة البقرة (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) أى إن الهدى الذى تنشده إلى الصراط المستقيم ، فهو فى هذا الكتاب لا ريب فيه ، ثم بين المتقين الذين أنعم الله عليهم بقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) .

ومرة أخرى للتأكيد : أولئك لا سواهم على هدى من ربك وأولئك هم المفلحون .

ثم ترسل السورة فى تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة : مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين ، وهم المنافقون .

ثم يأتى الفداء الصريح وهو أول نداء فى المصحف لعموم الناس (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ويطبق الإبراهيم على استحقاقه للعبادة وعلى إمكان البعث بقوله (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

وبعد تقرير الأصل وهى العقيدة ، تمضى السورة فى ذكر روع

الإسلام ، فتشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد ، وقلّ باب من أبواب الفقه إلا وله ذكر في هذه السورة ، ويأتى ما بعدها مبيناً لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها .

وهكذا حتى ينتهى القرآن بكمال الشريعة وتام الدين .

ولما جاء في وصف المتقين المهتدين في أول المصحف ، أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، أمور الغيب تستلزم اليقين ، لترتب الجزاء عليه ثواباً أو عقاباً .

والثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك

والفعل والترك : هما مفات التكليف ، لأن الإنسان يمثل الأمر رجاء الثواب ، ويكف عن متعلق النهى مخافة العقاب .

فلـكأن نسق المصحف الشريف يشهد إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه ، من أن القرآن بدأ بالحمد ثناء على الله بما أنعم على الإنسان بإنزاله ، وإرسال الرسول صاحبه به ، ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، وهو الأعظم قدراً وخطراً ، ثم رسم له الطريق الذى سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى ، ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم .

وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية ، جاء

به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم ، فاستوقفه ليقول له إذا اطمأنت لهذا الدين ، وآمنت بالله رب العالمين ، راعقت مجيء يوم الدين ، وعرفت طريق المهتدين ورأيت قسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين ، ونهاية كل منهم ، فالزم هذا الكتاب ، وسر على هذا الصراط ورافق أهل الإنعام ، وجانب المضروب عليهم والضالين ، واحذر من مسلك المنافقين المشككين ، واحذر كل الحذر من موجب ذلك كله ، وهو الوسواس الخناس ، أن يشككك في متعلقات الإيمان ، أو في استواء طريقك واستقامته أو في عصمة كتابك وكلامه ، وكن على يقين مما أنت عليه ، ولا تنس خطره على أبويك من قبل ، إذ هما في الجنة دار سلام ولم يسلا منه ، ودلاًهما بفرور لحاذر منه ولذبي كلما ألم بك أو مسك طائف منه ، وكن كسلفك الصالح إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

وقد علمت عداوته لك من بعد ، وعداوته ناشئة عن الحسد .

ولكان ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطهما بهذا التحذير ، إذ في الأولى : ومن شر حاسد إذا حسد ، فسد الشيطان آدم على إكرام الله لإياه كما أسلمنا .

والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ولئن كانت

توبة آدم هي سبيل نجاته ، كما في قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .

فنجاتك أيضاً في كلمات تستعيز بها من عدوك : رب الناس ملك الناس إله الناس ، لأن الرب هو الذى يرحم عباده ، وملك الناس هو الذى يحميهم ويحفظهم ويحرسهم . وإله الناس الذى يتألمون إليه ويتضرعون ويلوذون به سبحانه .

تنبيه

إذا كان هذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس ، وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد ، فما طريق النجاة منه ؟
الذى يظهر ، والله تعالى أعلم : أن طريق النجاة تعتمد على أمرين :

الأول : يؤخذ من عموماً الكتاب والسنة .

والثانى : سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

أما الأول فهو : إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد ، فإن عموماً التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضى دون

تردد، كما في قوله : (فإذا عزمتم فتوكل على الله) ، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالافتداء بهم (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

والقاعدة الفقهية « اليقين لا يرفع بشك » .

والحديث : « يأتي الشيطان لأحدكم وهو في الصلاة فينفخ في مقعده ، فيتخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث ، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً ، يحذر رجاً » .

ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين ، فالعقائد لا بد فيها من اليقين .

والفروع في العبادات لا بد فيها من النية « إنما الأعمال بالنيات » .

والشرط في النية الجزم واليقين ، فلو نوى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها ، لا تنعقد نيته ، ولو نوى صوتاً أنه إن شاء أفطر ، لا ينعقد صومه .

ونص مالك في الوطإ: أنه إن نوى ليوم الشك في ليلته الصوم غداً ، على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان ، وإلا فهو نافلة ، لا ينمقدصومه لا فرضاً ولا نفلاً حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه ، وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية .

والحج : لو نواه لزمه ولزمه المضى فيه ، ولا يملك الخروج منه باختياره .

وهكذا المعاملات في جميع العتود مبناهما على الجزم حتى في المرح واللعب ، يؤخذ في البمض كالنسكاح والطلاق والعتاق .

فن هذا كله ، كانت دوافع الغريمة مستقاة من التكاليف ، مما يقضى على نوازع الشك والتردد ، ولم يبق في قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة .

وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضى الله عنه .

أما الذى كنت سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقواه : لقد علمنا الله كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن .

أما العدو من الإنس ففي قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة

ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولى حميم).

فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته ،
وتكسب صداقته ، كما قال تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن)
السيئة .

وأما عدو الجن ففي قوله تعالى : (ولما ينزغك من الشيطان
نزغ فاستمذ بالله لأنه هو السميع العليم) .

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع
ذكر الله .

وعلى قوله رحمه الله : فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه بالله ،
ويكفيه ذلك ، لأن كيد الشيطان كان ضعيفا .

أما شيطان الإنس فهو في حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه ،
كما يرشد إليه قوله تعالى : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها
إلا ذو حظٍ عظيم)

رزقنا الله تعالى وجميع المسلمين حظاً عظيماً في الدنيا والآخرة ،
لأنه المستول ، وخير مأمول .

روى ابن كثير حديث أبي سعيد رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يتعوذ من أعين الجن والإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وروى عن عبد الله الأسلمى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال « قل : فلم أدر ما أقول . ثم قال لى : قل . فنلت : هو الله أحد ، ثم قال لى : قل . قلت : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق حتى فرغت منها ، ثم قال لى : قل . قلت : أعوذ برب الناس حتى فرغت منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا فتعوذ . وما تعوذ المتعوذون بمنلمن قط . »

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله وسلم على أفضل خلقه وأكرمهم عليه ، من اصطفاه لرسالته وشرفنا ببعثته ، وختم به رسله وكرّمنا به وهدانا لاتباعه : وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين . إنه سميع مجيب .

حاتمة

نسأل الله حسنها

ورحم الله مشائخنا ووالدينا ، وجزى الله عنا والدنا وشيخنا الشيخ
محمد الأمين أحسن الجزاء ، وعن أضيائه حسن الضياء وحلل البهاء .
وجزى الله بالإحسان كل من ساهم في إكمال هذه للفتمة . بتوجيه
أو إرشاد أو دلالة على إحالة ، أو غير ذلك حساً أو معنى ، ومن
يساعد على إظهاره ونشره ، وأن يجعل عملنا ، وعمل من عمل معنا
خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله لنا ولشيخنا رحمه الله من الآثار
التي تكتب لنا من بعدنا ، وأن يعم نفعه ، ويعظم لنا أجره ، ولن
انتفع منه ، إنه جواد كريم . والحمد لله رب العالمين .

وقد كان الفراغ منه في آخر يوم من رمضان المبارك سنة ست
وتسعين وثمانمائة وألف ١٣٩٦ هـ من هجرة من له كمال العزة والشرف ،
في المدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

اعتذار

إن ما أوردناه وما يورده الآخرون من وجهات نظر ، إنما هو بحسب ما يظهر من نسق السياق ، ومنطوق الكلام ومفهومه استنتاجاً واستظهاراً . ولا يحق لقائل أن يقول : من أجل ذلك كان على ما كان ، وكما قال ابن القيم رحمه الله : وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر ، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن سبه بآديه إلى الخافي يسير

لطفاً

أذكر الفارئ الكريم بما ذكرته في مسهل التقديم ، من أنه جهد المقل ووسع الطاقة ، والخطأ لازم والعصمة ممنوعة والتحصيل متفاوت ، فمن اطلع على خلال سدده وأصلح خطاه ، ومن رأى نقصاً أكمله لا إظهاراً لنقص ولا تظاهراً بعلم ، ولكن ابتغاء لوجه الله ، فله مني حسن الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

شكر وتقدير

وإن من الواجب على تقديم الشكر الجزيل والاعتراف بالجميل ، لكل من له على اليد في هذا العمل الفاضل ، وأخص أولاً فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله ، على ما كان منه من حرص وتأكيد على إتمام هذا الكتاب ، وفاء بحق الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، ورجاء لإتمام النفع ، وعلى ما أولاني من نصح وتكليف بهذا العمل فشرفت به ، وقد بذل الكثير من وقته ، وقرأت عليه في بادئ الأمر بعض النماذج لما كتبت فاستحسنها وشجع على المضي مستميراً بالله تعالى ، وعلى مساعيه الحميدة في نفاذ طبعه على النحو السابق أجزل الله له المثوبة .

كما أشكر الجهة التي تبذل الكثير لإتمام الطبع مع عدم الرغبة في الإعلان عنها ، فرحم الله من مات ، وأكرم الله من بقى ، وكذلك للأخوين الجليلين الشيخ محمد بن سيدى بن الحبيب والشيخ محمد الأمين ابن الحسين ، وهما من أخص تلاميذ الشيخ رحمه الله ، وكانبا للأضواء في حياته ، وهما اللذان كانا يقومان بالمقابلة مع الشيخ رحمه الله تعالى ، إذ استمرا معى بنفس العمل في هذه القيمة المباركة ، فأسديا لى أعظم المساعدات في التبييض والتصحيح والمراجعة والمناقشة ، وفيما يحال

عليه من الأضواء ، إذ هما بحق أوسع من عرفت استيعاباً للأضواء
وبإحالاته ، وأكثر سماعاً من الشيخ نفسه في حياته ، فجزاها الله
عنى وعن القراء الكرام أحسن الجزاء .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء
 والمرسلين ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأود أن يعلم أنه توجد آيات من موضوع الكتاب لو أعيد
النظر لتناولها البحث . ولكن هذا شأن التجربة الأولى في أغلب
الأمر ، ولقد كان هذا العمل من الشيخ رحمه الله تجربة ناجحة من
عالم مستوعب والفضل للأسبق .

* * *

بلى هذا إن شاء الله رسالة في الفاسخ والمنسوخ موجزة جداً .
أصلها أبيات للسيوطي رحمه الله ، عشرة أبيات . أوجز فيها خلاصة
ما ثبت نسخه وشرحها الشيخ رحمه الله ، كنت درستها عليه
وأعطانيها بخطه فبيّضها وصححتها عليه ، نلحقتها لقوة ارتباطها
بالتفسير .

ثم رسالة منع جواز الجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز ، كان
رحمه الله كتبها رداً على مناقشات أثبت حول آيات الصفات ،

وما يدور فيها من نقاش بين مذهبي السلف والخلف ، وإيمانها على حقائقها من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل . وبين صرفها عن حقائقها بنوع تأويل على أسلوب الحجاز في اللغة العربية على ما هو متعارف .

فكان القول بالحجاز في اللغة أقوى موجب للتأويل في آيات الصفات . فكانت هذه الرسالة لهذا الموضوع ، وكان الغرض منها هو الحفاظ على آيات الصفات من إدخال الحجاز ، وعمدة ما فيها أن الحجاز ، وإن كان أسلوباً لغة ، فليس كل ما جاز لغة جاز قرآن ، وساق نماذج قل أن توجد إلا في هذه الرسالة .

ثم دفع إيهام الاضطراب عن أى الكتاب :

وهذا الكتاب من أخص ما كتب في علوم القرآن وموضوعه : الجواب عن كل ما يوهب تعارضاً أو اضطراباً بين بعض آيات القرآن مع بعض ، وهذا وإن كان موضوعه من حيث هو موجود ، كفردات ترد في محالها من التفسير ، إلا أنها لم يوجد فيها كتاب قد تتبعها في القرآن كله وجمعها في محل واحد يسهل تناوله ، بل ولا يوجد التنبيه على كل ما جاء فيه في عمومات التفاسير .

وقد كان سببه سؤال عند الدرس عن مدى التوفيق بين قوله

تعالى : (وقفهم لمنهم مسؤولون . ما لكم لا تناصرون) مع قوله تعالى :
 (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) فأجاب رحمه الله باستفاضة ،
 وذكر لها أمثلة عديدة ، فسألته عن تأليف فيها فقال : لا أعلمه ،
 فكان رجائي منه أن يؤلف فيه لنفع المسلمين فوعد خيراً ثم فعل ، وقد
 تتبع هذا النوع في القرآن من أوله إلى آخره

وهو أيضاً تجربة أولى موفقة ، ولو أعيدت كتابته فإن في القرآن
 بعض مواطن من موضوع الكتاب

ثم فهرس الكتاب : ومنها فهرس فقهي لمواضيع الفقه للوجود
 في مواضع متفرقة في جميع أجزائه ، قد جمعت مرتبة على أبواب الفقه ،
 ومبين مرجع كل مسألة في أي جزء ، وعند أي آية ، ليسهل تناولها
 والاستفادة منها

وكان رحمه الله قد اطلع عليه إلى الجزء الخامس والسادس فاستحسنه ،
 ولم يمانع في طبعه مع الجزء الأخير من الكتاب .

ثم بمض تقاريط ونعي للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه شعراً
 من بعض أبناء .

ثم ترجمة لحياته العلمية ، لما فيها من مثل عليا في الجد والتحصيل ،
 وبالله تعالى التوفيق .

وقد وجدت للشيخ رحمه الله مؤلفات مخطوطة أخرى .

منها : في الفقه المالكي .

ومنها : في المنطق .

ومنها : في الفرائض .

ومنها : الرحلة ، وتسجيله حوادث الطريق ومحادثاته العلمية والأدبية مع من لقي من العلماء والأدباء في طريقه من بلده إلى المدينة المنورة ، والكل في محاله ، لطبعه إن شاء الله .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخاتم رسله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

عظيمة محمد سالم

بيان الناسخ والمنسوخ

من آى الذكر الحكيم

كتبها فضيلة الوالد الشيخ الأمين رحمه الله على أبيات للسيوطى فى الإنشقاق.
ونقلتها عن خطه وقرأتها عليه

نص الأبيات من الإنشقاق :

قد أكثر الناس من المنسوخ من عدد	وأدخلوا فيه أبليس تنحصر
وهاك تحرير أى لامزيد لها	عشرين حررها الخذاق والكبير
أى التوجه حيث المرء كان وأن	يوصى لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث	وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح من أثر	وفى الحرام قتال للأولى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها	وأن يدان حديث النفس والفكر
والخلف والحبس للزانى وترك أولى	كفر وإشهادهم والصبر والنفير
ومنم عقد لزان أو لزانة	وما على المصطفى فى العقد محظور
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجب	وأن كذلك قيام الليل مستطير
وزيد آية الاستئذان من ملك	وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

شرحها الشيخ رحمه الله بقوله :

١ - قوله : « أى التوجه » ، يشير إلى أن قوله تعالى : (فأينا تولوا فثم وجه الله) منسوخة على رأى ابن عباس بقوله تعالى : (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام) .

٢ - وقوله : « وأن بوصى لأهليه » : أشار به إلى أن آية (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) الآية . منسوخة . قيل بآية المواريث ، وقيل بحديث : « لا وصية لوارث » ، وقيل : بالإجماع . حكاه ابن العربى .

٣ - وقوله : « وحرمة الأكل بعد النوم مع رفق » يشير إلى أن آية (كتب عليكم الصيام) المتضمنة حرمة الأكل والجماع بعد النوم كما فى صوم من قبلنا منسوخة بآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفق إلى نسائكم) .

٤ - وقوله : « وفدية لمطيق » يشير إلى أن آية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) منسوخة بآية (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقيل بحكمة و « لا » مقدرة ، يعنى : وعلى الذين لا يطيقونه .

• - وقوله : « وحق تقواه » يشير إلى أن قوله تعالى : (اتقوا

الله حق تقاضه (منسوخ بقوله :) فاتقوا الله ما استطعتم (، وقيل :
محكمة .

٦ — وقوله « وفي الحرام قتال » يشير إلى أن قوله تعالى :
(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله : (ولا الشهر
الحرام) منسوخان بقوله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة) الآية .
أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة .

٧ — وقوله « والاعتداد بحول مع وصيتها » يعنى أن قوله تعالى
(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن) الآية ،
منسوخ بقوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن
بأنفسهن أربعة أشهر ومشرا » .

٨ — قوله : « وأن يدان حديث النفس والفكر » يشير إلى
قوله تعالى : (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ،
منسوخ بقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

٩ — قوله : « والخلف » أى الخالفة ، يشير إلى قوله تعالى :
(والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نهيهم) منسوخة بقوله تعالى :
(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) الآية .

١٠ — وقوله « والحبس للزاني » يشير إلى أن قوله تعالى :

(فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت) منسوخ بقوله تعالى :
(فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) .

١١ - قوله « وترك أولى كفر » يشير إلى قوله تعالى : (فاحكم
بينهم أو أعرض عنهم) منسوخ بقوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما
أنزل الله) .

١٢ - وقوله : « وإشهادهم » يشير إلى أن قوله تعالى : (أو آخران
من غيركم) منسوخ بقوله تعالى : (واشهدوا ذوى عدل منكم) .

١٣ - وقوله « والصبر » يشير به إلى قوله تعالى : (إن يكن
منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) الآية . منسوخ بما بعده وهو قوله
تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم
مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن
الله والله مع الصابرين) .

١٤ - قوله « والنفر » يشير إلى أن قوله تعالى : (انفروا خفافا
وقثالا) منسوخ بقوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى)
أو (ليس على الأعمى حرج) الآية ، أو قوله تعالى : (وما كان المؤمنون
لينفروا كافة) الآية .

١٥ - قوله : « ومنع عقد لزان أو زانية » يشير إلى قوله

تعالى : (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينسكحها إلا زان أو مشرك) الآية ، منسوخ بقوله تعالى : (وانكحوا الأباى منكم) .

١٦ — وقوله : « وما على المصطفى فى العقد محتظر » يشير إلى قوله تعالى : (لايجل لك النساء من بعد ..) الآية . منسوخ بقوله تعالى : (إنا أحلنا لك أزواجك) الآية .

١٧ — قوله « ودفع مهر لمن جاءت » يشير إلى أن قوله تعالى : (فاتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا) منسوخ ، قيل بآيات السيف ، وقيل : بآيات الغنيمة .

١٨ — وقوله « كذاك قيام الليل » يشير إلى أن قوله (يا أيها المزمل قم الليل) منسوخ بقوله تعالى : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فارقوا ما تبسر من القرآن) وبقوله تعالى : (فارقوا ما تبسر منه) . وهذا الناسخ أيضاً منسوخ بالصلوات الخمس .

١٩ — وقوله « وآية نجواه » يشير إلى أن قوله تعالى (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » منسوخ بقوله تعالى : (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) وبقوله : (فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم) .

٢٠ — قوله « وزيد آية الاستئذان مما ملكت » . آية الاستئذان

(ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والأصح فيها عدم النسخ ، لكن تساهل الناس بالعمل بها .

٢٩ — « وآية القسمه » (وإذا حضر القسمه أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) والصحيح فيها أيضاً عدم النسخ

ومثال نسخ الناسخ آخر سورة المزمل ، فإنه منسوخ بفرض الصلوات الخمس . وقوله : (انفروا خفافاً وثقالاً) فإنه ناسخ لآية الكف ، منسوخ بآية العذر .

* * *

تمت بحول الله رسالة فضيلة الشيخ محمد الأمين المختصرة في بيان أبيات السيوطي الرمزية تقريباً في هذا الفن . وهي على إيجازها واختصارها كافية شافية للطالب الدارس . أملاها على فضيلته في ذي الحجة سنة ١٣٧٣ هـ

أما المدرس والباحث المدقق والمناقش للأقوال فإن هناك المطولات لقيمة للبحث لبيان إثبات النسخ على منكريد ، وبيان حكمة النسخ وبيان أقسامه ، وقوة الناسخ من كتاب أو سنة ، ومراتبه من شدة إلى ضعف والعكس . إلى غير ذلك .

قهرن

الجزء الثاني من التمهيد والتاسع من الأضواء

الموضوع

الصفحة

- قوله تعالى (عم يساء لون)
- ٥ أصل عم ومعناها والقرآن فيها
- ٦ الخلاف في النبأ العظيم المنسأل عنه وبيان الراجع من سياق القرآن
- ٨ قوله تعالى : (كلا سيعلمون) وبيان أنهم علموا بموجب الأدلة القاطعة
- ٩ » (ألم نجعل الأرض مهاداً) أدلة النبأ العظيم وهي أحد أدلة البعث
- ٩ » (وجعلنا نومكم سباتاً - إلى - معاشاً) إحالة على ماتقدم في الفرقان
- ١٠ » (وبنيينا فوقكم سبْعاً شَدَاداً) إحالة على ماتقدم في ق
- ١٠ » (يوم ينفخ في الصور) بيان حال تلك الأفواج وفيه أثر عثمان مطولا
- ١١ » (وسيرت الجبال فكانت سراباً) إحالة على ماتقدم في طه والنمل
- ١٢ » (لا تبشئ فيها أحقاباً - إلى - وغساقاً) فيها مبحث فناء النار وقد ناقشها الشيخ رحمه الله في دفع الإيهام
- ١٣ » (وكل شيء أحصيناه كتاباً) والمراد بالشيء هنا وبيان سعة علم الله بالجزئيات .
- ١٤ » (إن للمتقين مفازاً) بينه ما بعده حقائق وأعتاباً .. الخ
- ١٤ » (عطاء حساباً) والمقارنة جزاء وفاقاً وعطاء حساباً
- ١٥ » (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) الخلاف في معنى الروح هنا وبيان الراجع

١٦ قوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) وبيان السبب في منعهم عن الكلام إلا بإذن

١٦ قوله تعالى (ذلك اليوم الحق) بيان ذلك اليوم

١٧ » » (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) بيان المسآب والمراد من التخيير

١٨ » » (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً)

١٨ » » (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) بينه قوله تعالى . (يوم تجد كل

نفس ما عملت ..)

سورة النازعات :

٢١ قوله تعالى (والنازعات) بيان النازعات والترح وما بعد النازعات هنا

٢٢ » » (والناشطات نشطاً) والفرق بين النازعات والناشطات

٢٣ » » (والسابحات سبحاً - إلى - سبقاً) الخلاف فيها وبيان الراجح

٢٤ » » (فالمدبرات أمراً) والمراد منها ومناقشة الفخر الرازي في أنها أرواح

٢٤ » » (يوم ترجف الراجفة) وتقدم في يس عند (ونفخ في الصور)

٢٥ » » (يقولون أئنا لمدودون في الحافرة) وبيان الحافرة والراجح فيها

٢٦ » » (أئذا كنا عظاماً نخرة) معنى نخرة لغة ونظيرها هذا الاستنكار منهم

٢٧ » » (هل أتاك حديث موسى) بيان هذا الحديث ومكانه وإحالة على

(ونادياهم من جانب الطور الأيمن) في سورة مريم وبيان ذلك

في غيرها من السور

٢٩ وضع القرآن المنهج المتكامل للدعوة إلى الله

قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى فكذب وعصا) جمع فرعون بين التكذيب

والمصيان . وتقدم بيانه في سورة القمر عند (ولقد جاء آل فرعون النذر)

٣٠ قوله تعالى (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) بيان الراجح في الخلاف في

المراد بالآخرة والأولى

٣١ قوله تعالى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء) والجواب عليهم بأن خلقها أكبر
 ٣٢ » » (بناها رفع ممكها فسواها) تقدم هند (أفلم ينظروا إلى السماء
 ففهم) في سورة ق

قوله تعالى (والأرض بمد ذلك دحاها - إلى - أرساها) المراد بدحاها ،
 وقضية كروية الأرض .

٣٣ الدحو لغة البسط ، والدلة عليه مطولة
 ٣٧ أقوال أهل الهيئة في شكل الأرض وأنها كرة . يكور الليل على النهار ..
 ٤٠ الدليل العقلي على كروية الأرض

٤٠ ثبوت كروية الأرض عن طريق النظر لا عن طريق النص من القرآن
 ٤٢ الإجابة على النصوص التي ظاهرها أنها سطع منبسط
 قوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية) الآية . معنى العشية وضحاها
 وتقدم في يونس عند (ويوم يحشرهم كان لم يلبثوا إلا ساعة من نهار)
 وفي دفع الإيهام
 سورة عبس :

قوله تعالى (عبس وتولى) سبب نزولها والتصريح بالاعمى ليس تنازلاً
 بالالاقاب وبيانه في دفع الإيهام

٤٩ تنبيه : على جواز ذكر مثل هذا الوصف عند الحاجة والسر في ذكره هنا
 ٥٠ علاقة ذلك بالامة وبمكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم
 ٥٧ قوله تعالى (أما من استغنى فأنت له تصدى) الآية . بيان حرصه صلى الله عليه
 وسلم على إسلام الجميع

٥٣ قوله تعالى (كلا إنها تذكرة - إلى - بررة) ذكر المشتبه بهديد لا تخير
 ٥٤ » » (قتل الإنسان ما أكفره) ما أفعله هنا أفعّل تفضيل أم تعجب ؟
 ٥٤ قوله تعالى (ثم السبيل يسره) المراد بالسبيل هنا وتيسيره
 ٥٥ » » (فلينظر الإنسان إلى طعامه) ربط خلق الإنسان بإنبات النبات

والرد على الشيوعين والطبعيين فيقال لهم (قتل الإنسان ما أكفره) .
الآية . وتقدم بيان خلق الإنسان في مواطن متعددة في الرحمن والجانية ،
والواقعة .

٥٧ قوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) المراد بيومئذ وموجب
الاستبشار وتقدم بيانه في سورة الحديد
سورة التكوين :

٦١ قوله تعالى (إذا الشمس كورت) الخلاف في كورت ، وموقف ابن جرير
وبيان الراجح من الكتاب والسنة

٦٢ قوله تعالى (وإذا النجوم انكدرت) الخلاف فيه وبيانه من القرآن
» » (وإذا الجبال سيرت) تقدم في سورة طه (ويسألونك عن الجبال)
وفي الكهف (ويوم نسير الجبال)

٦٣ قوله تعالى (وإذا المائدة سثلت) كيف يوجه السؤال إليها وهي لاعلم لها
ولا ذنب . مناسبة ذلك بمنع الحمل الذي فشا في الناس اليوم وأحاديث العزل
٦٤ أسباب الواد في الجاهلية والرد عليهم

التحذير من هذه الدعوة اليهودية أساساً باسم الاقتصاد

٦٥ تنبيه : حول دعاة تحرير المرأة .

٦٨ قوله تعالى (وإذا الجحيم سعرت) تقدم عند : (ومن الناس من يجادل
- إلى - عذاب السعير) في سورة الحج

قوله تعالى (وإذا الجنة أزلقت) قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت)

قوله تعالى (فلا أقسم بالحنس - إلى رسول كريم) هل هو قسم أو غير
قسم . وتقدم عند (لا أقسم بيوم القيامة)

٦٩ تنبيه : الفرق بين إقسام الله وإقسام الخلق . والمناسبة بين كل ما أقسم الله به
والمقسم عليه وهو مبحث مطول .

٧٤ قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) وبيان المراد بالقول وبالرسول الكريم .

٧٥ تنبيه : على قوة سند اتصال القرآن ووصوله إلينا جبريل عن الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم

٧٦ قوله تعالى (ماتشاؤون إلا أن يشاء الله) : هذه أساس في الإيمان بالقدر .
وتقدم للشيخ في الزخرف (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) والذاريات
٧٧ تنبيه : حول القضاء والقدر

٧٨ تنبيه آخر : بيان الاستقامة في سورة الفاتحة .
سورة الانفطار :

٨١ قوله تعالى (إذا السماء انفطرت) بيان انقطاعها وتقدم في الشورى عند
(السماء منفطر به)

قوله تعالى (وإذا القبور بعثرت) أى بثر من فيها

٨٢ » » (علمت نفس ما قدمت وخرت) بينه الشيخ في دفع الإيهام

» » (الذى خلقك فسواك فعدلك) تقدم في الكهف (ثم سواك رجلاً)

٨٣ قوله تعالى (وإنا عليكم لحافظين) تقدم في ق عنه (ما يلفظ من قول إلا
لديه رقيب هتيد) وفي الانعام عند (ويرسل عليكم حفظة) .

٨٤ توجيه لحسن اختيار كتيبة ولاية الامور

قوله تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم) وبيان أنه دائم وهم مخلدون فيه

٨٥ » » (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) الآية . وبيان السبب والنصوص فيها
سورة المطففين :

٩١ » » (ويل للمطففين) سبب نزولها وعلاقتها بالربا

٩٢ ذكر الوفاء في الكيل مقروناً بعبادة الله وحسده في عدة مواطن مما يبين
الاهتمام به وبيان ذلك

- ٩٥ تميم وشمول معاني الكيل والوزن - ربط الميزان بالكتاب في إقامة المدالة
- ٩٦ ربط هذه السورة بما قبلها
- ٩٧ قوله تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) وسبب جرأتهم على التطفيف
- ٩٨ السر في قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بدلا من مثل ليوم الحساب
- ٩٩ أعرابي يحذر عبد الملك بن مروان
- تنبيه : بعض حيل أصحاب الكاكيل وللوازين في التطفيف
- كما ينبغي أن تعنى بمراقبة البلديات والمسؤولون
- ١٠١ تنبيه آخر : حكم من يبيع برخص ليضر غيره والعمل على حفظ الاسعار
- ١٠٢ د آخر : نوع للكيال والميزان يرجع اختياره للامام
- ١٠٣ غريبة في المنام
- قوله تعالى (كلا بل ران) الآية . معنى ران لنة والقرآن في الآية . وتقدم في الكهف عند (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه)
- ١٠٥ قوله تعالى (ختامه مسك - إلى - للتنافسون) : عود على بدء السورة وبيان محل التنافس حقاً
- ١٠٥ قوله تعالى (إن الذين أجمعوا - إلى يتنامزون) وبيان أن هذا الوصف مشترك بين جميع الأمم
- ١٠٦ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في سورة البقرة عند (ويسخرون من الذين آمنوا)
- ١٠٧ تنبيه : على كل داعية إلى الله أن يتأسى بالرسول ولا يبالى بسخرية الجاهل
- قوله تعالى (فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون) فيه رد على سخرية الكفار منهم في الدنيا . وإحالة على كلام الشيخ في سورة المؤمنون عند (إنا جزيتهم اليوم بما صبروا)

سورة الانشقاق :

١١١ قوله تعالى (إذا السماء انشقت) مقدم في الانقطار وللشيخ في الشورى وق
قوله تعالى (وأذن لربها وحقت) تقدم مادة الإذن في الجملة ، وبيان أن
المعنى هنا سمعت وإطاعة حقيقية لا مجازاً ولا دلالة

١١٢ قوله تعالى (وإذا الأرض مدت) فيها بيان كيفية مد الأرض آنذاك .

١١٣ د د (وألفت ما فيها ونخلت) بيان ما فيها من السكنوز أو الموتى ،
وما نخلت عنه

١١٤ قوله تعالى (وأذن لربها وحقت) تقدم .

د د (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقية) وبيان المراد
بالإنسان العموم أو شخص ومن هو

١١٥ تنبيه : فيما يلغى أن يكون الكدح فيه

د آخر : على شمول الكدح وعموم الإنسان .

١١٦ قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه يمينه - إلى - لن يحور) فيها بيان
نتيجة الكدح

١١٨ لا يجمع الله على العبد خوفين ولا أمينين ، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة .

١١٩ قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق - إلى - عن طبق) معاني الشفق لغة وشرعاً وتقدم .

١٢٠ كلام الشيخ رحمه الله في بيان موافقت الصلاة عند (فسبحان الله حين
يمسون) صمود الحليل منارة الإسكندرية ليتحقق غياب الشفق الأبيض

١٢١ قوله تعالى (والليل وما وسق) والقمر إذا انشق (

١٢٢ د د (لتركبن طبقاً عن طبق) القراءات فيها ، وبيان المراد منها هل هو
في الدنيا أم في الآخرة

١٢٣ الربط بين المقسم به وللقسم عليه

١٢٤ قوله تعالى (إلا الذين آمنوا - إلى - غير ممنون) معنى المن هل هو القطع أو الانعام
سورة البروج :

١٢٩ قوله تعالى (والسماء ذات البروج) اختلف فيها هل هي المنازل أو البروج أو
غير ذلك وربطها بما قبلها وتقدم ، ذلك في سورة الحجر عند (ولقد جعلنا
في السماء بروجاً) وفي سورة الفرقان عند (تبارك الذى جعل في السماء بروجاً)

١٣٠ قوله تعالى (واليوم للموعود) : دلالة النصوص على أنه يوم القيامة

١٣١ » » (وشاهد ومشهود) . تعدد الأقوال في المراد منها والجمع بين
تلك الأقوال وهو مبحث مطول في أنواع الشهادات
١٣٦ تنبيه : في ربط هذه الآية بالمدالة والقضاء

١٣٧ قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) الخلاف فيها هل هي
جواب القسم أم لا ، وهل هي جملة جبرية أم هي إنشائية دعاء عليهم

١٣٨ قوله تعالى (النار ذات الوقود) : الخلاف في المراد بها وبين الراجع من
السنة

١٤١ بيان ما يؤخذ من القصة من حال الساحر والكاهن نحو عشرين مسألة
١٤٤ قوله تعالى (إذ هم عليها قعوداً) الخلاف في مرجع الضمائر في هم وعليها .
وقعود .

١٤٥ قوله تعالى (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) فسرره قوله تعالى : قعود
وبيان السر فيه .

قوله تعالى (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) شاهد على
ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم وبيان عمومته أو خصوصه بأصحاب
الأخدود .

١٤٦ السر في التذييل لهذا السياق بصفق العزيز الحميد .

١٤٧ قوله تعالى (الذى له ملك السموات والأرض) تأكيد لما قبله ولمعنى العزة

- قوله تعالى (والله على كل شيء شهيد) ربط بقوله وشاهد ومشهود
 » (إن الذين فتنوا المؤمنين - إلى - ثم لم يتوبوا) . بيان المراد
 بالذين فتنوا ومعنى الفتنة هنا
- ١٤٨ قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) بيان بالمفهوم من العزيز الحميد .
 » (إنه هو يبدى ويميد) بيان المراد بإبدائه وإعادته أهو الإنسان
 بدأ خلقه ويعيده بالبعث ، أو العذاب يبدأ ثم يعيده عليهم .
- ١٤٩ قوله تعالى (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود) بيان المشابهة في
 للتصنيف أى فرعون وصاحب الأخدود، لوجود السحر والطفيان والتكذيب
 والتعذيب
- ١٥١ قوله تعالى (بل الذين كفروا في تكذيب) .
 والفرق بين يكذبون هنا وفي تكذيب هناك في الانتظار لمراعاة المعنى
 لا لرؤوس الآى كما قال البعض .
 سورة الطارق:
- ١٥٤ قوله تعالى (والسماء والطارق) الطرق لغة . والمراد بالثاقب وتقدم في
 سورة النجم في أولها .
 قول سفيان : كل ما في القرآن وما أدراك فقد أخبر به . وكل وما يدريك
 لم يخبر به . وبيان أن ذلك هو الغالب وقد جاءت وما أدراك ثلاث عشرة
 مرة ، كله أخبر به صراحة إلا في الحاقة ما الحاقة .
- ١٥٧ تنبيه : يلاحظ أنها كلها في قصار السور، ومن الحاقة فما بعدها. أما ما يدريك،
 فهي في القرآن ثلاث مرات فقط . وبيان مواقعها
 تنبيه آخر : حول السر في الإقسام بالسماء والنجم الطارق .
- ١٥٨ قوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) هــل حافظ لداتها أو يحفظ
 أعمالها عليها

قوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق) لفظ الإنسان عام مخصوص منه آدم ،
وحواء وعيسى ، لأنهم لم يخلقوا من ماء دافق
وتقدم عند قوله (خلق الإنسان من نطفة) في النحل وفي الواقعة وتقدم
في الدهر .

١٥٩ قوله تعالى (إنه على رجه لقادر) الخلاف في المراد برجه وترجيح المراد
هل هو الماء الدافق واللبن إلى الضرع والمولود إلى الرحم . أو الإنسان
يوم البعث .

١٦١ قوله تعالى (يوم تبلى السرائر) تقدم للشيخ رحمه الله عند (هنالك تبلى كل
نفس ما أسلفت) وسيأتى عند (وحصل ما في الصدور) في العاديات
وفيهما اشتباها لإمالة التكليف الخفية كالطهارة والصوم والزكاة

١٦٢ قوله تعالى (فماله من قوة ولا ناصر) وبيان حالة ضعفه في صور مختلفة
» » (والسما ذات الرجوع والأرض ذات الصدع) والخلاف فيهما
وبيان الراجح في القرآن

١٦٣ قوله تعالى (إنه لقول فصل) قيل حق وقيل عدل وقيل تهديد ، وبيان
الراجح

١٦٤ قوله تعالى (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) نسبة ذلك إلى الله من باب
المقابلة وبيان أنه بما لا يشتق منه اسما ولا يطلق مفردا

١٦٥ إطلاق العرب السكيد بمعنى المسكر

١٦٦ قوله تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) بحته الشيخ في دفع الإيهام ،
وبين أنه منسوخ ، وقد عارض بعض المعاصرين النسخ مع أنه في الآية الإشارة
بقوله : رويدا أى قليلا .

سورة الأعلى :

١٧١ قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) تقدم معنى التسبيح . ولكن هنا بيان

المراد بالتسبيح هل هو تسبيح الله وتسبيح أسمائه ، ومسألة الإسم والمسمى ومبحث مطول

١٧٦ قوله تعالى (الذى خلق فسوى) للعموم والشمول

» (والذى قدر فهدى) يان لما قبله فى تسوية الخلق بالتقدير .

١٧٧ من لوازم الخلق التقدير وهو مما استدل به موسى على فرعون لقدرة الله تعالى ولوجوده .

١٧٧ قوله تعالى (سنقرؤك فلا تنسى) تقدم للشيخ رحمه الله فى طه عند (ولا تمجل بالقرآن) .

قوله تعالى (فذكر إن نفعك الذكرى) هل إن بمعنى إذ أو شرطية وما يتب عليه .

قوله تعالى (سيذكر من يخشى) تقدم للشيخ رحمه الله يان الحكمة من الذكرى عند (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فى الذاريات .

١٧٩ قوله تعالى (ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى) فى لفظ الاشقى إشاراً لعله تجنبه الذكرى أى لشقائه .

قوله تعالى (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) هذه الحالة من خصائص يوم القيامة لأن فيها سلب النقيضين ، وهذا فى الدنيا محال . وتقدم فى طه عند (إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) قوله تعالى : (قد أفصح من تزكى وذكر اسم ربه فضلى) .

١٨٠ إحالة على كلام الشيخ فى سورة النور عند (ولولا فضل الله عليكم) .

١٨٠ قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا إلى موسى) القراءة فى تؤثرون يان سبب هذا الإيثار .

١٨٣ قوله تعالى : (إن هذا لى للصحف الأولى) للمراد باسم الإشارة أى للشار إليه . ويان موضوع صحف إبراهيم ما هو .

سوره الفاشية :

١٨٧ قوله تعالى: (هل أتاك حديث الفاشية - إلى - من جوع) تحقيق معنى هل الخلاف في معنى الفاشية ، والراجح من المراد منها وأنها في عموم أحوال القيامة تنفسى الناس .

١٨٩ قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) الآيات . وبيان العمل والنصب ، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة . وعلاقة الآية بالعمل البدعى وغير المشروع .

١٩٢ كلام ابن تيمية رحمه الله مفصل في هذا الموضوع .

١٩٥ وجه آخر في هذه المسألة .

١٩٦ قوله تعالى : (تسقى من عين آنية) . الخلاف في معنى آنية .
» » (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يأتي للشيخ رحمه الله في دفع الإبهام.

١٩٧ سؤال للفخر الرازى وجوابه عليه . الرد على من يحمل فيها شبهة .

١٩٨ قاله تعالى : (وجوه يومئذ ناعمة - إلى - وذراى مبثوثة) . في هذا بيان لتقسيم ما تقدم . مقارنة بين القسمين .

٢٠٠ تنبيه : تكرار كلمة فيها مرتين للدلالة على قسمي النعم بعين جارية وبسرر مرفوعة .

قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت - إلى - مذكر) ،
٢٠١ بيان الارتباط بين هذه التسميات الأربعة للإبل والسماء والجبال والأرض .
٢٠٢ كلام الشيخ على خلق السموات والأرض .

بيان الجمع بين سطحت وبين ما تقدم من أنها كروية الشكل .

٢٠٣ تنبيه : بيان كيف وجه النظر هنا بكيف خلقت . والكيف لم يشهدوه .

٢٠٤ أبيات زيد بن عمرو مؤمن الجاهلية ... وأسلمت وجهى لن أسلمت ...

- الصفحة الموضوع
- ٢٠٥ قوله تعالى : (إن إلينا إيابهم - إلى - حسابهم) . معنى الإياب وما فيه من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .
- ٢٠٦ للربط بين مذكر وبين إلينا إيابهم .
سورة الفجر :
- ٢٠٩ قوله تعالى : (والفجر وليال عشر - إلى - إذا يسر) الخلاف في المراد بالفجر الاسم لأولى النهار أم الوصف لكل ما تفجر من غيره ؟
- ٢١٠ (الليالى العشر) - الشفع والوتر والخلاف فيه نحواً من عشرين قولاً .
- ٢١١ تحقيق أنه لا وتر في السكون كله إلا الله .
- ٢١٢ (والليل إذا يسر) هل هو عام في كل الليالى أم في خصوص ليال منها .
- ٢١٣ الخلاف في جواب القسم .
- ٢١٤ قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بآدم - إلى - طغوا في البلاد) . لم يبين هنا كيف فعل بهم . وتقدم بيان ذلك في سورة الحاقة .
- ٢١٥ للراد (يارم ذات العمد) .
- ٢١٦ التحقيق في أوتاد فرعون وأنها الأهرام على الراجح .
- ٢١٧ قوله تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه - إلى - كلا) .
- ٢١٧ قوله تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتيم - إلى - حباً حمّاً) . بيان فتنة المال عطاء ومنعاً .
- ٢١٨ قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض - إلى - صفا) هذه الآية من هم بات الصفات وعندها عنده إحالات .
- ٢١٩ مواضع البحث والنظر وإحالة على كلام الشيخ .
- قوله تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) . تقدم للشيخ رحمه الله في الفرقان عند (ويوم يعض الظالم على يديه) .
سورة البلد :

- ٢٢٣ قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) إحالة على المراد وعلى هذه الألام وعلى دفع الإيهام .
- قوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد) . هل الحل من الحلول والنزول أو الإحلال والتحليل .
- ٢٢٥ بيان الراجح من هذا والقرائن عليه .
- ٢٢٦ قوله تعالى (ووالد وما ولد) . بيان أنه على عمومه ومناسبة ما بينه وبين مكة أم القرى .
- ٢٢٧ قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في كبد) . وتقدم عند (إنك كادح إلى ربك كدحاً) .
- قوله تعالى : (يقول أهلك ما لا لبداً أحسب أن لم يره أحد) . لم يبين أراه أحد ومن الذي يراه ومجىء الجواب مقروناً بالدليل .
- قوله تعالى : (وهديتناه النجدين) وبيان النجدين وإحالات فيها .
- ٢٢٨ قوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة) يبين المراد من العقبة بما بينه . وفضل فك العقبة .
- ٢٢٩ بيان فضل فك الرقاب والرد على من جعل الرق شبهة وإحالة فيها .
- قوله تعالى (يتما ذا مقربة) . معنى اليم في الإنسان والحيوان والطير .
- ٢٣٠ أصل اشتقاق الفقير والمسكين والخلاف في الفرق بينهما والراجح فيها .
- ٢٣٢ قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا) . فيها اشتراط الإيمان صحة العمل وفيها إحالة مصير عمل المشرك في شركه بعد أن يسلم .
- ٢٣٣ قوله تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) علاقة الرحمة بإطعام الفقير والمسكين .
- سورة الشمس :
- ٢٣٧ قوله تعالى : (والشمس وضحاها - إلى - قد خاب من دساها) في ذلك يقسم الله سبع مرات بسبع آيات كونية على شيء واحد وبيان ذلك كله مفصلاً .

- الصفحة الموضوع
- ٢٤٣ تنبيه : تسوية النفس الإنسانية أعظم من خلق الإنسان في جسمه ورزقه وتصريفه في كل شأنه .
- ٢٤٥ تنبيه : في مجيء ذلك بعد الآيات الكونية من شمس وقر وليل ونهار وإحالة فيها .
- ٢٤٦ قوله تعالى : (قد أفلح من زكاهها وقدخاب من دساها) جواب القسم .
- ٢٤٧ الاختلاف في مرجع الضمير في زكاهها ودساها هل هو إلى الله أم للعبد ؟
- ٢٤٨ الجمع بين الأقوال فيها .
- ٢٤٩ قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغواها - إلى - فمقروها) . فيه إسناد الانبعاث الواحد وإسناد المقر لهم كاهم ، وبيان ذلك وإحالات فيها .
- سورة الليل :
- ٢٥٠ قوله تعالى : (والليل إذا يشئ والنهار إذا تجل) تقدم عند (والنهار إذا جلاها) قوله تعالى : (وما خلق الذكر والأنثى) ، تقدم الإحالة عليه في سورة النجم ما في قوله (وما خلق الذكر والأنثى) هل هي مصدرية أو بمعنى الذى .
- ٢٥٥ إثبات أن التذكير والتأنيث بيد الله وسببه من جهة الرجل والمرأة حرف فقط .
- ٢٥٧ غرائب في التذكير والتأنيث في الشجر .
- قوله تعالى (إن سعيكم لثق) . هذا جواب القسم .
- ٢٥٩ بيان المراد بصدق بالحسنى وما يشهد له من القرآن .
- ٢٦٠ تنبيه : مناقشة لأبي حبان في إيراد على التيسير للعسرى وأنه لا تيسير فيها .
- ٢٦١ غريبة : عن شخص كان لصاً وتاب في تذوقه للحرام والحلال .
- غريبة : عن عمر ضد ذلك في نفس المعنى .
- ٢٦٢ تنبيه : في المقارنة بين من أعطى وبخل في مناب الصديق وعموم اللفظ .
- قوله تعالى : (وما ينفي عنه ماله إذا ردى) فيه الرد على من بخل وهل ما هنا نافية أم استفهامية .

- ٢٦٣ قوله تعالى : (إن علينا للهدى) والإحالة الذى دفع الإيهام .
 » (وإن لنا للآخرة والأولى) فسر قوله فى الفاتحة (رب العالمين) .
 » (فأنذرتكم نارا تلظى) ، وصفها هنا بالتلظى ومناسبتها
 للاشقى المتقدم .
- ٢٦٤ قوله تعالى : (لا يصلاها إلا الاشقى - إلى - يتزكى) ظاهره لا يصلاها إلا صنف
 واحد مع عموم الورود والجمع بينهما .
 ٢٦٦ علاقة التصديق بالمال بالتصديق بالبعث .
- ٢٦٧ تنبيه : على قوله (وسيجنبها الاتقى) أنها فى أبى بكر رضى الله عنه .
 ٢٦٨ تنبيه آخر : الإجماع على أن ولشوف يرضى هو أبو بكر رضى الله عنه
 وما جاء فى حقه صلى الله عليه وسلم (ولشوف يعطيك ربك فترضى) .
 سورة الضحى :
- ٢٧٣ قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى) وفيه إحالة ، وبيان اختيار الشيخ
 ٢٧٤ القراءات فى (ودعك)
- ٢٧٥ الراجح فى المراد بودعك أهو من الودع والترك أم التوديع ؟
 تنبيه : أنه سبحانه ماترك رسوله قط ولن يترك .
- ٢٧٨ قوله تعالى (والآخرة خير لك من الأولى) : ظاهره أنها خير له صلى الله
 عليه وسلم فقط ، وبيان أنها خير له صلى الله عليه وسلم ولكل معنى وإحالة
 على كلام الشيخ .
- ٢٧٩ قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) ، هذا من تعداد
 النعم عليه صلى الله عليه وسلم .
- ٢٨٠ قوله تعالى : (ولشوف يعطيك ربك فترضى) ، وبيان ما سيعطيه ربه فى
 الدنيا وفى الآخرة .
- ٢٨٢ تنبيه : اللام فى ولشوف للتأكيد وليست للقسم .

قوله تعالى : (ألم يجدك يتيماً فآوى) ، وبيان ما قيل في اختيار الله اليتيم لرسول الله .

٢٨٣ قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) . الضلال يكون حساً ومعنى . وفيه

إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في عدة مواضع أولاً في سورة يوسف . رؤيا منامية لأبي حيان في هذه الآية .

٢٨٥ إيراد رؤيا عن سورة ن نذكرها بالمناسبة .

٢٨٦ قوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) . العائل النفة وبيان كيف أغناه الله .

٢٨٨ حقيقة الغنى عن النفس . والمقارنة بين الغنى للشاكر والفقير الصابر .

٢٨٩ تنبيه : لطيفة في السياق في أنواع الإسناد والخطاب .

٢٩٠ قوله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر - إلى - فحدث) ، معنى قهر اليتيم .

مبحث في النصوص الواردة في حق اليتيم وهي فوق عشرين وهو مبحث مطول .

٣٠٠ تنبيه : ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه .

قوله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) ، هل السائل هنا هو المحتاج أم هو

المستفسر عن العلم . أم يشمل الجميع .

٣٠٢ التحدث بالنعمة وهي هنا عامة بسبب إضافة .

سورة الشرح

٣٠٧ قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك - إلى - ورفعنا لك ذكرك) . فيها التقرير

على ثلاث مسائل : شرح صدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، وبيانها كلها .

٣١٣ مبحث عصمة الأنبياء . وتقدم للشيخ رحمه الله في سورة طه عند (وعصى

آدم ربه فنوى) وأورد كلام الشيمة والمعتزلة ، ما يتعلق بخصوصه صلى الله عليه وسلم .

٣١٦ بيان (ورفعنا لك ذكرك) .

٣١٨ قوله تعالى : (فإذا فرغت فانصب) ، للراد بالفراغ وبالنصب .

تنبيه : قراءة شاذة ذكرها الألوسي احتج بها الشيعة والرد عليهم .

٣٢٠ أمثلة من تأويل اللعب

٣٢١ قوله تعالى (وإلى ربك فارغب) التقديم هنا مشعر بالتخصيص كقوله تعالى (إياك نعبد)
سورة التين :

٣٢٥ قوله تعالى (والتين والزيتون - إلى - وهذا البلد الأمين) بيان المراد هل هو القهرة أم مكان إنباتها

٣٢٧ تصحيح ابن القيم أن القهرة هي المقصودة

٣٢٨ الراجع من ذلك كله مما هو من أسلوب القرآن وهذا الكتاب

٣٢٩ قوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) هذا هو المقسم عليه وإحالات على كلام الشيخ رحمه الله

٣٣٢ قوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين) المراد بهذا الرد إلى الكبر ويكون عاماً ، أم إلى النار ويكون خاصاً في الكافر .

٣٣٣ بيان الراجع من ذلك

٣٣٤ حفظ القرآن لعقول حفظته عند كبر السن .

٣٣٥ تنبيه : محاولة ربط هذه السورة بأصل الخليقة وإسكان آدم الجنة ثم خروجه منها ثم رد المؤمنين إليها .

٣٣٧ سر لطيف بين المقسم به والمقسم عليه . علاقة هذا بالبلد الأمين

٣٣٨ قوله تعالى (فما يكذبك بعد بالدين) فسر ممالك يوم الدين وبيان له الخطاب قوله تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) . السؤال للإثبات . مايقوله من قرأ هذه السورة .

بيان أحكم الحاكمين هل من العدل في الحكم أم من الحكمة في الفعل .

سورة العلق :

٣٤٣ قوله تعالى (اقرأ باسم ربك - إلى - علم الإنسان ما

في هذه الآيات

تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض. ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية فيها حوالى
٢٢٠ صفحة

٢٤٤ بيان المسائل التسع إجمالاً ثم التفصيل

٢٥٣ تنبيه : شرف التعليم بالقلم

٣٥٤ أقسام القلم في السنة

٣٥٥ عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم بالقلم

٣٥٦ من كتاب الوحي الخلفاء الأربعة ذكره ابن القيم رحمه الله

٣٥٧ جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بأصل الدين

٣٥٨ مبحث تعليم النساء القراءة والكتابة

٣٦٢ مسألة في بيان أولية الكتابة عموماً والمرية خصوصاً الحروف المكتوبة
الآن في لغات العالم .

٣٦٣ عدد المعروف من اللغات . تقريباً خطأ الجزم

تنبيه : التعليم بالآلة لا يمنع للتعليم بدون القلم

٣٦٩ قوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) : لفظ الإنسان عام

لكنه مخصوص وبيان المخصص لها

٣٧٢ بيان أن النفي ليس هو السبب للبإشرف في الطغنيان ، بل من لطيف الأسلوب

أن رآه ، فقد يرى نفسه استغنى ، وهو غير مستغن .

٣٧٣ قوله تعالى (لئن لم تفته لنسفنا بالناصية - إلى - خاطئة) إحالة على ما تقدم

تنبيه بلاغى في علاقة ما يسمى بالمجاز للرسول إذا كانت الجزئية .

٣٧٤ قوله تعالى (فاسجد واقترب) والربط بين السجود والاقتراب إلى الله .

سورة القدر :

٣٧٩ قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) الضمير في أنزلناه

٣٨١ بيان للنزل ليلة القدر ماهو ، وكلام ابن تيمية رحمه الله في الجمع

بين الأقوال .

٣٨٢ النقاش حول كيفية إنزال القرآن وجواب سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم .
بيان عدم التعارض بين الأقوال .

٣٨٤ بيان موضع ليلة القدر أنها في رمضان .

٣٨٥ قوله تعالى (ليلة القدر خير من ألف شهر) . المراد بالقدر هل هو التقدير ، أم هو الرفعة والشرف ، وكلام الشيخ رحمه الله ، وبيان الراجح من القرآن وإثبات بقائها ولم ينقها إلا الشيعة .

٣٨٧ تنبيه : تحديدها من رمضان والراجح في العشر الاواخر .

٣٨٨ الراجح من تلك الأقوال كلها والجمع بينها .

٣٨٩ السر في عدم تعيينها .

مباحث متفرقة عن هذه الليلة .

٣٩٠ قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) المراد بالروح هل هو جبريل أو نوع من الملائكة .

٣٩١ قوله تعالى (من كل أمر) هل هو واحد الأمور ، أم واحد الأوامر .

٣٩٢ قوله تعالى (سلام هي حق مطلع الفجر) معنى السلام هل التحية أم السلامة .
لطيفة : في جمل الليل ظرف المسكرات إنزال القرآن - الإسراء - التهجد .
سورة البينة :

٣٩٧ أسماء سورة البينة .

قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا - إلى - من بعد ماجاءتهم البينة)

بيان الفرق بين المشركين والكافرين

٣٩٩ إحالة على دفع الإيهام ونبذة منه .

٤٠٠ هل الكفر ملة واحدة . وحكم المجوس

الاختلاف في منسكين اختلافاً كثيراً ، يقيد المفسرون هذه الآية من أصعب ما في كتاب الله نظماً وتفسيراً . بيان الإشكال فيها - ماجاء عن الشيخ رحمه الله في إملائه عنها .

- ٤٠٣ وجهة نظر في « منفيكين » تحمل هذا الإشكال كله فيما يظهر . كلام الشيخ الإسلام فيما شامل .
- ٤٠٤ تفسير البيئنة بما قيدها (رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة) .
- ٤٠٥ بيان أنه صلى الله عليه وسلم في شخصية بيئنة .
- ٤٠٧ فيها كتب بمعنى كتاب أو مكتوب . وبيان المراد بالمكتوب ماهو .
- ٤٠٨ بيان أن الظاهر في كتب على نصها : جمع كتاب .
- ٤٠٩ قوله تعالى « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيئنة » لماذا خص أهل الكتاب هنا مع ذكر المشركين معهم أولاً
- ٤١٠ تنبيه على ما تقدم
- ٤١١ قوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » لم يبين أين هذا الأمر المذ نور في القرآن أم في كتبهم . بيان أنه في كل منهما .
- ٤١٢ معنى قيمة ، وأن القرآن أقومها .
- ٤١٤ تنبيه : الرد على من يدعو إلى وحدة الأديان ، وبيان أن ما جاء به القرآن هو الدين القيم والذي لا يقبل الله غيره اليوم ،
- ٤١٥ قوله تعالى : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين - إلى البرية) معنى البرية والقراءات فيها ، تضمنت الآية مسألتين وبيانها ، بيان أن الدواب خير من أولئك لإثبات الإيمان عندها .
- ٤١٧ الحكمة في تصيير البهائم يوم القيامة تراباً دون الكافر .
- ٤١٧ قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) . وفيها مبحث العموم في البرية والتفضيل بين الملائكة ومؤمنى الإنس والدليل .
- ٤٢١ بيان حقيقة التفضيل في صدور العمل من كل منهما لا في الذات والماهية .
- ٤٢١ قوله تعالى : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) الآية . فيها أربع مسائل منها ثلاث جملة .

- ٤٢٢ قوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) . وبيان هذا الرضوان وزمنه في الدنيا أم الآخرة .
- ٤٢٤ تنبيه : ببيان لازم رضوان المبد على ربه .
- ٤٢٥ قوله تعالى : (ذلك لمن خشى ربه) . بيان النتائج المترتبة على مخافة الله .
- ٤٢٩ سورة : « إذا زلزلت » . بيان الزلزال لنة .
- ٤٣٠ إحالة على كلام الشيخ في سورة الحج عند (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) .
- ٤٣٠ الاختلاف في الائتال هنا على ثلاثة أقوال : موتاها - كنوزها . ما عمل على ظهرها .
- ٤٣١ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في إملائه أنها موتاها .
- ٤٣٢ قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) . وبيان عموميين فيها الأول « من » والثاني « يعمل » .
- ٤٣٥ فيها التنبيه بالأدنى على الأعلى .
- تنبيه : يتعلق بتفتيت الذرة وأن القرآن سبق إلى الإشارة إلى التفتير النووي والرد على المنطقيين بأن الذرة هي الجوهر للفرد .
- ٤٣٩ سورة والماديات : وإحالة على إملاء للشيخ رحمه الله تعالى ، وقد جمع أقوال المفسرين كلها . بيان نقطة الخلاف في معنى الجمع والذي توسطن به أهو المزدلفة أو القتال .
- ٤٤٢ القرائن في الآية المأمنة من كونه المزدلفة .
- ٤٤٣ ما يفيد الربط بين السور من ترجيح المعنى المراد .
- ٤٤٤ جواب القسم ، وبيان الكنود عند القرطبي ، وفي لنة ريعة ومضر .
- ٤٤٥ سبب لسمية كنده بكندة لأنها جمعدت أباها .
- ٤٤٦ تفسير القرآن لمعنى الكنود .

- الصفحة الموضوع
- ٤٤٧ الإنسان هنا من العام الخصوص - وأن هذه من طبيعة الإنسان إلا مآهذه
الشرع .
- قوله تعالى : (وإنه على ذلك لشهيد) . والخلاف في مرجع الضمير في
وإنه ، ورجع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه رجوعه إلى الإنسان في
مبحثه في دفع الإيهام بدليله .
- ٤٤٨ قوله تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) . لفظ الخير عام ولكنه هنا خاص
بالمال . الخلاف في اللام هل هي سببيه أم بسبب حبه الخير شديد البخل أم
مقدمة بمعنى لشديد حب الخير .
- ٤٥٠ قوله تعالى (أفلا يعلم إذا مآثر ما في القبور) . معنى البعثة . أخذها من
أصلين في اللغة : البعث والنثر
- ٤٥١ قوله تعالى (وحصل ما في الصدور) ومعنى حصل . والمراد بما في الصدور
هي الأعمال أم القلوب ، وبيان الراجح
- ٤٥٣ قوله تعالى : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) ، ومفهوم الظرفية
- ٤٥٧ سورة القارة : إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول
سورة الواقعة ، بيان أن أسماء يوم القيامة ليس من قسم المترادف ، وأن
كل اسم يأتي معه ما يناسبه من أحول ذلك اليوم
- ٤٥٨ معنى القارة في القرآن ، وناسبها مع ما بعدها
- ٤٥٩ قوله تعالى : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) ، معنى الفراش ، وإحالة
على كلام الشيخ رحمة الله في إملائه
- ٤٦٠ الفرق والجمع بين وصفهم بالفراش وصفهم مرة أخرى بالجراد المنشر .
وإحالة على كلام الشيخ رحمة الله في سورتي اقتربت و « ق » ويس .
- قوله تعالى : (وتسكون الجبال كالمنفوش) . وإحالة على كلام الشيخ
في سورة الواقعة .
- ٤٦١ قوله تعالى (فأما من ثقلت موازينه) الآية . ودلالة ذلك على وجود الوزن

- فملا . والموازين يراد بها الموزون ويراد بها الآية . وإحالة على كلام الشيخ
رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله (ونضع الموازين القسط) . إسناد
الرضا للعيشة في قوله (في عيشة راضية) .
٤٦٣ كون الإسناد حقيقياً .
- ٤٦٣ قوله تعالى : (أما من خفت موازينه فأمة هاوية) - وبيان الخلاف في المراد
بأمة هل هي رأسه أم هي النار . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في دفع
إيهام الاضطراب .
- ٤٦٤ تفسير القرآن للهاوية . وبيان أن لا تعارض بين المعنيين .
- ٤٦٩ سورة التكاث : معنى أهاكم ، والتكاث ، عام في كل ما يتكاث فيه .
- ٤٧٠ بيان مافيه التكاث ، وبيان عموم وشمول اللفظ له .
- ٤٧٢ قوله تعالى (حق زرتم المقابر) . والصحيح فيما يراد به .
- ٤٧٣ تنبيه : في حكم زيارة النساء للقبور ، والراجع من الخلاف فيها .
- ٤٧٥ تنبيه آخر : من لطائف التفسير في معنى (زرتم المقابر) .
- ٤٧٦ إنكار الساف على ما يصنع للقبور ، من المباهاة بها بالاندلس ومصر وغيرها
إنكار السلف على المكثرين من زيارة القبور والمباهاة بها .
- ٤٧٧ بيان خطأ هؤلاء في اشتغالهم دائماً بذلك . وتنقلاتهم إليها .
- ٤٧٨ قوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون) الكلام على
تكرار لفظ كلا هنا .
- ٤٧٩ الاستدلال من الآية على ثبوت عذاب القبر .
- ٤٧٩ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في هذه المسألة . أصرح
دليل في إثبات عذاب القبر على سبيل الإجمال .
- قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) .
بيان لو الشرطية وجوابها .

٤٨٠ لترون الجحيم : جواب لقسم محذوف . وبيان الخلاف في زمن أول تلك الرؤية .

٤٨١ مراتب العلم الثلاثة : علم اليقين ، عين اليقين ، حق اليقين .

٤٨٢ قوله تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ، بيان أصل النعيم الذي يكون عند السؤال ، وبيان أن الآية عامة في كل ما ينعم به .

٤٨٤ سبب نزولها .

٤٩١ سورة والمصر : بيان المراد بالمصر ، والخلاف فيه ، ودليل كل قول والراجع منها .

٤٩٤ قوله تعالى : (إن الإنسان لفي خسر) . أل فيه جعلته عاماً ، وإحالة ذلك على دفع الإيهام . بيان المراد بالخسر وأقسامه من نصوص القرآن الكريم .

٤٩٥ ربط السورة بالتي قبلها ، والتي بعدها يظهر المعنى أكثر .

٤٩٧ تحقيق المناط في معنى خسران الإنسان .

٥٠٠ تنبيه : أقوال العلماء في سبب التلوي المذکور في هذه السورة .

٥٠١ تنبيه : في دخول الجن مع الإنس في ذلك العموم .

قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، مناقشة دخول الأعمال في مسمى الإيمان ، وأهـى شرط في صحته .

٥٠٢ معنى الصالحات ، وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله - التواصى بالحق هنا من الخاص بمض العام .

٥٠٣ معنى الحق الذى نواصوا به ، وعلاقة الآية بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٥٠٤ عموم وجود ذلك فى جميع الامم .

٥٠٥ الوصايا العشر

٥٠٦ الربط بين هذه الآية وسورة الفاتحة والهداية إلى الصراط المستقيم .

٥٠٧ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله

٥٠٨ تنبيه : علاقتها بآية الاستقامة وتمدى النفع إلى الآخرين .

٥٠٩ تنبيه : كيف يتقى الإنسان عدويته من الجن والإنس

٥١٣ « سورة الهمزة » الخلاف فى كلمة : ويل ، وإحالة على بيان الشيخ لها

٥١٤ بيان الظاهر من كل ما تقدم

٥١٥ معانى الهمز واللمز ، وبيان القرآن أنهما متمايزتان لامترادفتان

٥١٦ قوله تعالى (الذى جمع مالا وعدده) . بيان أن هذا علة لما قبله ومعنى عدده

٥١٧ قوله تعالى (أيجسب أن ماله أخذه)

قوله تعالى (كلا ليذبذن فى الحطمة) . فسرت الحطمة بما بعدها ، ناز الله للوقدة .

قوله تعالى (إنها عليهم مؤصدة فى عهد ممددة) ومعنى الوصد وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله

٥٢١ سورة الفيل : الخلاف فى معنى « سجيل » وبيان وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٥٢٢ مناقشة من نفى الحجارة من سجيل أو تأولها .

٥٢٤ ماحكى عن الشيخ محمد عبده والتسيد رشيد رضا واعتذار السيد قطب عنهما

٥٢ بيان حقيقة ذلك من نصوص القرآن

٥٢٦ خطأ تحكميم الفعل في خوارق المادات ، وعجز العقل عن قصور بعض
المشاهد المحسوس

٥٢٨ تنبيه : كيف أهلك الله جيش أبرهة وهو كتابى ، ونصر العرب
وهم وثنيون .

٥٢٩ آيات أبى طالب فى القصة .

٥٣٣ سورة « لإيلاف قريش » الخلاف فى لإيلاف

٥٣٥ معنى الإيلاف - قريش علم على القبيلة وسبب تسميتها بذلك .

٥٣٦ قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) . أى البيت الحرام بدليل عند
(بيتك المحرم)

٥٣٧ قوله تعالى : (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . فيه تعليل لموجب
الأمر بالمعبادة . إحالة على كلام للشيخ رحمه الله تعالى

تنبيه : فى الآية بيان موجب العبادة لله وحده ونظائرهما من القرآن .

٥٣٨ بيان كون الشكر يزيد النعم

٥٣٩ تنبيه : فى هذه السورة بيان أن كمال الإنعام فى الأمرين المذكورين
الإطعام والأمان .

تنبيه آخر : فيها دليل على استجابة دعوة الأنبياء

٥٤٣ « سورة الماعون » اسم الموصول منهم بينه مايمده وبيان ضده فى المؤمن
بيان اختصاص ذكر هذين الوصفين : دع اليتيم وعدم الخس على طامام
المسكين .

٥٤٤ مقابلة إطعام المسكين والخوف من يوم عبوس : شدة العناية باليتيم في هذا المقام .

٥٥٥ معنى : دع اليتيم

قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) الخلاف في المراد بالمصلين هنا .

٥٤٦ حكم النفساني في الصلاة منه صلى الله عليه وسلم . حكم المرائي في صلاته

٥٤٧ إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيمن سها عن الصلاة وأضاعها . وإحالة على كلامه عمّن تركها جهداً أو كسلاً .

٥٤٨ تنبيهه : مقارنة بين المنافق والمؤمن في شأن الصلاة .

٥٤٩ بيان أثر الصلاة في الإسلام

٥٥٠ مبحثان في الآية . الاول الرياء وما حده - الثاني : حكم العارية .

المبحث الاول في الرياء . تعريفه وحكمه

٥٥٣ الرياء الطارئ العمل الذي بدأه صاحبه خالصاً لله

٥٥٤ الثاني : حكم العارية

٥٥٦ تضمين مانع الماعون إذا ترتب عليه إتلاف - وبيان أن التارك فعل

٥٥٧ تمدح العرب بعدم منع الماعون

٥٥٧ ضمان العارية

٥٥٩ حكم من جهد العارية

٥٦٠ في السورة ، منهج على لجمع أطراف الموضوع .

٥٦١ ومنها مأخذ لما لك رحمه الله : أن من شرط الشهادة الاستشهاد وسماع

كل الحديث .

الصفحة	الموضوع
٥٦٥	« سورة الكوثر » الخلاف في المراد بالكوثر والأقوال المتعددة فيه ،
٥٦٧	الذى تطمئن إليه النفس في معناه ، أنه الخير الكثير والحوض أحد أفرادہ .
٥٦٨	عرض موجز لما ظهر لى من ربط قصار السور بعضها ببعض ، كربط الآيات في السورة الواحدة .
٥٧١	قوله تعالى (فصل لربك وانحر) . بيان أنه سبب عما قبله . فيه تنبيه لطيف بمد بيان حال سهو المنافقين عن الصلاة ، جاز الحث عليها هنا ، ولما كان قبلها التحذير من الرياء ، جاء هنا الحث على الإخلاص لربك .
٥٧٢	والصلاة قبل صلاة العيد والنحر للضحية أو الهدى ، وفيها مأخذ تأخير النحر عن الصلاة ، وبيان ذلك من السنة .
	إحالة على كلام الشيخ في مبحث الضحية ، بيان صفة النحر والذبح ، وما يختص به كل منهما .
٥٧٣	الحكمة في أن النحر للابل .
	قوله تعالى (إن شئتكم هو الأبر) ، وبيان الشافى والأبر .
٥٧٩	« سورة الكافرون » مجيء لفظة « قل » .
٥٨٠	هل في السورة تكرار أم لا . وما المراد منه مع أمثلة على التأكيد .
٥٨١	إحالة على كلام الشيخ في معنى (لا أعبد ما تعبدون) .
٥٨٤	قوله تعالى : (لستم دينكم ولى دين) ونظائرها من القرآن .
٥٨٥	تنبيه : في عدم صلاحية أنصاف الحلول ، تعتبر هذه السورة حداً فاصلاً بين الفريقين .
٥٨٩	« سورة : إذا جاء نصر الله والفتح » . ما يدل عليه اجتماع النصر والفتح هنا ، وأن النصر أعم .

- الصفحة الموضوع
- ٥٩١ قوله تعالى : (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) . وبيان المراد بالفتح ما هو .
- ٥٩٢ نبذة عن بعض وقائع غزوة الأحزاب ، وما جاء فيها من بشار الفتح مكة وغيرها .
- ٥٩٥ قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . إحالة على ما تقدم من معنى التسبيح . إقتران التسبيح هنا بحمد الله ومناسبته مع أول السورة .
- ٥٩٦ بيان أن التوبة دعوة جميع الرسل لأممهم .
- ٥٩٧ نفيه : بيان معنى الآية من فعله صلى الله عليه وسلم ولفت نظر لبعض أصحاب الأذكار .
- ٥٩٨ دلالة الإيماء في الآية إلى قرب أجله صلى الله عليه وسلم ، ودقة الاستنباط .
- ٦٠٣ سورة : (تبت يدا أبي لهب) . تصريح مادة تب .
- ٦٠٤ تفصيل : ما وقع لأبي لهب من معاني النب . وإسناد التب للدين . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في إسناد الكذب إلى الناصية .
- ٦٠٥ قوله تعالى : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . بيان كون ما ، نافية أو استهامية .
- ٦٠٦ قوله تعالى : (وما كسب) من مال أو عمل ، وفيه إحالة على كلام الشيخ رحمه الله تعالى عليه .
- نفيه : للمقارنة بين حلمه صلى الله عليه وسلم عليهم ومحابته همه بذلك .
- ٦٠٧ مجيء قوله وتعالى « وتب » بمد « تبت » أولا .

- الصفحة الموضوع
- ٦١١ « سورة قل هو الله أحد » معنى الأحد وتصريف الكلمة .
- ٦١٤ السورة كلها تفسر لمعنى الأحد ، بل الرسالة كلها تدور حول هذا المعنى وهو وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله واستحقاقه للمعبادة وأن يصمد الخلق إليه .
- إحالة على كلام الشيخ عند قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد) .
- ٦١٥ تقرير القرآن لمعنى الوحدانية لله سبحانه بطريفة الإلزام العقلي .
- قوله تعالى (الله الصمد) أقوال المفسرين ، وأنه يفسره ما بعده .
- ٦١٦ إحالة على كلام للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه .
- قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد) إحالة فيها على كلام الشيخ رحمه الله علينا وعليه .
- نفيه : نفى اتخاذ الولد لا يستلزم نفى الولادة ، أى أنه لم يولد .
- ٦١٨ جاء بيان المانع من اتخاذ الولد لله سبحانه . ولم يأت بيانه من أن يولد سبحانه ، وبيان ذلك .
- ٦١٩ بيان أنه سبحانه يستحيل عليه أن يولد ، بدليل التمانع العقلي .
- ٦٢٠ الدليل العقلي على عدم اتخاذ الولد لله تعالى . لماذا قدم نفى الولد على نفى الولادة مع أن الولادة أسبق .
- ٦٢١ لماذا نفى الولادة في قوله تعالى : (ولم يولد) مع أنه لم يبدع أحد ذلك على الله .
- ٦٢٢ قوله وتعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) . بيان السكف والنقد ، وإحالة على كلام الشيخ .
- ٦٢٣ أسباب نزولها وبيان فضلها .
- ٦٢٤ حول السؤال عن الماهية .

الموضوع	الصفحة
المعوذنان : مقدمة بين السورتين	٦٢٧
ارتباط السورتين بسورة الإخلاص .	٦٢٨
إحالة الشيخ رحمه الله على سورة الناس .	٦٢٩
الربط بينها وما قبلها من إعلان التوحيد ومعركة الإيمان مع الشرك .	٦٢٣
قوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) الفلق فعل بمعنى مفعول . واختلف في المراد منه .	
ما يشهد له القرآن من المعاني .	٦٣٤
قوله تعالى : (من شر ما خلق) . ما هنا على عمومها حق شملت إبليس وجنهم ، وأخذ المعترلة منها موضوع خلق أفعال العباد والرد عليهم . إحالة على كلام الشيخ في هذه المسألة .	٦٣٥
قوله تعالى : (ومن شر غاسق إذا وقب) ، الخلاف في معنى الفاسق .	٦٣٦
الصحيح مما قيل فيه .	٦٣٧
قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد) وشموله للرجال أيضاً ، إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في مبحث السحر .	٦٣٨
مسألة حكم الساحر إذا قتل بسحره .	٦٣٩
تنبيه : يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان ، وكذلك الحسد .	
قوله تعالى : (ومن شر حاسد إذا حسد) . دلالة اقتران الحسد بالسحر هنا . عرض لبيان أمر الحسد مما اشترك فيه مع السحر .	٦٤٠
تمذر تعريف الحسد منطقياً .	٦٤١
إنكار بعض الفلاسفة وقوع الحسد .	٦٤١
تنبيه : بيان ماهو المحسود عليه ، والنعمة التي تستحق الحسد حقاً .	٦٤٢
تنبيه : أثر العين والفرق بين العين والحسد .	٦٤٣

الموضوع	الصفحة
الفرق بين الحسد والغبطة .	٦٤٤
تحذير من الحسد ، وأنه أول معصية وقعت .	٦٤٥
أسباب الحسد .	٦٤٦
تنبيه : مما يؤخذ من وقوع هذه السورة آخر المصحف ، حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئاً بالعين عند الأئمة الأربعة .	
مانقل أنه ينبغي على الإمام منع العائن من مخالطة الناس .	٦٤٧
مسألة ماتعالج به العين .	٦٤٩
مانتقى به قبل وقوعها .	٦٥٠
كيفية العمل في الغسل لمن به العين وتفضيل ذلك وماذا يفعل بالماء .	٦٥١
علاج العائن لنفسه من داء الحسد .	٦٥٣
« سورة الناس » قوله تعالى : (قل أعوذ برب الناس) ، وبيان موجب إحالة الشيخ رحمه الله على هذه السورة من تحميل المسؤولية .	٦٥٧
موجب الإحالة ، اشتمال هذه السورة على ثلاث صفات عظيمة لله تعالى .	٦٥٨
علاقة هذه السورة بسورة الإخلاص ، وبسورة الفاتحة ، وبسورة البقرة .	
صريح النصوص في كون الرواية تستوجب العبادة . إضافة الرب إلى الناس ، مع أنه رب كل شيء ، والسرفيه والنصوص العديدة .	٦٦٠
قوله تعالى : (ملك الناس) وبيان ما فيها من التدرج في درجات السكال .	٦٦٣
ما تقر به الإضافة في ملك الناس مع أنه سبحانه ملك كل شيء ، والنصوص فيها .	٦٦٤
قوله تعالى : (إله الناس) . هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية . وهي الناية المطلوبة من الخلق أفراد الله تعالى بالعبادة .	٦٦٧
ربط بين خاتمة المصحف ، وافتتاحيته ، من باب عوداً على بدء .	٦٦٨

الموضوع

الصفحة

٦٦٩ قوله تعالى (من شر الوسواس الخناس) إحالة على كلام الشيخ في معنى الوسوسة .

٦٧٠ قوله تعالى (الذي يوسوس في صدور الناس) والخلاف في الظرف هنا لاى شئ . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٦٧٢ الظاهر من كل ما تقدم .

الخلاف في المراد من لفظ الناس هنا .

٦٧٣ رأى الإمام ابن تيمية رحمه الله في ذلك . الترجيع بكثرة الاستعمال في القرآن . منافشة الإمام ابن تيمية للعباد على لفظى نفر رجال .

٦٧٤ رأى لأبى السعود في معنى الناس بحذف باء من النسيان . ورد هذا القول . مناقشة الجمع إلى المثني .

٦٧٦ الراجع من كل ذلك في معنى (الناس) هنا تنبيه على مقارنة لطيفة بين المعذبين لأبى حيان . التطلع إلى ذلك من زمن ، وبيان وجهات نظر أخرى .

٦٧٨ رب الفلق تعادل رب العالمين في أول المصحف لأن مامن موجود في السكون إلا وهو مفلوق عن غيره ، وبيان ذلك تعدد المستعاض منه في الأولى وانفراد في الثانية لشدة خطوه .

٦٧٩ الوسواس الخناس سبب كل فتنة ابتداء من آدم إلى اليوم .

٦٨٠ امتداد الوسيلة له وهو نزع اللباس عن المرأة .

٦٨١ بيان أن الشك أخطر سلاح .

كلمة مؤتمر المبشرين في الشرق عن التشكيك .

٦٨٢ وجهة نظر أخرى بين سورة الناس ونسق المصحف .

٦٨٣ الموضوع الإجمالى لسورة البقرة تشمل الأصول والفروع

٦٨٤ ما يفيد نسق المصحف الشريف في هذا الموضوع .

الموضوع	الصفحة
المؤذنان وقفة بنا عند آخر المصحف	٦٨٥
أشد المداوة الحسد	
٦٨٦ تنبيه : طريقة النجاة من الوسواس من اللجنة وأناس أمران :	
الاول : من عمومات التكليف .	
الثاني : كنت سمعته من الشيخ في آية من كتاب الله .	
٦٩٠ الآثار في الاستعاذة بالسورتين	
٦٩١ خاتمة نسأل الله حسن الختام	
٦٩٢ اعتذار	
٦٩٣ شكر وتقدير	
٦٩٩ رسالة في الناسخ والمذسوخ في أبيات للسيوطي شرحها الشيخ .	

جدول تصويب خطأ الجزء التاسع من الأضواء

الثاني من التتمة

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٤	حقوق الطبع محفوظة	التقدير	١٧٦	١٨	التقديم	التقدير
٢٤	٦	بالسبعجات	إلى الله ما قدره إلى ما قدره	١٧٧	٧	إلى الله ما قدره	إلى الله ما قدره
٢٩	١٥	وتقدم سورة	وماء آسن	١٨١	١٧	وماء غير آسن	وماء غير آسن
٣٨	١	والقمر في فلك والقمر كل في فلك	القبيلة	٢٠١	٧	القبيلة	القبيلة
٤١	٥	النصوص	أهنما	٢٣١	٣	أهنما	أهنما
٤٨	٩	عاقبة	عمن	٢٥٤	٦	عمن	عمن
٥١	١٥	هذه	مع يتأني	٢٨٥	١٥	مع يتأني	مع ما يتأني
٥١	١٨	وأما أنا	منه	٢٩٣	٣	منه	منه
٥٦	١٤	من شيء	قس	٣٠٠	٨	قس	قسا
٥٨	٤	المجرمين	مسيره	٣٠١	٢	مسيره	ميسرة
٦٨	٦	يمجادل بغير	النار إلى	٣٣٢	١٤	النار إلى	إلى النار
٧٦	١٧	وما ضل	فهم	٣٥٧	١٧	فهم	فيها
٨٤	١٩	خير	القلنشدى	٣٦٩	٩	القلنشدى	القلنشدى
٨٦	٧	حصى	الشدياقى	٣٦٤	١٠	الشدياقى	الشدياقى
٩٦	١٠	ذر	على صالح	٤١٧	١٣	على صالح	على أن صالح
١١٢	١٥	أعرضنا	يعملون لا يعصون يعملون] وقوله	٤١٨	١٥	يعملون لا يعصون يعملون	يعملون لا يعصون يعملون
١١٦	١٤	العالم	قل لا أقول	٤١٨	١٦	قل لا أقول	قل لا أقول
١٢٣	١٣	سلالا	لم يوضع القوى يكمل القوس	٤١٩	٣	لم يوضع القوى يكمل القوس	لم يوضع القوى يكمل القوس
١٢٤	١	عنس	على الآية	٤٢٠	١٠	عنها	عنها
١٢٤	١٤	ممنون	فيه	٤٢٠	١١	فيه	فيه
١٣٥	١٤	بما عمل عليها	نوازع ثم	٤٢٠	١٤	نوازع ثم	نوازع الشر
١٣٩	١٤	أما أشقى	أن يأتي بدم في حق من يأتي بدم	٤٢٠	١٨	أن يأتي بدم في حق من يأتي بدم	أن يأتي بدم في حق من يأتي بدم
١٤٠	١١	به صدغه					
١٧٥	٩	وتحمدون					

صواب	صفحة سطر	خطأ	صواب	صفحة سطر	خطأ
ولا يزال	٦ ٤٥٩	زال	٤٢٤	أول الصفحة ٢٢٤	٤٢٤
إملائه	٨ ٤٥٩	ملائه	قطما	١٤ ٤٢٤	فملا
يزدهن	١ ٤٦٠	يزيده	تجاوزوا	١ ٤٢٥	تجاوزوا
كالجراد	١ ٤٦٠	كالجراد	حسبي حسبي	٣ ٤٢٥	حسبي حسبي
جاءت	٨ ٤٧٢	جاء	كافينا	أكافيني	
الآخرة	٣ ٤٧٣	في الآخرة	ذلك	ذلك	٤ ٤٢٥
إنه	٣ ٤٧٥	إنه	٤٢٦	أول الصفحة ٣١٦	٤٢٦
إلى	١٢ ٤٧٦	إني	موناها	٨ ٤٣٠	موناها
لا زيارة قبور إلا زيارة القبور	١٣ ٤٧٦	لا زيارة قبور	المرسلون	٨ ٤٣١	المرسلين
فلان	١٤ ٤٧٦	فلانا	مبجشان	١٢ ٤٣٢	مبشان
طافوها	١٥ ٤٧٦	طافوها	لقوله	١١ ٤٣٣	لقو
أسفاراً	١٧ ٤٧٦	أسفار	إن الذين	٦ ٤٣٥	الذين
عليه	١ ٤٧٨	عليهم	وجمل	١٥ ٤٣٥	وجل
بعضهم	١٤ ٤٧٨	البعض	الخيول وقد	١٧ ٤٣٩	الإبل
طى	١١ ٤٨١	عا	فوسف	١٥ ٤٤٠	فوسف
أن تعبد	٣ ٤٨١	تعبد	وهذا	٦ ٤٤١	وهذ
اليقين	١٠ ٤٨١	يقين	وجدت	١٢ ٤٤١	وجد
وجهتها	١٦ ٤٨١	ووجهتها	٤٤٢	أول الصفحة ٢٤٢	٤٤٢
أعداء	١ ٤٨٣	إخوانا	جمع	١ ٤٤٢	جما
لا تزال	١٢ ٤٨٣	لا تزال	ينرف	٤ ٤٤٣	يقرف
أورد	١ ٤٨٤	روى	ويتوسطن	٥ ٤٤٣	ويتوسط
أنعمت به	٤ ٤٨٧	أنعمت	ترجيحا	١١ ٤٤٣	ترشيحا
وقد ينفذ	٦ ٤٩١	وقد ينفذ	الشاعر	٥ ٤٤٥	الشاعر
على التفسير إن على التفسير إذ	١٥ ٤٩١	على التفسير إن على التفسير إذ	وتأكلون	١٢ ٤٤٩	كلون
ويرشح لهذا ويرجح هذا	١٥ ٤٩٣	ويرشح لهذا ويرجح هذا	العاديات	١ ٤٥١	العدييات
في الآتي	-١ ٤٩٦	كالآتي	الشاعر	٣ ٤٥١	الشاعر
ولم يتنافس ولم يتنافس	-٣ ٤٩٩	ولم يتنافس ولم يتنافس	لا تخفى	٥ ٤٥٣	لا يخفى
بالجمة رأسا	٦ ٥٠٠	جمة برأس	للقارة	١ ٤٥٨	القرمة
الواضحات	٦ ٥٠٠	البیض			

صفحة سطر	خطاً	صواب	صفحة سطر	خطاً	صواب
٣ ٥٠١	له	آية	٦ ٥٨٩	المفتوح	المفتوح
٥ ٥٠٦	باحق	بالحق	١٤ ٥٩٥	مفترا	مفترا
١ ٥٠٧	لابنه	لقمان لابنه	١ ٥٩٦	بالانما	بالإنعام
٤ ٥٠٧	علينا عليه	علينا وعليه	٢ ٥٩٦	البعض	بعضهم
١٤ ٥٢٤	موج	موجة	١ ٥٩٨	وبأمر	وبأمره
١٥ ٥٢٦	عيسى	لعيسى	٦ ٥٩٨	الإيمان	الإيمان
٥ ٥٢٨	ممتلاءة	ممتلئة	١٣ ٥٩٨	بافتح	بافتح
١٣ ٥٢٨	إرهص	إرهاص	٨ ٦٠٤	التبأت	التبأت
٨ ٥٢٩	المنتصرة	المنتصر	١ ٦٠٥	فما كان	فلما كان
٥ ٥٣٦	قول	قول الشاعر	١٢ ٦٠٥	قراء	قراءة
١١ ٥٣٩	مماحي بدنه	مماحي في بدنه	١٤ ٦٠٦	جاء به	جابه
٢ ٥٥١	ديب ال	ديب النمل	٥ ٦٠٧	لاوه	لاواه
١٥ ٥٥١	ل	بل	٢ ٦١٢	فرد به	فرد بل
١٢ ٥٥٢	لدى	الذى	١٥ ٦٢٢	وحد	واحد
٧ ٥٥٤	عانها	ضمانها	٢ ٦١٣	ودلاتها	ودلاتها
١٣ ٥٥٤	وفقرض	والقرض	١٥ ٦٢٣	أو إلى ابن	أو لابن
١٠ ٥٥٥	بوا	بواحدة	٦١٤ أول الصفحة ٦٠٤		٦١٤
٧ ٥٥٦	مض	بعض	٣ ٦٢٣	إلى	إلى غيره
١٥ ٥٥٦	العمر	العربي	٧ ٦٢٣	قل	قال
٨ ٥٦٠	في قول	في قوله	٦ ٦٢٥	سبحان ما	سبحان من لا
٥ ٥٧٣	الفقهاء أن	الفقهاء على أن	٣ ٦٣٥	باليله	باليلة
٦ ٥٧٣	على ذلك	على أن ذلك	١١ ٦٣٩	أخبرني أنه	أخبرني من رأى
١٥ ٥٧٣	شأنوك	شأنك	٨ ٦٣٩	البعض	بعضهم
٤ ٥٧٤	سبحانه تعالى	سبحانه وتعالى	٨ ٦٤٨	الحامن	الحامل
٣ ٥٨٠	ولا تتم	ولا أتم	٨ ٦٤٧	ولا كفار	ولا كفارة
١٠ ٥٨٢	لم يساو	لم كساو	٧ ٦٤٦	كانت معصية	إذا كانت أول
٨ ٥٨٥	وسط	وسطا		معصية	
			٧ ٦٤٦	بأيننا	لايننا

صفحة سطر	خطأ	صواب	صفحة سطر	خطأ	صواب
١٤ ٦٤٧	من	من أثر العين	٦ ٦٧٢	إطاق	إطلاق
١ ٦٥٠	رحل	رحلا	١٦ ٦٧٢	كن	كان
٨ ٦٥١	يكفؤ	يكفأ	٧ ٦٧٤	والفغة	والنفلة
٥ ٦٥٣	بدأى	يداوى	١٥ ٦٧٧	يثر	يشير
١٢ ٦٥٩	واستحققه	واستحقاقه	٤ ٦٨١	والاستغلال	والاستقلال
١ ٦٦٢	متعالى الملك	فتمالى الله الملك	٧ ٦٨٣	من ربك	من ربهم
٢ ٦٦٣	بدأ	بدء	١٦ ٠٠٠	روع	فروع
٧ ٦٦٣	تداد	تعداد	٨ ٦٨٧	فيتخيل	فيخيل
٣ ٦٦٤	ضرورة له	ضرورة بالالوهية	٨ ٦٨٧	صوتا يجد	صوتا أو يجد
٦٦٥ أول الصفحة ٥٦٥	٦٦٥		٩ ٦٨٨	الغريمة	الغزيمة
٣ ٦٦٥	كمل	كال	٧ ٦٩٢	سبة	نسبة
٧ ٦٦٦	كاملتين	كاملين	١٥ ٦٩٦	أبناء	أبنائه
٣ ٦٦٩	مباغة	مبالغة	٧ ٦٩٧	في محالة	في محاولة
٧ ٦٧٠	على ما جار	على ماهو جار			

الكلمة الأخيرة :

الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات
والصلاة والسلام على رسوله نخر الكائنات

وبعد :

فهذا هو الجزء التاسع - والآخر - من تفسير [أضواء البيان فى
إيضاح القرآن بالقرآن] لمؤلفه العالم الجليل الشيخ محمد الأمين الحكنى
الشنقيطى (م ١٣٩٣ هـ) رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم للمكتبة
الإسلامية من آثار علمية نفيسة .

هذا هو الكتاب بأجزائه التسع ؛ سواء منها ما آتمه الشيخ بنفسه ،
وذلك حتى نهاية الجزء السابع ، أو آتمه تلميذه العالم المحقق الشيخ عطية
محمد سالم على أسلوب شيخه ومنهجه وذلك فى الجزء من الآخرين ، الثامن والتاسع .
هذا هو الكتاب الذى شرفت مطبعة المدنى (المؤسسة السعودية بمصر)
أن تكون القائمة بإخراجه وتقديمه لقراء اللغة العربية حيث كانوا من أرض الله .
ولا شك أنه عمل نعتز به ، وليس هناك شئ أفضل من القرآن وعلموه
نعتز به وتنافس فيه .

حيا الله العالم الجليل الذى وقف عمره المبارك على خدمة القرآن
ومعارفه ، ثم توج أعماله بهذا الأثر النفيس .
وحيا الله تلميذه الذى آتم ما بدأه شيخه وسار على نهجه فى غير
ما تصور ولا تقصير .

وحيا الله الكرام الباذلين ، الذين أنفقوا أموالهم فى سخاء على هذا
العمل المشكور ، ويسروه لطلاب العلم ، وجملوه وقفا لله .
وتحية كبيرة عظيمة مخصصة إلى الإمام الجليل ، والعالم الحجة ، سماحة
الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الذى كان لجهوده الموفقة أكبر الأثر
فى إشاعة هذا الخير ، وإذاعته بين الناس .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله
رب العالمين ؟

مدير المطبعة

محمد ربيع الدين

الفهرس الفقهي لكامل أضواء البيان

قد جمع هذا الفهرس مباحث الققه المنتورة في أضواء البيان ، ورتبت فيه حسب الأبواب الفقهية ، ومبين فيه عنوان البحث ورقم الجزء والصحيفة والسورة .

وذلك تسهيلا للدارس وتوفيرا للوقت .

وبالله التوفيق

الفهرس الفقهي لكامل أضواء البيان

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
			الطهارة والنجاسة
٢٩٦	٣	النحل	طهارة المفى
٦١٩	٨	الذثر	طهارة الثوب للصلاة
١٠٧		المائدة	نجاسة الحجر والكولونيا
٣٥	٢	»	مباحث الوضوء
٧	٢	»	غسل الرجلين
١٤	٢	»	المسح على الخفين
٣٦	٢	»	التيمم

كتاب الصلاة

٥٧٩	٤	طه	ستر العورة للصلاة
٦٢١	٣	بنى إسرائيل	أوقات الصلاة
٣٧٨	١	النساء	وقت الظهر - العصر - المغرب
٤٠٦	١		» العشاء - الصبح
١١٩	٩	الانشقاق	الشفق الأبيض
			طهر الحائض قبل الغروب
٤٠٥	١	النساء	بما يسع ركعة واحدة
٣٥٧	٣	النحل	الإستعاذة عند القراءة
٧٣٨	٤	مريم	موقف الإمام أعلى من للمؤمنين
٧٥٥	٥	المؤمنون	نظر المصلى وهو فى صلاته
٢٣٧	١	النساء	قصير الصلاة فى السفر

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣٦٠	١	النساء	مشروعية القصر وتحديد المسافة
٣٩٤	١	»	جمع التقديم والتأخير في السفر
١٦١	٣	الحجر	الأما كن للنهي عن الصلاة فيها
٣٤٥	١	النساء	صلاة الخوف
٣٣١	٤	مريم	إضاعة الصلاة وحكم تاركها
٦٢٤	٣	بني إسرائيل	التداوى بالقرآن
٤٦١	٨	المعارج	موجز حكم تارك الصلاة عند الأئمة
	٨	سورة الجمعة	مباحث صلاة الجمعة
			أول جمعة في الإسلام وأول جمعة صلاحها
٢٧١	٨	»	النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٣	»	»	للساعة التي في يوم الجمعة
٢٧٥	»	»	القراءة في فجر يوم الجمعة وحكمتها
٢٧٦	»	»	حجود التلاوة في صبح الجمعة
٢٧٩	»	»	الخلاف في اللراد بالسمى إليها
٢٨١			الخلاف في القدر الذي به تدرك الجمعة
			حكم صلاة الجمعة عند الأئمة :
٢٨٨			عند مالك
٢٨٩			» الشافعي
٢٩١			» الأحناف
٠٠٠			» الحنابلة
٢٩٤			بيان من لا جمعة عليه
٢٩٨			سقوطها على أهل البوادي
٢٩٩	٨	الجمعة	مكان الجمعة عند الأئمة
٣٠١	»	»	اهتراط الاستيطان

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣٠٢	٨	الجمعة	اشتراط الأمير والقاضي
٣٠٦	»	»	العدد في الجمعة
٣٠٨	»	»	وقت السعي إلى الجمعة
٣١٠	»	»	النفل إلى الجمعة
٢٢٩	٦	النور	صلاة المرأة في بيتها
٦١٤	٨	المزمل	قيام الليل
			حرمة البيت الحرام
٢٢٦	٨		خروج النساء إلى المساجد

الجنائز

٤١٦	٦	النحل	تلقين الميت
٤٧٣	٩	التكاثر	زيارة النساء للمقابر

المساجد

٥٤٦			المواطن للنهي عن الصلاة فيها
٥٥٣			اختصاص للمساجد الثلاثة
٥٥٩			مضاعفة الصلاة للفرص والنفل
٥٦٧			الصلاة في الصف الأول والروضة
٥٧٠			تقدم للمؤمنين على الإمام
٥٦٩			حكم المضاعفة لخارج للمسجد
٢٣٨	٦	النور	صلاة المرأة في بيتها أفضل لها
٥٧٢	٨	الجن	صلاة الأربعين صلاة في المسجد النبوي
٥٧٥	٨		السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن
٥٧٦	٨	»	شد الرحل وبيان حكمه
٣٠٣	٨	الجمعة	الأذان ومشروعيته

الصفحة	الجزء	السورة الجمعة	المبحث
٢٠٩	٨	الجمعة	فضل الأذان
٢٠٩	»	»	آداب المؤذن
٢١٠	»	»	كراهية التثني فيه
٢١١	»	»	الفاظ الأذان
»	»	»	الإقامة
٢١٦	»	»	الترجيع
٢١٦	»	»	التثويب
٢١٧	»	»	عدد التكبيرات
٢٢٠	»	»	صفات الأذان الأربع
٢٢٤	»	»	كيفية أداء الأذان
٢٢٤	»	»	حكمه عند الأئمة
٢٢٦	»	»	هل هو حق لصلاة أم للوقت
٢٢٩	»	»	حكم من تركه من أهل المساجد
٢٣٠	»	»	لا أذان على النساء
٢٣١	»	»	تمدد المؤذنين لصلاة الجمعة
٢٣٣	»	»	مكان الأذان الأول (الزوراء)
٢٣٨	»	»	تمدد الأذان للصلوات الخمس
٢٤٠	»	»	خلاف الإحناف في تمدد الأذان للصبح
٢٤٠	»	»	لزوم تعيين مؤذن للأول من الصبح
٢٤١	»	»	تمدد للمؤذنين في وقت الفريضة
٢٤٣	»	»	صفة أذانهم عند الاجتماع
»	»	»	عند الشافعية
٢٤٤	»	»	المالكية
٢٤٥	»	»	الحنابلة
٢٤٥	»	»	الإحناف

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٢٤٦	٨	الجمعة	عند ابن حزم
٢٥١	د	د	محاكاة المؤذن
			بعض الزيادات على ألفاظ الأذان
٢٥٢			عند المحاكاة
٠٠٠			الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقبها
٢٥٤			إذا سمع النداء وهو في نافلة
			إذا دخل للمسجد أثناء الأذان
			هل يصلى التحية أو يجيب المؤذن ؟
			ومحاكاة أكثر من مؤذن في وقت
٢٥٨			لا أصل لكل ما زيد في ألفاظه
٢٦٠			الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان
٢٦٢			حى على خير العمل
٢٦٤			هل يتنفل لأذان عثمان

كتاب الزكاة

٤٦٣	٨	المعارج	تاريخ مشروعاتها
			أصول الأموال الزكوية
٤٦٤			الخلاف في الحيل وبيان الراجع
٤٦٩			أنصاء الزكاة
٤٦٩			كلام مالك في الملوقة والمواهل
٤٧٤			زكاة البقر
٤٧٧			الكلام في الخلطة
٤٧٩			للمناسبة بين الأنصاء
٤٨١			ما يجوز أخذه وما لا يجوز
٤٨٣			من أسرار التشريع في الزكاة
٤٨٤	٨	المعارج	زكاة الفطر

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٤٨٩			مناقشة القول في القيمة
٤٩٤			التقدر الواجب في الفطر
٤٩٥			الأقوال في وزن الصاع
٤٩٩			عمل معياره بالماء والمعدس
٤٣١	٢	التوبة	زكاة الذهب والفضة
٤٣٤	٢	د	نصاب الذهب والفضة
٤٣٨	٢	د	زكاة الحلي
٤٥٧	٢	د	عروض التجارة
٤٦٢	٢	د	زكاة الدين
٢١٢	٢	الانعام	د الحرث والعسل
٤٦٦	٢	التوبة	د المعادن
٤٧٤	٢	د	مصارف الزكاة

الصيام

١٢٠	١	البقرة	الأيام للمعدودات
			بيان الحيطين الأبيض والأسود
٣٨٧	٩	التقدر	تحديد ليلة القدر
٦١٤	٨	الزمل	قيام الليل في رمضان

كتاب الحج

٧٠	٥	الحج	وجوب الحج وشروطه
٢٨٢	١	البقرة	كفر من لم يحج
٧٤	٥	الحج	سقوط وجوبه عند العبد والصغير
٧٥	٥	د	الاستطاعة في الحج

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
١٠٨	٥	الحج	الحج على الفور
١٠٤	د	د	الحج عن الغير
٦٥١	د	د	حكم العمرة
٣١٨	د	د	مواقيت الحج والعمرة
٥٧٠	د	د	إدخال الحج على العمرة
٢٤٣	د	د	التلبية
٦٧	د	د	أفضلية الحج ماشياً أو راكباً
٢٥٦	د	د	محظورات الإحرام
٤٦٢	د	د	غسل المحرم رأسه وحجامة
١٣٠	٢	المائدة	قتل المحرم للصيد
٥٧١	٥	الحج	التمتع
١٢٦	د	د	الإنسائك الثلاثة
١٩١	د	د	الطواف
٦٨٦	د	د	د
٢٢٩	د	د	السمي
٢٥٤	د	د	الوقوف بعرفة
١٤١	١	البقرة	الإفاضة
٢٦٤	٥	الحج	النزول من مزدلفة
٢٧٥	٥	د	جمره المعينة
٢٨٧	٥	الحج	التحلل من الإحرام
٥٨٧	د	د	الحلق أو التقصير
٢٩٣	د	د	الرمي أيام التشريق
٤٨٩	د	د	التمتع من منى والهدى
٥٧٣	د	د	هدى التطوع والواجب

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣٢	١	البقرة	ما استيسر من الهدى
٦٠٢	٥	الحج	الإكل من الهدى
١٣٧	٢	المائدة	ما يجوز قتله في الإحرام من الحيوان
٦٢	٨	الحشر	قتل الحرم للزنبور
٤١	٢	المائدة	د د د والنخل ... إلخ
١٤٢	٧	د	قتل الصيد خطأ أو نسياناً
١٤٤	٢	د	إذا تكرّر قتل الصيد
١٤٨	٢	د	بيان المثلية في الصيد
١٤٩	٢	د	التخيير بين الجزاء والإطعام والصيام
١٤٤	٢	د	حكم بياض الصيد
١٥٥	٢	د	شجر الحرم المكي
١٦٠	٢	د	حكم حرم المدينة صيده وشجره
١٦٧	٢	د	حكم صيد وادي وج
١٦٨	٢	د	مباحث أخرى في الحرم والصيد
٥٦٥	٥	الحج	الفوات والإحصار
٥٥٤	د	د	الصوم عن الهدى
٤٧٨	د	د	تمدد الفدية
٦٠٩	د	د	الأنحية
٦١٦	د	د	الفرع والمعترة
١٤٠	١	البقرة	الإنجاء في الحج
١٢٢	١	د	الإحصار
			تحريم التصوير في المسجد الحرام
٦٤	٥	الحج	وشدة النكير عليه
٥٨	٥	د	حرمة المسجد الحرام
٣٧٢	٨	التحرير	عموم جواز العمرة من التمتع

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
			الزيارة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم
٦١٣	٧	الحجرات	عليه وسلم
٥٧٥	٨	الجن	السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
			اليوم والربا
٢٦١	١	البقرة	الإشهاد على البيع
			بيع الثمر بعد بدو صلاحه والنخل بعد
١٢٧	٣	الحجر	تأثيره والحب بعد اشتداده
٢٦٠	١	البقرة	كتابة الدين
٢٣٢	٣	النحل	بيع الحيوان باللحم
٢٣١	د	د	جنس اللحوم
٣٠٥	١	النساء	شراء الوصي من مال اليتيم
	٨	الجمعة	تحريم البيع عند نداء الجمعة
٩١	د	المطففين	تطيف الكيل والربا
١٠١	٩	المطففين	البيع برخص ليضر الآخرين
١٠٢	٩	د	تميين نوع الكيل والوزن للامام
١٠٢	٩	د	بيان بعض حيل التطفيف
٢٢٩	١	البقرة	ربا الجاهلية
٢٣٠	١	د	ربا النساء وربا الفضل ... إلخ
٢٥٦	١	البقرة	الأوراق للتعامل بها
٢٥٨	١	د	بيع الاجال والعينة
			الإجارة
١٠	٣	هود	الاجرة على التلاوة
٥٥	٤	الكهف	الشركة
٥٥٠	٩	الماعون	أحكام العرية وتضمينها
٥٠	٤	الكهف	الوكالة

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
كتاب النكاح			
٣٠٥	١	النساء	نكاح اليتيمة وعدم إجبارها
٣٠٥	د	د	نكاح الأربع
٤٢٥	١	د	العدل بين النساء
٢٧٨	٢	الأنعام	العزل
٦٣	٩	التكوير	العزل ومنع الحمل
١٤٣	١	البقرة	منع إتيان النساء في غير محل الحرث
١٤٦	د	د	الرد بعيب في النكاح
٣٢٥، ٣١٨	١	النساء	ملك الميمن
١٤٢	١	البقرة	منع نكاح للشركات
١٤٢	١	د	نساء أهل الكتاب
١٦٠	٨	المتحنة	نكاح الكفار
٣١٤	١	النساء	المحرّمات في النكاح
٢١٧	١	البقرة	الرضاع
٢٩٥	٣	النحل	لبن المحل
٣٠٤	د	د	لبن المرأة الميتة والبهيمة الميتة
٣٢٣	١	النساء	تحريم نكاح المتعة
٧٧٢	د	المؤمنون	تحريم نكاح المتعة
٥٠٣	٨	المآرج	د د د
٣١٨	٣	النحل	للزوح بالجن
٥٧١	٤	طه	نفقة الزوجة والأولاد
٤٠٩	٢	الأنفال	د د د
٢١٤	٦	النور	نكاح الأيامي
٧١	٦	د	نكاح الزانية
٣٤٠	د	الفرقان	د البغت من الزنا

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
١٦٤	٨	المتحنة	فسخ نكاح الشرك إذا لم يهاجر
٣٥٨	٨	الطلاق	الطلاق : السنى والبدعى
١٥٩	١	البقرة	حكمة كون الطلاق بيد الرجل
١٥٩	٠	٠	عدد الطلقات
١٥٧	٠	٠	رد المطلقة
١٦٠	٠	٠	طلاق الثلاث بكلمة واحدة
١٤٩	٠	٠	عدة المطلقة الحرة
٣٥٦	٨	الطلاق	عدة الأمة ومناقشة هامة
٢١٩	١	٠	متمة المطلقة
٣٢٨	١	النساء	النشوز

الخلع

٣٦٤	٨	الجمعة	عدة الحامل
٨٢	٣	الرعد	مدة الحمل والحيض أقله وأكثره
٨٤	٣	٠	مدة الحمل والحيض أقله وأكثره
٣٨٥	٧	الأحقاف	مدة الحمل والحيض أقله وأكثره
٢١٧	١	البقرة	عدة المتوفى عنها
٥١٣	٦	الأحزاب	الظهار
٥٤٥	٦	الأحزاب	كفارة الظهار
٣٦٥	٨	الطلاق	مدة الرضاع
٣٠٢	١	آل عمران	مباحث اليتيم
			رشد اليتيم
٢٧٨	٢	الأنعام	علامة البلوغ
٢٧٨	٠	٠	معرفة الرشد
	٩	الماعون	حفظ مال اليتيم

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
			اللباس والأواني
٢٣٨	٣	النحل	لبس الحرير والذهب للنساء
٢٣٩	"	"	" ذلك للرجال
٢٣٧	"	"	منع تشبه الرجال بالنساء
٢٣٦	"	"	جواز لبس الثوب المكلل باللؤلؤ
٢٣٨	"	"	منع الشرب في آنية الذهب والفضة
٢٤١	"	"	الفضة للرجال
١٩٢	٦	النور	زينة المرأة وسترها
٥٨٤	٦	الأحزاب	حجاب المرأة
٥٥٨		الماعون	ضمان العارية

الأطعمة

٢٤٦	٢	الأنعام	ما يحرم أكله وما اختلف فيه
٩٠	١	البقرة	ما يحل من الميتة وصيد البحر
١٠٥	"	"	ما يحل من الميتة وصيد البحر
٣	١	"	الميتة ولحم الخنزير أيهما يقدمه المضطر
٣	١	"	" الإنسان للمضطر
٣	١	"	للميتة والصيد للمحرم
٣	١	البقرة	للميتة وطعام الغير
٣	٢	للمائدة	ذكاة الجنين بذكاة أمه
١٤٢	١	البقرة	منع الخمر واليسر
٣٠٩	٣	النحل	النبيذ

الميراث

١	النساء	ميراث الأولاد
"	"	" الاختين واليتيم
٢	الأنفال	" ذوى الأرحام

٢٧١
٢٧١
٢٧١

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣١٣	١	النساء	ميراث الكلاله
٢٢٣	٤	مريم	عدم ميراث الانبياء
٧٤٢	٤	الانبياء	الوصية
١١٠	٢	المائدة	توارث أهل الكتاب

الوقف

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٢٣٤	٧	الزخرف	وما لا يشملها

الايان والنذور

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
١٤٧	١	البقرة	انقضاء اليمين
١١٩	٢	المائدة	الايان وكفاراتها
٨٥	٤	الكهف	الاستثناء في اليمين
١٥٥	٣	الحجر	تعدد الاستثناء
			اليمين بالحرام
٦٩	٩	التكوير	مبحث عام في القسم
٤٨٨	٤	مريم	النذر
٦٥٩	٥	الحج	لنذر
٥٩٣	٨	الجن	نذر الصلاة في غير المساجد

الرق

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٤١٧	٧	محمد	سبب الرق وأحكامه
		المائدة	القصاص والحدود
٥٨	٢	المائدة	القصاص
١٠٥	د	د	المائة في القصاص
٣٨٦	٣	النحل	لا يقتل مسلم بكافر
٧٩	٢	المائدة	لا يقتل مسلم بكافر
٤٩٩	٣	بنو إسرائيل	القصاص والدية

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٥٥٥	٢	بنى إسرائيل	القسامة
٨٦	٢	المائدة	قطاع الطريق
١٧	٥	الحج	قتل الجنين
٣٣	٢	المائدة	القتل بالسحر وكل أعماله
٦٠٤	٤	الأنبياء	السحر
٤٧٢	٤	طه	د
	٩	الفلق	القتل بالعين في الحسد
١٧٦	٤	الكهف	حكم استنابة الزنديق
١٩٨	٢	الأنعام	المراف والساكن
٣٢٥	٢	الأعراف	فاحشة قوم لوط
٤٠		هود	د د د
٣٨	٢	د	د د د
٤٠٧	٢	الأنفال	السرقعة من الفضيعة
٥٥٩	٩	الماعون	حكم من جحد المارية
٢٢٦	١	النساء	تنصيف الحد على ملك اليمين
٧٦٩	٥	المؤمنون	الاستمناء باليد
٨٥	٦	النور	حد الزنا
١٣١	٦	د	اللعان
٣٨٩	٦	الشعراء	السفر والشعراء ، وإذا قذف في شعره
١٢٦	٦	النور	لجوء الجاني إلى الحرم

الجهاد

٣٤٣	٢	الأنفال	الأنفال والغنائم
٣٨٥	د	د	التنفيذ
٣٨٩	٢	د	من أسر أسيراً فله سلبه
٣٩٤	٢	د	تخميس السلب
٣٩٩	د	د	ما يقطاه الفارس وغيره

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٤٨	٣	هود	تخصيص بنى هاشم بهم الغنيمة
٣٥١	٢	د	للغنيمة والخمس ومصرفهما
٤٠٨	د	د	حكم النساء والصبيان في الغنيمة
٤٠٤			الغلول من الغنيمة
			أرض مكة بيعها وإيجارها
٣٧٣	٢	الأنفال	وما فتح صلحاً أو عنوة
٤٨	٨	الحشر	الحصاد وتقطيع الشجر

القضاء

٦٥٠	٤	الأنبياء	الحكم واجتهاد الحاكم والقياس
٧٣١	٤	د	قضية داود وسليمان في الحكم
٢٩	٥	الحج	التقليد والجهل
١٦	د	د	الجدل بحق
١٧٨	٢	المائدة	الشهادة
١٣١	٩	البروج	د وأقسامها
٦٢٦	٧	الحجرات	د
٥٢٩	٧	محمد	الحكم بالقرائن
٥٠٦	٨	المعارج	مورد الشهادة في القرآن
٥٠٨	٨	د	الشهادة من حيث الجنس والعدد
٥١٠	٨	د	شهادة جماعة الصبيان
٥١١	د	د	شروط المدالة والصدق
٥١١	د	د	تاريخ أو تزكية الشهود
٥١١	د	د	مراتب الشهود وإحدى عشرة مرتبة
٥١٤	د	د	تفريق الشهود
٥١٥	د	د	علامة الشهادة باليمين في الحكم
١٣٦	٩	البروج	د د د د
٥٦١	٩	د	من شروط الشهادة عند مالك